فريق متميزون
E-BOOK

أمير عاطف

الطبعة 3

رواية

لا تبدأ القتل

دار دَوِّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

لا تبدأ بالقتل
رواية..

الكاتب: أمير عاطف.

الاهداء..

إلى تلك الأيام الخوالي، التي قضيتها مع أسرتي الأولى. صوت أمي العذب الذي كان يتردد في أرجاء المنزل، وما زال يتردد حتى الآن داخل أرجاء روحي. ركض أخي خلف الكرة ليمسكها قبل أن تكسر الزهرية، مُبتسمًا ابتسامة ظفر. هدوء أبي وهو جالس يتصفح جريدة الجمعة... وتلك الرائحة التي ما زالت تسكن صدري.. وستظل هكذا إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

*** الحرية هي أول خمس دقائق وُلدت فيها أبكي عاريًا، بلا اسم، بلا خطيئة، بلا توجهات، وبلا حقد بشرّي.**

مكسيم غوركي

أديب وناشط سياسي ماركسي روسي

(١٨٦٨ - ١٩٣٦)

*** أعطني ست ساعات لقطع شجرة، وسأنفق الأربع ساعات الأولى في شحذ فأسي.**

إبراهام لينكولن

الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة

(١٨٠٩ - ١٨٦٥)

الإسكندرية كامب شيزار - شتاء ١٩٨٠

لو كان شكري شعيب يعرف ما سوف يترتب على ما سيفعله في ذلك اليوم، ليس له فقط، ولكن لأجيالٍ قادمة. لكان لزم فراشه لم يبرحه قط، أو على الأقل لم يطأ بقدميه هذا المكان مُطلقًا. كي لا يرى تلك السيارة التي ستقف أمام هذا القصر المنتصب شامخًا، أو يلمح تلك الفتاة التي ستنزل منها بعد دقيقتين...!

ككل شيء جميل في مصر آنذاك، ومن بين المحافظات الساحرة فيها، كانت الإسكندرية من أجمل هذه المحافظات. ليس بها أي منظر قبيح، لا يوجد فيها شيئًا في غير مكانه، لم يزرها أي زائر مصريّ أو أجنبيّ إلا وتعلّق بها وسكنت سويداء قلبه. مدينة جميلة، يزيد من جمالها وبهائها قطرات المطر في الشتاء حين تسقط من السماء على طرقاتها لتغسلها، وعلى سيارات الأجرة ذات اللونين الأصفر والأسود لتزيدها لمعانًا، وعلى المحبين الجالسين على الكورنيش لتضيف إلى بهجتهم بهجات.

في الشارع الموازي لكورنيش البحر يمرّ الترام أزرق اللون - والذي يعلو عربته الأولى طابق ثانٍ – من عدة مناطق، ابتداءً من سيدي بشر مرورًا بسيدي جابر والعصافرة والإبراهيمية انتهاء بمحطة الرمل. من بين تلك المناطق التي يمر بها كانت توجد منطقة تمتاز بأبينتها رائعة الجمال؛ كامب شيزار. والتي كان يقطنها صفوة عائلات الإسكندرية، الطبقة الأرستقراطية. من بينهم هذه العائلة التي وقفت سيارتهم الكاديلاك سوداء اللون أمام بوابة قصرهم المهيب، نزلت فتاة من السيارة لتشتري شيكولاتة من الكشك بالناحية الأخرى، رفض والدها في البداية قائلًا لها أن تدخل معهم القصر وترسل إحدى الخادمات لتشتري لها ما تشاء، لكنها ألحّت بإصرارٍ أن تذهب هي وستلحق بهم إلى الداخل. فوافق والدها على مضض ونزلت بينما فُتِحت البوابة الضخمة وتابع السائق المسير إلى داخل حديقة القصر.

رغم أن الشمس كانت غائمة في تلك الساعة بسبب الأمطار، ولم تستطع إرسال أشتعها إلى الأرض. لكن وجهها المنير كان كفيلًا بتولي تلك المهمة بدلًا عنها. عبرت الشارع قاصدة الكشك الذي يقف بجواره شكري شعيب، ذو الخامسة وعشرين عامًا، والذي اتفق مع أصدقائه أن ينتظرهم هناك ليذهبوا إلى شقة أحدهم ويسهرون فيها – كالعادة - ليتعاطون المخدرات حتى الصباح. وقف مُستندًا بكوعه الأيسر على ثلاجة المشروبات، مُمسِكًا بسلسلة طويلة يلفّها حول سبابته في مشهدٍ سخيفٍ طالما سئمنا مشاهدته. وفي يده اليمنى زجاجة «كازوزة». ما إن رآها مُقبِلة حتى اعتدل في وقفته مشدوهًا، مُنبهرًا بها وبسحرها الأخّاذ، مفتتنًا بقسمات وجهها الصبوح،

وشعرها الغجري كستنائيّ اللون، وثوبها البسيط الكاشف عن استدارتها الساحرة وقدها البض الممشوق، وعينيها الساحرتين الخضراوين والتي يحوّرهما أهدابًا طويلة لا تحتاج لتكحيلها ليتجلى سحرها...! فبلغ وجيب قلبه مداه. حين ولجته دون استئذان.

شعر بقلبه حينها يخفق داخل صدره. أخذه التردد أن يستوقفها ليختلق معها أي حديث، جزء منه حثه أن يتخلّى عن هذا الحذر ويتحدث إليها دون خوف. والجزء الآخر حذره من ذلك بشدة، فعائلتها ثرية مُتنفذة ولو أخبرتهم أنه يضايقها ربما لن يرى الشمس مرة أخرى. ليته أنصت للأخير...! رآها تسير متهادية نحو الكشك حتى وقفت على مقربة منه تمدّ يدها بالنقود إلى البائع قائلة بصوتٍ عذب تردد في أذنيه: - شيكولاتة كورونا من فضلك..

ظل لثوانٍ يتطلع إليها مُنتشيًا بصوتها الساحر ووقعه في نفسه، حتى اقترب منها ليسألها بسخافة أيّ نوع من الشيكولاتة تحبه الفتيات أكثر. رمقته شزرًا ومضت دون أن تتفوه بكلمة، شعر حينها بالإحراج وحاول أن يستوقفها لكنها تفادت لمسه ملوّحة له بيديها إشارة معناها أنه مجنون. رأى أصدقاؤه الذين جاءوا في هذه اللحظة ذلك الموقف فضحكوا عليه وأخذوا يسخرون منه.

- أتسخرون مني؟! أقسم لكم أنني سأجعلها تقع في حبي وسترون ذلك بأعينكم، فلا توجد فتاة في كل الإسكندرية تستعصي على شكري شعيب... سأريكم أنني أستطيع أن أجعلها تركع أمامي.

لم يحدث من قبل أن صدته فتاة هكذا، ولم يزده صدها هذا إلا إصرارًا على المضي قدمًا لاحتلالها ودخول قلبها. هل ليثبت لأصدقائه ثقته في نفسه ومقدرته على الإيقاع بأي فتاة؟ ربما. هل لأنه بالفعل أحبها وافتتن بها وبجمالها؟ ربما. هل انبهر بثرائها ونفوذ عائلتها وفكر في أن يبتزهم بها؟...

ربما!!

كان شكري يعمل في أي شيء، وكل شيء؛ بالصيف يعمل في الشواطيء كمُنقِذ، أو بائع فريسكا أو حتى سمسار شقق للمُصيّفين. وفي بعض الأحيان يعمل كمُصوِّر؛ يأخذ كاميرا من الخواجة برونتوس، أشهر مصور في الإسكندرية حينذاك. ويسير بها على الشواطيء مُرتديًا بنطلون قصير وتي شيرت أبيض ناصع، مُعتمِرًا قُبعة بنيّة اللون كالتي يرتديها رعاة البقر.

ينفق في الشتاء ما يربحه في الصيف...! لم تكن لديه مهنة دائمة، أو مصدر دخل ثابت. في الوقت الذي كان فيه معظم أصدقائه يعملون موظفين في الحكومة بمرتباتٍ ثابتة، عُرِضَ عليه العمل كموظف في الشهر العقاري بأبو قير، أو مكتب بريد الحضرة لكنه كان يرفض.

لم يمر عليه يوم دون مواعدة فتاة غير الفتاة التي واعدها في اليوم السابق. يفتخر دائمًا أمام أصدقائه بمحفظته المليئة بصور عشرات الفتيات سواء من الإسكندرية أو من المحافظات الأخرى الذين يأتون مع عائلاتهم في الصيف..! مُعتمدًا على وسامته وهيئته الجسمانية الفارعة وشعره الناعم أسود اللون، وعينيه العسليتين الواسعتين اللتين تلتمعان ببريقٍ ماكِر. لم يبذل أي مجهود في الإيقاع بأي فتاة...

إلا حسناء...! تلك الفتاة ذات الاثنين وعشرين عامًا، والتي شعر حين رآها أمام الكشك أنها غيرهن جميعًا، ليست كالفتيات المائعات اللائي عرفهن، ملامحها حفرت في ذاكرته لم تغب عنه لحظة. عبق رائحتها حين مرت من أمامه سكنت صدره لم تغادره طرفة عين.. لا شك أنه أعجب بها وانبهر، لكنه انبهر أكثر بثرائها...!

بعد أربعة أشهر... محطة الرمل

خرجت من أتيليه ماريكا بجوار فندق لوميتروبول فاكتشفت أن السائق لم يصل بعد، نظرت مُتأففة إلى ساعتها ثم فكرت في الجلوس بمطعم الفندق لتحتسي فنجان قهوة إلى أن يأتي السائق. صعدت درجات السلم المؤدي إلى المطعم فتفاجأت بشابين ظهرا فجأة، يحاولان التحرش بها، صرخت مُستنجدة بأي شخص من المارة لكن بلا جدوى، فالشارع كان شبه خالٍ. أمسك أحدهما بيدها فصرخت مرة أخرى حتى ظهر من وراء أحد الأعمدة شاب مديد الطول، مهيب الهيئة. وكان هذا الشاب هو شكري، الذي اقترب منهما في تؤدة، ودون أن يتفوه بأي كلمة، لَكَمَ كل واحد منهما لكمتين. هربا بعدها، فأعجبت الفتاة بشجاعته. تحدثا حينها لبضع دقائق قبل أن تسمح له بتوصيلها إلى البيت. ثم أخذ بعدها رقم هاتف منزلها.!

لم تعلم حينها بالطبع أن هذين الشابين هما صديقاه الصدوقين، وأن كل ما حدث ليس إلا بالاتفاق مع بعضهما البعض...!

بعد أربعة أشهر

صارت تحبه ولم تستطع العيش بدونه، وحان وقت مفاتحة أهلها في موضوعهما وأخبرتهم أنه يريد التقدم لهم وطلب يدها منهم رسميًا، سألها والدها - الجالس على كرسيه بتكبر مُمسِكًا بسيجارٍ كوبيّ - عنه وعن حياته وابن مَن مِن عائلات الإسكندرية العريقة. لم تجد ردًا ترد به عليه، لأنها تعلم جيدًا أن هذا الرد سوف يثير ثائرته، ألح عليها مُكررًا أسئلته فأخبرته أنه من عائلة فقيرة بمنطقة أبو قير، وبالفعل حدث ما كانت تتوقعه، نهض من مكانه وصفعها على وجهها صائحًا:

- ادخلي غرفتك ولا تخرجي منها أبدًا يا حيوانة، وانسي أمر هذا الشاب ولا تحاولي التفكير فيه مطلقًا، هل جننتِ يا حسناء؟

التقط من فوق المنضدة صورته مع أخيه وابنه، مُلوّحًا بها أمام وجهها وأردف:

- تتركين عاطف ابن عمك لتحبين كلبًا فقيرًا؟! ماذا حدث في الدنيا ليختلط هؤلاء الفقراء الأوساخ بنا؟! هل اختل ميزان العالم؟!

ركضت نحو غرفتها باكية وقضت بداخلها أكثر من عشرة أيام، لا تفعل شيئًا سوى البكاء والنحيب، امتنعت عن الأكل حتى نحلت وامتقع وجهها، لكن دون جدوى، كل هذا كان بمرأى من أمها التي كانت تتألّم لحالها وتحاول - عبثًا - أن تخرجها مما هي فيه. مما أدى إلى نشوب مشاجرة كبيرة بينها وبين زوجها، الذي كان يومًا ما فقيرًا، حاله حال هذا الشاب. ذكّرته بتلك الأيام التي كان فيها معدمًا لكنه ثار عليها:

- هل نسيتي أنني برغم ذلك فقد استطعت بناء امبراطورية كبيرة؟ هل تريدين أن يضيع كل ما صنعته هكذا في غمضة عين؟!

- وكيف بنيت هذه الإمبراطورية؟ هل نسيت أنها من تجارة الآثار والمخدرات وأن كل ما صنعته حرام؟

- من أخبرك أنه حرام؟! أتريدين أن أكد وأتعب لإيجاد مقبرة رومانية أو فرعونية وأسلّمها هكذا بمنتهى السهولة إلى الدولة؟

- هذه ليست مشكلتنا الآن؟ ولطالما تناقشنا وتجادلنا فيها ولكنك تفعل كل ما يحلو لك في النهاية. مشكلتي الآن هي تلك الفتاة القابعة بالداخل لأكثر من عشرة أيام، ابنتنا الوحيدة، فلذة أكبادنا أوشكت على الموت بسبب عنجهيتك وتجبرك وتكبرك و....

قاطعها منفعلًا بعد أن أشعل سيجارًا موضوعًا فوق المطفأة:

- تكبري؟! أنت قلتها بنفسك، ابنتنا الوحيدة، هل تريدين أن تتزوج هذا الشاب الفقير ويستحوذ على كل ما صنعته بعدما نموت؟

- هذا الكلام ليس صحيحًا، وحتى لو افترضنا ذلك، أليس من الأفضل أن يرثنا رجل يحب ابنتنا وتحبه؟

- يحبها؟ كيف عرفت ذلك؟ هذا الشاب أنا متأكد أنه طامع فيها، ومتأكد أن ابن عمها يحبها أكثر... اذهبي ولا تتحدثي في هذا الأمر مرة أخرى.

لم يكن الأب مُخطئًا نوعًا ما.. فقد كان حال شكري لا يقل سوءًا عن حال حسناء، ليس لأنه يحبها، وإنما بسبب شعوره أن كل ما خطط له على وشك أن يُهدم.. كان دائم التفكير في حال تزوجها ماذا سيحدث؟! بالتأكيد ستنقلب حياته مائة وثمانين درجة، سيودّع الفقر إلى الأبد. ويمتلك سيارة فارهة وأموالًا كثيرة. شعر أن بينه وبين تحقيق كل أحلامه خطوة واحدة. بوابة تدعى حسناء. التي انقطعت أخبارها عنه فجأة، ساوره الشك في أن تكون قد قرّرت نسيانه، رغم أنه كان شبه متأكد من أنها لن تفعل ذلك قط.

حاول – دون جدوى – أن يصل إليها بشتى الطرق، اتصل بها عدة مرات لكن في كل مرة تجيب الخادمة على الهاتف، فيغلق الخط. إلى أن تفاجأت ذات مرة أنه تسلل لحديقة الفيللا وتسلق على النخلة القريبة من شرفتها حتى وصل إلى نافذتها، دبّت فيها الحياة مرة أخرى ولم يكد يدخل عبر باب الشرفة حتى احتضنا بعضهما البعض، في الوقت الذي شعر فيه والدها بخطبٍ ما داخل غرفتها، حاول فتح الباب لكنها كانت تغلق على نفسها من الداخل، طرق بقوة فقالت لشكري مرتبكة أن يرحل الآن وسوف تقابله غدًا. فهز رأسه ورحل مثلما جاء بعد أن طبع قبلة حيّة على خدها الأسيل. هرعت بعد ذلك إلى الباب وفتحته فدخل أبوها مُنفعِلًا وهو يبحث داخل الدولاب وتحت السرير فلم يجد أحدًا. سألها من كان هنا فأنكرت.

- لا تحاولين العبث معي، فقد سمعت صوتًا غير صوتك منذ قليل.

- إنه صوت الراديو.. صدقني لم...

صفعها بقوة على وجهها صائحًا بنبرة بها بعض رجفة: - لن أسمح لكِ بأن تكوني نقطة ضعفي في هذا العالم المليء بالمتربصين بي. فأنا متأكد أن هذا الولد إما طامع في ثروتك أو مخبر من الشرطة أو شخص ما تم دفعه من أحد أعدائي كي يساوموني بكِ. لماذا تفعلين بي هذا؟! وكأنه ينقصني مشاكلك الفارغة...! أحذرك من الاستمرار في علاقتك مع هذا الفسل. فلديَّ من المشاكل والضغوط ما يكفيني...

- كف عن هذا الكلام، فليس كل الناس أشرار مثلما تظن. فشكري يحبني ليس لشيء سوى أنه يحبني فقط. لا بسبب أموالك أو الإيقاع بك أو أي شيء من هذا الهراء.

- هل تقولين إن كلامي هراء يا كلبة؟ أخذ يضربها ويصفعها على وجهها عدة صفعات حتى سقطت على الأرض مغشيًا عليها...

في الصباح...

استيقظت فوجدت نفسها ملقاة على الأرض وجسدها مليء بالكدمات، خرجت باكية من غرفتها وأخذت بعض ملابسها في حقيبة، ثم تسلّلت إلى غرفة مكتب والدها سرًا، لم يكن هناك بل كان في الخارج، فكان سهلًا عليها فتح خزانته وأخذ بعض الأموال والأوراق التي كان يخبئها في صندوقٍ صغير، وضعت كل ما طالته يديها في حقيبة قماشية، ثم دخلت غرفة النوم لتقبّل رأس والدتها النائمة قبل أن تهرب بالكيس القماشي لا تلوي على شيء...!

في نفس الوقت...

بمكتبه الفسيح داخل القصر المنتصب بشموخ أمام البحر مباشرةً بمنطقة محطة الرمل، والذي يقابل فيه رجال الأعمال أو الذين يعقد معهم صفقاته... وردته مكالمة من أحد أعينه في وزارة الداخلية. تخبره أن بعض أفراد الشرطة الذين طالما تواطئوا معه وساعدوه في تسهيل صفقاته، قد قرروا الغدر به والقبض عليه وعلى رجاله لصالح غريمه اللدود ومنافسه تاجر الآثار والسلاح «صالح السنوهي»... عاد بسرعة إلى البيت بعدما هربت حسناء بنصف ساعة، اكتشف هروبها في نفس الوقت الذي جاءت فيه قوة من الشرطة لتقبض عليه بتهمة تجارة الآثار والمخدرات والسلاح، وعدة تهم أخرى ملفقة له. لم يستطع تقبل فكرة أنه سيسجن أو ستصادر أمواله وممتلكاته، لأن هذا هو الموت بعينه، أخرج مسدسه الكاتم للصوت من جرابه، دخل غرفة النوم فوجد زوجته ما زالت تغط في نومها، فأطلق عليها الرصاص، ثم دلف حجرة ابنته فلم يجدها، تذكر حينها أنها قد هربت، في نفس الوقت الذي ظلت فيه قوة الشرطة تطرق الباب بعنفٍ حتى كسرته وداهمت المنزل لتلقي القبض عليه، وجدوه داخل غرفة ابنته ممسكًا بمسدسه موجهًا فوهته داخل فمه، أطلق الزناد فانفجرت رأسه ولقي مصرعه في الحال...!

وكما توقع، صادرت الحكومة جميع ممتلكاته، والتي عبارة عن فيلا وأربعة عقارات بمنطقة محرم بك، عمارتان بالإبراهيمية على البحر مباشرة، قصر مهيب بمحطة الرمل والذي فيه مكتبه الفسيح، ومليوني دولار في البنك...!

تزوجت حسناء من شكري بعد أسبوعين من علمها بما حدث لوالديها، لم تحزن كثيرًا على والدها، أو على الأملاك التي تم الحجز عليها، بل كان حزنها على أمها. رغم ذلك حاولت التأقلم مع وضعها الجديد، وزوجها الذي اختارته رافضة كل شيء سواه، واعتبرت أن هذا الزواج إشارة من الله لنجاتها من القتل على يد والدها، وتحمّلت العيش في شقة بائسة بمنطقة شعبية مثل أبو قير.

بينما شعر شكري حينها بنغصة في حلقه وضيق في صدره، لقد تهدّمت كل أحلامه التي كانت تراوده في أن تقلب حياته رأسًا على عقب. لم يكن يعلم أنه سوف يخرج من كل هذا المولد صفر اليدين. اللهم إلا المبلغ الذي سرقته حسناء من خزينة والدها وبعض الذهب الذي لا يتعدى ثمنه ثلاثة آلاف جنيه سيعيشون بها فترة قليلة...!

مرت ستة أشهر ينفقون من هذا المال الذي سرقته، حتى انتهى وبدأت في بيع الذهب، قطعة وراء الأخرى... بدأت تلاحظ تغيّره معها، حاولت كثيرًا أن تحثه على العمل لأن المبلغ الذي معها لن يكفيهم أكثر من ذلك، فيدخل كلامها في إحدى أذنيه ويخرجه من الأذن الأخرى. يذهب للتسكّع هنا وهناك ويعود لها آخر اليوم مطأطيء رأسه ليخبرها أنه لم يجد عملًا. حاولت كثيرًا أن تبحث له عن عملٍ فكان ينهرها ويمنعها من ذلك. إلى درجة أنه ضربها عدة مرات.. لجأت إلى خالتها التي طالما كانت تأتي إليهم وتقترض من أمها نقودًا وملابس فائضة وخيراتٍ أخرى، طلبت منها أن تساعها بالمال فلم تجد منها إلا جحودًا ونكرانًا وتنصُّلًا، ولم يزد زوجها إلا قبحًا وسوءًا. فضاقت الدنيا في عينيها، كرهته وندمت على أنها أحبته يومًا ما، ووافقت على الزواج منه، ومنذ ذلك الحين توالت على رأسها الويلات ولحقت بها الخيبات. أدركت كم كانت حمقاء حين تركت كل الدنيا لأجله.

وأدركت أن والدها كان مُحِقًا...!

إلى أن جاء يومًا ما تتفقّد الحقيبة القماشية لتكتشف أن كل المال الذي أخذته قد نفد، ولم تعد تحتوي سوى على الأوراق الأخرى، من بين هذه الأوراق ظرفًا كبيرًا بنيّ اللون قد لفت انتباهها، مكتوبًا عليه «سري للغاية». استغربت لأن هذا الظرف لم يلفت انتباهها من قبل. فتحته بفضولٍ فوجدت بداخله خطابًا مطويًّا وخريطة، فتحت الخطاب وقرأت ما فيه...

أخي العزيز، حشمت

حصولك على هذا الخطاب وقراءتك إياه دلالة على أنني غادرت الدنيا...! أريد إخبارك أنه من دواعي سروري العمل معك طوال هذه السنوات، ولولا هذا التعاون ولولاك ما كنت أنا هو أنا الذي عليه الآن. أما بعد فمرفق مع هذا الكتاب خريطة لأرض العقار رقم ١١٠٨ بشارع الكورنيش، محطة الرمل. هل تتذكر هذا القصر؟ هل تتذكر الحروب التي خضناها كي نضع أيدينا عليه؟... لن أنسى موقفك معي حينها... المهم. فهذه الخريطة توضح مكان الصندوق الذي يحتوي على أفضل قطع الآثار التي استخرجناها من كل عملية. من بينها سيف الإسكندر الأكبر. بالإضافة إلى خمسين سبيكة ذهب كنت قد جلبتها من صفقة العساكر الإنجليز عقب الثورة. ومعها قطعتا ماس نادرتان،

وبعض الأموال. أرجو منك أن تنتهز الوقت المناسب لاستخراجها والتصرف فيها لتأمين مستقبل زوجتي في الأيام المتبقية لها. وابنتي حسناء مع ابنك عاطف، لأنه – كما تعرف – الأيام غادرة ولا أحد يستطيع إعطاء الأمان لها...

أخوك العزيز والمخلص

جحظت عيناها من هول المفاجأة، لم تستطع حينها وقف انهمار دموعها على أبيها وما كان ينتوي فعله لها لتأمين مستقبلها دون أن تدري، ومقابل ذلك تركته وهربت بعد أن عصيت أوامره، رغم علمها بكونه تاجرًا في الآثار والسلاح وبعض الأشياء الأخرى غير المشروعة، لكن هذا لم يقلل من حبها له الذي اشتعل فجأة في قلبها... ولكن متى؟!

بعد فوات الأوان...!

- وما العمل الآن؟ وكيف سأحصل على هذا الصندوق؟ والعقار الآن تحت تصرف الدولة! خاطبت نفسها

كانت الحكومة آنذاك تحوّل أيّ مبنى يتم مصادرته أو الحجز عليه إلى مُنشأة تابعة لها. وهذا العقار أصبح المقر الجديد لديوان محافظة الإسكندرية. علمت ذلك حينما ذهبت مع زوجها إلى هناك دون أن تخبره بحقيقة الأمر. وقفت حينها أمام القصر، في الناحية الأخرى على الكورنيش. كادت أن تفقد الوعي حين رأت اللافتة المُعلّقة عليه. جزت على أسنانها بينما قال لها شكري الممسك بكيس ترمس:

- كلما أفكر في أنه كان لديكِ كل تلك الأموال والعقارات وذهبت هكذا إلى الدولة أجن... كيف كنتِ تملكين كل ذلك ونعيش هكذا كالمتسولين؟!

- ليتني أستطيع الحصول على كل هذا... ولكن كيف؟

- كيف؟!! ارفعي قضية على الحكومة بما أنك الوارثة الوحيدة لهذا الكلب الذي فجر رأسه بكل حماقة.

- أقاضي الحكومة؟!! كيف؟ وماذا سأخبرهم؟ أأقول لهم أنني الوريثة الوحيدة لأموال وعقارات أبي الذي حصل عليها من تجارة الآثار والسلاح التي صادرتموها؟! ثم إنك كيف تشتم أبي هكذا؟ أخبرتك مئة مرة ألا تتحدث عنه بهذه الطريقة. حاول أن تكون مُهذبًا...!

مرَّ عام

واثنان...

وثلاثة على هذه الحال...! يعيشان على الملاليم التي يحصل عليها زوجها من الأعمال البسيطة التي يقوم بها، أو من تدريسها لبعض الأطفال بالمنطقة، أو من زيارة ابن عمها عاطف الذي كان يحبها، فكان يرسل لها أحيانًا مبلغًا من المال كل شهر، كانت تخفي ذلك المال على شكري كي لا يتربص لها كل شهر ويأخذه منها. أخبرت عاطف بموضوع الخطاب والصندوق، لم يصدق هذا الموضوع في البداية لكنها استطاعت إقناعه بصحته، فأخبرها – بغير اهتمام - أنه سيسافر أمريكا ويعود بعد ستة أشهر ليفكرا سويًا في هذا الأمر.

رضيتْ وارتضتْ بهذا الحال. لكنها لم تتوقف عن التفكير في الحصول على هذا الصندوق. فكرت كثيرًا في أن تخبر زوجها عنه لكنها سرعان ما تنفض عن عقلها هذه الفكرة، فهي لا تعرف ماذا سيفعل حينها. ربما ينشر الخبر بين أصدقائه في الخمّارات والحانات فيصل الأمر في نهاية المطاف إلى الحكومة. أو ربما يطلب مساعدة أشخاص لا يؤتمنون على مثل هذا السر. وربما يحاول الحصول عليه بحماقة فيفشل. وحتى لو نجح في الحصول عليه، من يدريها أنه لن يغدر بها ويأخذ هذا الكنز لنفسه ويهجرها!

ترددت كثيرًا حتى قررت في النهاية ألا تخبره. على الأقل في الوقت الحاضر...

إلى أن تفاجآ ذات يوم بأعراض الحمل قد بدأت تظهر عليها، فرح كثيرًا بذلك رغم أن هذه الفرحة شابها حزن حين تذكر مصاريف المتابعة والحمل والولادة... والتربية.

بعد تسعة أشهر

بينما كانت واقفة أمام الموقد تقلي باذنجان، أتتها على غير غفلة آلام الوضع، فصرخت صرخة مدويّة تجمّع على إثرها الجيران من حولها، فوجدوها مسجاة على الأرض وتتضور ألمًا، أرسل أحدهم ابنه إلى شكري الجالس ليل نهار في القهوة كجيفةٍ أوشكت على التحلُّل، كي يخبروه أنهم سينقلوها إلى المستشفى. حين علم بذلك انتفض من مكانه قاصدًا البيت فلم يجد أحدًا، وعلم أنهم قد أخذوها بالفعل إلى مستشفى سموحة العام للنساء والتوليد، فهرع إلى هناك ليجدها فوق سريرٍ متنقل ويدخلونها غرفة العمليات. سأل عن تكاليف الولادة فأخبروه إنها مائتا جنيه تقريبًا، دسَّ يده في جيبه فلم يجد سوى خمسة عشر جنيهًا...!

جلس على الأرض أمام غرفة العمليات. مهمومًا مبتئسًا يفكر في تلك الورطة التي كان يجب عليه أن يستعد لها، سأل جيرانه عن أي مبلغ يقترضه منهم، فلم يستطع حينها تجميع أكثر من سبعين جنيهًا. في الوقت الذي

خرجت فيه الممرضة تضحك مستبشرة بطفلٍ جميل، رغم كل شيء انتشى قلبه حين رآه، أخذه منها وقبّله، فاستأذنته الممرضة أن تأخذه لتودعه غرفة العناية بالأطفال الرضع. ودخلت مرة أخرى لتخرج بعد خمس دقائق بطفلٍ آخر..

- مبروك...!

- ومن هذا الآخر؟ كان جالسًا القرفصاء أمام غرفة العمليات فنهض واقفًا وهو يسألها باندهاش، أجابته وهي تعطيه له فحمله وأخذ ينظر إليه متحيرًا.

- ابنك.. فزوجتك حامل بتوأم، استأذنك سأضعه في الغرفة بجوار أخيه

تسمّر شكري في مكانه لا يستطيع التحدث بكلمة، وبدأ يحسب تكاليف العملية ومن المؤكد أنها ستتضاعف... لم تكد تمر عشرة دقائق أخرى حتى خرجت الممرضة مرة أخرى برضيعٍ ثالث..

- ماشاء الله، زوجتك حملت ثلاثة توائم، كان الله بعونكما

فغر فاه لا يدري ماذا يقول وجلس مرة أخرى غير مُصدّق ما يراه... دخلت الممرضة مرة أخرى لتخرج بعد عشرة دقائق، فنهض شكري مرة أخرى: - هل وجدت طفلًا رابعًا؟!!!

- هاها ها لا... زوجتك هي التي ستخرج الآن...

نقلوا حسناء إلى غرفتها، كان وجهها مصفرًا مُمتقعًا، جلس بجوارها وأخذ يربت على كتفها ويمسح عرق جبينها فدخلت عليهما الطبيبة وطلبت منه أن يحضر للتواءم لبنًا صناعيًا على وجه السرعة لأن الأم لن تستطيع إرضاعهما، فهز لها رأسه موافقًا. دخلت وراءها موظفة من الحسابات لتعطيه ورقة بإجمالي المبلغ، انحبست أنفاسه حين قرأ بعينيه تفاصيل التكاليف ووصل أخيرًا إلى إجمالي المبلغ المطلوب الذي كان ربعمائة جنيه...

حائرًا، مرتبكًا... سأل نفسه ماذا سيفعل، ذهب إلى البيت ليبحث عن أي شيء يبيعه فلم يجد سوى قرطٍ وخاتم الزواج، لكنه إن باعهما لن يتحصل إلا على مئة جنيه على أكثر تقدير، ورغم ذلك وضعهما في جيبه، فمائة جنيه ليست بالشيء القليل مهما كان...! وقعت عيناه أثناء بحثه على الظرف البنيّ، فتحه فوجد الخطاب الذي قرأه، توقّدت عيناه اندهاشًا وفتح الظرف مرة أخرى يهزه يمينًا ويسارًا ويدس كفّه بداخله بحثًا عن الخريطة المذكورة في الخطاب... لكنه لم يجدها.

اختلج الأمر في صدره وسأل نفسه شاردًا: - أمعقول؟!! كل هذه السنين وهذه العاهرة تخبئ عني كنزًا مثل هذا؟!

أجّل التفكير في هذا الأمر ودسّ الخطاب كما كان، وذهب ليرى ماذا سيفعل تجاه هذا المبلغ المطلوب منه في المستشفى.

في الليل...

بينما كانت تستعد للرحيل، دخل عليها قاطبًا جبينه عابس الوجه برفقة إحدى الممرضات، ممسكة بطفلٍ ميت، قال لها منتحبًا:

- البقاء لله، أحد ابنينا توفاه الله.

تسمّرت مكانها حين أمسكت جثة الطفل وأغرورقت عينيها.. قالت لها الممرضة:

- كان الوحيد من بين الثلاثة الذي لاحظنا تدهور صحته، بالإضافة إلى أنه الوحيد الذي لم يبكِ حين أخرجناه من رحمك، شككنا حينها أنه سيعيش، وتأكد شكنا بالفعل. حاولنا إنقاذه لكن مشيئة الله نافذة... أدعو الله أن يعوضك في أخويه ويبارك لكما فيهما.

ظلت حسناء تنتحب مفجوعة على قطعة اللحم التي احتضنتها في أحشائها طيلة تسعة أشهر، فجلس شكري بجوارها واجمًا، أخذها في حضنه وراح يمسح على وجهها ويربت على كتفها حتى هدأ من روعها قليلًا قبل أن يقول لها بصوتٍ منخفض:

- استطعت بالكاد تدبر المبلغ المطلوب للمستشفى، وأصبحت مديونًا ولا أعلم كيف سنستطيع العيش بعد ذلك.

- لا تخف يا شكري، سنتدبر حالنا وسنستطيع تربيتهم، سأعمل وستعمل وسنكبرهم ونجعلهم أنجح الناس.

اعتدل في جلسته ليصبح مواجهًا لها: - كيف؟!! هل سنبحث عن مصباح علاء الدين؟! أم... سنستخرج الكنز الذي خبأتيه عني طوال تلك الفترة؟!

تجمد الدم في عروقها وتوقفت فجأة عن البكاء، استنتجت أنه رأى الخطاب.. سألته قاطبة جبينها:

- كيف عرفت ذلك؟

- لا تسأليني كيف عرفت، تلك ليست المشكلة، لقد قرأت في الخطاب أنه مرفق معه خريطة بمكان الصندوق.. أخبريني أين تلك الخريطة..

- ليست معي، حتى وإن كانت معي، فكيف سنحفر لنحصل على الصندوق، والمبنى الآن أصبح ملكًا للدولة؟

- تلك ليست مشكلتك... سأتصرف.

- حماقتك هذه هي التي ستكون السبب في لقاء حتفنا جميعًا. وعلى كل حال لم أستطع الحصول إلا على ذلك الخطاب. أما الخريطة فلم تكن معه، وحتى إن كانت معنا فماذا ستفعل؟ هل ستحفر أسفل ديوان المحافظة؟!! ثم أن هل هذا وقت مناسب لهذا الكلام وأمامنا ابننا الميت؟! ألم تعتبر؟!

- رحمة الله عليه، سأذهب لدفنه وأعود إليكِ لأجدك قد انتهيتِ من تجميع أغراضك لنعود إلى بيتنا مع ابنينا... فليس معي أربعون جنيهًا لقضاء ليلة أخرى هنا...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠١٧

رغم كل المحاولات الحثيثة لتجميل ميدان المطرية، وإلغاء الترماي وإعادة ترميم وتجميل بعض المنشآت. إلا أنه لم يزل حتى الآن ممتلئًا بالباعة الجائلين ليل نهار، حتى لو داهمتهم شرطة البلدية كل يوم، سيعاودون فرش بضاعتهم فيه بعدما يذهبون...!

ضوضاء... زحام.. أبواق سيارات.. عوادم

قمامة منتشرة في عدة أركان، بعدما ملأت مساحة فارغة كانت يومًا ما حديقة غنَّاء ينتصفها تمثال فرعوني مُصغّر لتوت عنخ آمون مصنوع من الجبس ومسلّة تحاكي المسلة الحقيقية التي تم اكتشافها هناك. لم يكد يمر يومان حتى تمت سرقتهما على يد أحد بائعي الفاكهة بالميدان، ظنًا منه أنهما آثار حقيقية...!

بُنيت بهذه المنطقة في عهد السادات مئات العمارات التي كانت تباع الشقة فيها بثمنٍ بخس للموظفين ولمحدودي الدخل ولمن لا مأوى لهم. بداخل إحدى هذه الشقق الكائنة في هذه العمارات التي صارت قديمة، ثمة شقة تلوح في أرجائها كل أمارات الفوضى الخلاقة، رغم وجود أماني النائمة باستسلام في غرفة النوم، غير مكترثة بتلك الفوضى. أكياس شيبسي فارغة مُلقاة على الأرض، بجوارها زجاجة مياه غازية ليست محكمة الغلق وتتسرب منها المياه الغازية على سجادة عطنة الرائحة. فوقها أريكة مكسور أحد أرجلها وعليها مصحف مفتوح.

صالة ضيقة، مُعلّق على أحد جدرانِها إطار مكسور زجاجه وراءه آية الكرسي مكتوبة بالخط الكوفي. غرفتان؛ إحداهما بها سرير أطفال ولعب كثيرة لكنها جديدة لم تستخدم بعد، لعدم وجود أطفال تستخدمها وتكسر اللعبة الواحدة إلى مائة قطعة لتنثرها في كل مكان.

رغم مرور أكثر من ثلاثة أعوام على زواج هذه المرأة النائمة في غرفة النوم من حسام محمد الأزهري، الذي يبلغ من العمر ثلاثين عامًا، الجالس على حافة السرير، واضعًا أمامه منضدة صغيرة فوقها لاب توب، يتصفح موقع الفيس بوك فوقعت عيناه على منشورٍ لفتاة يعرفها جيدًا، تقول فيه أن أمها بالعناية المركزة وتحتاج إلى ثلاثين ألفٍ جنيه تكاليف المستشفى، أفتر ثغره عن ابتسامة وهو يهز رأسه قائلًا: يا بنت الحرام...!

دخل بعدها على الصفحة الخاصة بسراج عبد الملك. أحد الكتاب الشباب ذائعي الصيت، والذي يتابعه أكثر من مائتين وثلاثة وأربعين ألف متابع. رغم أن حسام يرسل له بين الحين والآخر رسائل تحية وسلامات مُتمسِّحًا فيه، إلا

أنه يكنّ له كراهية كبيرة، وحقدًا دفينًا، ويتمنى أن يستيقظ ذات صباح فيجده اختفى من حياته بل من الوجود بأكمله. كل ما يظهره تجاهه ليس إلا نفاقًا، طمعًا في بعض من شهرته، فهو يعرف جيدًا أن تواجده المستمر داخل صفحة لشخصية مشهورة بحجم سراج عبد الملك سوف يجعله معروفًا نوعًا ما، بل ويجلب له بعض من متابعيه الذين لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف متابع...!

نهض يتمشى قليلًا في الشقة كي يلين خشونة ركبتيه وتيبس ظهره، فوقف عند باب غرفة النوم يتأمّل زوجته خصيبة الجسد، والنائمة على جنبها الأيسر، عارية تمامًا وقد وضعت بين فخذيها وسادة. ظلّ ينظر إليها لنصف دقيقة بعينين باردتين خاليتين تمامًا من أي تعبير قبل أن يعود إلى غرفة الأطفال مرة أخرى ويقف أمام النافذة رافعًا يديه على امتدادهما، يتأمل الشارع وهو يفكر في طريقة تجعله مثل سراج، فكلما يمسك هاتفه يجد نفسه لا إراديًا يلج صفحته ويتابع عن كثب كل كلمة يكتبها، يقرأ كل تعليقاته، يشاهد جميع صوره متأملًا نظراته وهندمته وطريقته في اختيار الملابس، فيقلّده ويفعل مثلما يفعل بالضبط. ولكن شتان الفارق بين هذا وذاك...! بين كاتبٍ مغمور وآخر ذائع الصّيت! هو نفسه متصالحًا بشكلٍ كبيرٍ مع فكرة أنه من العسير جدًا أن يفعل مثله، وإن نجح بالكاد في ذلك لن يستطيع تحقيق عُشر شهرته. وكثيرًا ما يقسو على نفسه من حقده هذا الذي يخفيه داخل قلبه ليظهر بدلًا منه تصنُّع ونفاق حينما يحضر أي حفل توقيع له مُحاوِلًا التقرُّب منه والتحدث إليه، متظاهرًا بأنه يحبه ويريد أن يكون صديقه. ليس لشيء إلا ليكون ربع أو نصف ما هو عليه. مُتبعًا مبدأ قد صنعه لنفسه واقتنع به، ألا وهو: «إن لم تستطع التغلب عليه كعدو، فحاول على الأقل أن تصادقه وتتقرب منه لتستفد...!».

لحظة من فضلك... كيف أصبح كاتبًا أصلًا؟!

لا شيء...! أدرك مؤخرًا أن أسهل لقب يمكن شراؤه في هذا البلد هو لقب «كاتب»... كانت معه ثلاثة آلاف جنيه قد حصل عليها من جمعية صغيرة كوّنها مع زملائه في وزارة الأوقاف حيث يعمل موظفًا. تردد ماذا يشتري بها؟ هاتفًا جديدًا أم لقب كاتب أم جهاز تكييف مستعمل؟! فقرر أن يختار الاختيار الثاني...! ذهب بها إلى إحدى دور النشر التي تعمل تحت بئر السلم، أعطاهم المبلغ ومعه ملف يسمى «كتاب الفرصة الأخيرة»، لا يحتوي إلا على هُراءات. ومجموعة من الحكم والنصائح المأخوذة – بتصرف ساذج – من كتب معز مسعود ومصطفى حسني وعمرو خالد...! فطبعوا له مائتي نسخة، ووضعوها فوق منضدة بمكتبة بائسة في معرض الكتاب. وأمامها

لافتة طولية عليها صورته وصورة كتابه أسفل اسمه بالخط العريض (الكاتب: حسام الأزهري).

وبذلك أصبح كاتبًا، أقام حينها حفل توقيع لم يحضره سوى بعض أصدقائه وزوجته وبعض من أهلها، لم يكن يريد من كل هذا الحفل البائس سوى صورة وهم متجمعون حوله ممسكين الكتاب ويبتسمون ابتسامة حتى لو كانت سمجة. لا يهم، فالسماجة لن تظهر في الصورة حتمًا...!

وجد أن لقب كاتب سيعطيه القوة أن يتحدث إلى أي فتاة على الفيس بوك بأريحيّة – بصفته كاتب بالطبع – والكاتب في رأيه لن تحرجه فتاة قط، بل ستكون لديه المقدرة على طلب مواعدة أيًا منهن دون أن ترفض له طلب. بل سترحب بذلك وستقفز من مكانها مُرددة «الكاتب حسام الأزهري طلب مقابلتي!».

حاول حسام من قبل أن يدخل عدة مجالات بحثًا عن الشهرة، بدءًا من مجال تحفيظ القرآن الكريم، حيث أنه خريج جامعة الأزهر. لكنه لم يجد نفسه في هذا المجال، أو بالأحرى لم يستطع تحقيق أي شهرة أو نجاح فيه. فحاول أن يتسكع بين أروقة وزارة الأوقاف وجامعة الأزهر، فاستطاع أن يعمل فيها بوظيفة صغيرة. لكنها لم تحقق له ما أراد. فوجد بعد ذلك أن ثمة مجال فيه أشخاص كُثُر قد حققوا شهرة بالغة، ألا وهو الوسط الأدبي، بدأ في التردد على مقاهي وسط البلد والزمالك وساقية الصاوي، استطاع الإلمام بما يجري في هذا الوسط، جرب كتابة رواية يدخل بها المجال لكنها كانت رديئة لدرجة أنه لم يجد من ينشرها له أو يوافق عليها، فحاول أن يكتب ما درسه ويفمه. وبالفعل عزم على كتابة كتاب يحتوي على نصح ومواعظ، تعرف خلال تلك المدة على ناشرٍ رسم له من البحر طحين، وأوهمه أنه سينشر كتابه ويحقق له الشهرة التي يريدها بل وأكثر. بالإضافة إلى سلسلة حفلات توقيع والظهور في عدة برامج بالتليفزيون المصري. وسينهال عليه القراء من كل فجٍ عميق. كل ذلك مقابل ثلاثة آلاف جنيه. وكانت النتيجة أنه باع من هذا الكِتاب – إن صحَّ تسميته كتاب – سبعة عشر نسخة فقط لا غير...!

جلس مرة أخرى على طرف سريره وأخذ يفكر ماذا سيفعل تجاه هذا العدو الذي ينغص عليه حياته، أمسك بعدها الهاتف ومدد جسده على السرير ليتصل بحبيبته، إيمان عزمي. التي أحبها بصدق وسط كل الفتيات والنساء اللائي عرفهن وأقام علاقة معهن في الفترة الأخيرة، رآها مُمسِكة بكتابه في إحدى المكتبات المغمورة بوسط البلد، وقف بجوارها ليخبرها منتشيًا أنه صاحب هذا الكتاب، ظنًا منه أن فكّيها سيتدلى حتى صدرها من هول المفاجأة، وستهب لتشتريه وتطلب منه توقيعه لها في الحال وتتصوّر معه.

لكن ما حدث هو أنها لم تأبه له ولم ترد عليه، بل وضعت كتابه مرة أخرى على الرف، ونظرت له نظرة لا مبالية وتركته مندهشة وانصرفت.

شعر نحوها بانجذاب قويّ، التقط من الرف نسخة كتابه التي كانت في يدها قربها من أنفه استجداء لعطر يدها، طاردها إلى أن وقفت أمام أحد الأرفف ملتقطة رواية ما وأخذت تتصفحها، مد يده إليها بنسخته:

- هل تقبلين كتابي هذا كهدية موقعة مني؟

قالها وهو يزدرد لعابه الذي علق فجأة في حنجرته، حين رأى الرواية التي في يدها، إنها رواية سراج عبد الملك. ارتعشت يده قبل أن تقول له:

- ماذا تتوقع مني أن أفعل؟ أن أرقص فرحًا بإعطائك لي نسخة من كتابك البائس هذا؟! والله لو وجدته مُلقى على الرصيف سأستخسر فيه عناء الانحناء لالتقاطه. من تحسب نفسك؟! أتظن نفسك سراج عبد الملك مثلًا؟!

صاح فيها متشنجًا: - لهذا السبب حال الأدب في مصر لا يسر عدو أو حبيب، المراهقات مثلك هم من جعلوا لسراج هذا قيمة، ولولا تهافتكم على الكتابات السيئة غير الهادفة مثل هذه لما أصبح هذا الخنزير له قيمة الآن. ولكن ماذا أقول؟! حسبي الله ونعم الوكيل في كل من ساعد وساهم في إفساد ذوق القراء، لقد امتلأ القاع بـ...

لاحظت إيمان عينيه وقد اغرورقتا وشعرت بأنها قد أحرجته، أشفقت عليه مُقاطِعة:

- اعتذر لك، لم أكن أقصد إهانتك أو مضايقتك...

أطرق رأسه محاولا إخفاء دموعه التي انهمرت، ليس بسبب إحراجها له، بل بسبب رؤيته لها وهي ممسكة برواية أكثر شخص يكرهه في الوجود، لكن هذا لم يمنع بعض من الفرحة من أن تتسلّل لقلبه لسببين؛ الأول هو ذكرها له في جملة واحدة مع سراج. والثاني هو طريقة كلامها معه الآن. وضعت أناملها على ذقنه ورفعت رأسه فابتسم.

- هل من الممكن أن تقبلين مني نسخة من كتابي إذن؟!

- نعم.. أقبل، ولي الشرف لذلك

- وهل تقبلين أن نحتسي معًا فنجان قهوة؟!

قبلت دعوته على القهوة، تحدثا في ذلك اليوم كثيرًا، تحدثا في كل شيء دون أن يخبرها أنه متزوج، وجدت فيه أشياء جميلة كانت تتمناها في الشاب

الذي تريد الارتباط به، أعرب لها عن إعجابه بها وبشخصيتها من أول لحظة رآها فيها، وهي أيضًا لمست فيه أشياء جميلة...

استفاق من ذكرياته وجَوَلان أفكاره حين تفاجأ بأماني زوجته قد دخلت عليه الغرفة، مُمسِكة بقميص نومٍ قصير وهي تسأله بمن يتصل، فأجابها كاذبًا إنه يتصل بإحدى المكتبات ليطمئن على مبيعات كتابه...!

ارتدت القميص أمامه واقتربت منه، كان ممدًا جسده على طرف السرير فدفعته برفق حتى أدخلته ناحية الحائط دون أي مقاومة منه أو اندهاش، ثم مددت جسدها بجواره وأمسكت ذراعه ووضعتها تحت رقبتها لتوسِّدها به ثم أولته ظهرها...!

- ألم ترد أن تخبرني بشيء من الأشياء الكثيرة التي كنت تخبرني بها في أول زواجنا؟! سألته بنبرة مبحوحة وهي تتثاءب.

هو يفهمها جيدًا ويدرك إلى ماذا ترمي، لكنه لم يرد عليها متظاهرًا بعدم السمع، أو بالأحرى بعدم الفهم، ففهمت ذلك على الفور...!

معظم علاقات الحب يشوبها الشوق واللهفة قبل الزواج، لكن الزواج كمشروع أو كخطوة، لديه قدرة خارقة في وأد معظم المشاعر واللهفة والاحتياج بكل أنواعها. هذا بالضبط ما حدث لحسام، بعدما تزوج أماني ومر على زواجهما حوالي أربع سنوات. بالرغم من أنهما تربيا معًا، لكنه بدأ ينظر لها كامرأة يشتهيها بعد الخطوبة. وكانت أول سنة في زواجهما تشبه فترة الخطوبة في انسجامهما، يعود من العمل مُبكرًا ليستمتع بالجلوس معها أكبر وقت ممكن، يمارس بعض الرياضة قبل أن يدخل الحمام ليأخذ دش ثم يأكل معها الطعام الذي تدأب على عمله طوال النهار بحبٍ وإتقان، وتقدمه له على أطباقها التي تحتفظ بها في النيش. فينتهيا من تناول الغداء ثم يمارسا الحب مرة بعد مرة بعد مرة. وبعدما ينتهيا يتجاذبان أطراف الحديث طوال الليل قبل أن يغالبهما النعاس فتختبئ داخل حضنه دافئة رأسها في صدره العامر بأنفاسها اللاهبة... ظل هكذا طيلة عامٍ كامل لم يسأم جسدها قط، ولم تملأ عينيه سواها.

حتى انتهى العام الأول، فبدأ الملل يسلك طريقه إليهما. فلم يعد يذهب إلى البيت مُبكرًا، ولم تعد تطبخ الطعام بحبٍ وإتقان. لم يعد يهتم بمظهره ولا يمارس الرياضة، ولم تعد تغرف له الطعام في أطباق النيش المقدسة، بل في طبقٍ عاديّ تضعه أمامه وحسب.... لم يعد يشتهي جسدها، ولم تعد تتلهف لهذا الاشتهاء. دبَّ الجمود في كل أرجاء البيت، وساعد على ذلك عدم وجود أطفال. ليس لسببٍ مُعيّن، هم حتى لم يكلّفا نفسيهما عناء البحث عن سبب. من قلة ممارستهما الحب مع بعضهما البعض؟! ربما. وربما أيضًا

يكون العيب من أحدهما. أو تكون أماني تستخدم وسيلة منع حمل... ومن الممكن أيضًا أن يكون الأمر به شيء آخر لا نعرفه نحن...! المهم أنه لا يوجد أطفال.

- ألم ترد أن تحملني وتلقي بي على السرير وتغتصبني مثل أول زواجنا يا سبع الرجال؟! كررت السؤال بصيغة أخرى بنبرة لا تخلو من بعض تهكم.

- لا... رد عليها باقتضاب وبكل برود، مختصرًا إلحاحًا قد يضطره إلى أن يفعل معها ذلك.

في أول زواجهما كان مجرد أن يلمح في زوايا عينيها أنها تحتاجه يخلع ثيابه على الفور مُلبّيًا احتياجها دون أي كلمة، حتى لو كان يشعر بالتعب والإجهاد أو حتى بالفعل لا يريد. كان يرى أنه لا يجب عليه مُطلقًا أن يرفض لها طلبًا مثل هذا. علاوة على أنه فعلًا يشتهي جسدها ويستمتع معها جدًا. وكان نفس الشيء بالنسبة إليها، لو شعرت فقط أنه يريدها كانت تخلع ملابسها على الفور وتقترب منه في غنجٍ متقن حتى لو كانت تشعر بأي تعب أو إجهاد. لم تخبره أبدًا ذات يوم أنها متعبة أو لا تريد. كانت تخجل من قول ذلك مثلما كان يخجل هو الآخر.

إلى أن تسامرا في جلسة يسودها الصفاء ذات ليلةٍ ليلاء، وتحدثا في هذا الشأن بصراحة وشفافية. واكتشفا أن معظم المرات التي التقيا بها كانت مُجامَلة من أحدهما للآخر وليس عن رغبة حقيقية...! بدأ من هنا الجمود. وبدأ منذ هذه اللحظة عهد الـ «لا أستطيع» والـ «لا أريد» بكل بجاحة دون أي خجل. فموضوع الرفض أو التحجُّج صار ليس مُخجِلًا أولًا وأخيرًا...

ليس هذا وحسب، فالعلاقة بدأت تأخذ منحنى آخر، أخطر منحنى يمكن أن يصل إليه زوجان. منحنى أكثر رعبًا، ألا وهو البرود، الصقيع.. فالتجمد. أصبحا يلتقيان فوق الفراش لإفراغ شهوتهما فقط. لم يعد يُفّضّل ضوء «الأباجورة» كي لا يراها. وهي لم تسأله لماذا، لأنها صارت تفضل ذلك هي الأخرى. لم يعد يريد النظر لعينيها مُبتسمًا أثناء العلاقة مثلما كان يفعل قديمًا. حتى حين تألف عينيه ظلمة الغرفة ويشعر أنه بدأ يرى ملامح وجهها، كان يدسّ رأسه بين نهديها أو بين كتفها ورأسها مُتظاهرًا بتقبيل رقبتها. وهي نفس الشيء كانت تغمض عينيها. ربما كي لا ترى ذلك الشخص الذي يعتليها وقد صار غريبًا عنها. وربما لأسبابٍ أخرى..! بعدما ينتهي ينهض بسرعة ويهرع إلى الحمام ليغتسل سريعًا ويعود ليغط في النوم موليًا ظهره لها.

س: ما الفرق بين ممارسة الحب وممارسة الجنس؟!

ج: لا فارق! إنه فقط المسافة بين السماء والأرض... وأكثر وقت تستطيع فيه التمييز بينهما، هو بعد الانتهاء منه مباشرةً وما ستفعله حينها وترغب فيه. فمعظم الناس تستطيع ممارسة الجنس، لكن هذا بعيد تمامًا عن ذاك الذي يحدث بين اثنين يحبان بعضهما البعض.

أدركا، أخيرًا، أنهما تحوّلا من مرحلة ممارسة الحب إلى مرحلة ممارسة الجنس، والقيام – فقط - بـ «الواجبات الشرعية»... هذا إن حدث!

- أصبحت تقول لي «لا» هكذا دون أي حياء يا حسام؟!

- وما الحياء في ذلك؟! فأنتِ زوجتي... لست ساقطة أتيت لشقتها لأضاجعها وأمشي بعدما ألقي على سريرها مائتين جنيه. أنت زوجتي وأمامي طوال الوقت. مُتعب اليوم أو تستطيعين القول بأنني لا أريد... لكني غدًا ربما.. ربما... ربما أريد.

- ومتي سيأتي «غدًا» هذا؟! ألم تعرف أنك لم تقربني منذ أكثر من شهرين سوى مرة واحدة وكنت حينها بمنتهى البرود كالعادة؟! نهضت مُبتعِدة عنه قائلة: - لكنني لن ألح عليك ولن أفعل ذلك.. فأنا لست رخيصة.

قالتها ودخلت غرفتها وهي تخلع قميص النوم في طريقها لتلقيه أمام الحمام...! بينما أمسك حسام هاتفه مرة أخرى وأخذ يُقلّب في الرسائل، في نفس الوقت الذي أمسكت فيه أماني هاتفها وهي تتصفح حسابه الشخصي بعد أن استطاعت اختراقه لترى كل شيء يفعله دون أن يدري...

أرجع حسام رأسه إلى الخلف قاطِبًا جبينه اندهاشًا حين تفاجأ برسالة من أحد أكبر الكتاب الروائيين في مصر؛ مروان جبر، والذي قلّما يتحدث إلى أحد أو يرد على أي رسالة، فكيف إذا أرسل هو الرسالة مُبتدرًا الحديث... فتح الرسالة وقرأ ما فيها:

«نصيحة مني، لا تحاول استفزاز سراج عبد الملك أو وضعه في حسبانك، وحاول أن تكون نفسك، لا غيرك. أنا أعرفك منذ أن حضرت منذ شهرين ونصف إحدى حفلات توقيعي التي قلما أعقدها كما تعرف وكما يعرف القراء، وأتيت حينها مع زوجتك أعتقد. أنا أتابعك أحيانًا، وأرى أن بداخلك الكثير لتحققه لكن شريطة ألا تنشغل بمشاجرات أو تلاسنات مع أي شخص، انشغل فقط بنفسك»

قفز فرحًا من السرير، وأخذ الأدرينالين يضخ في عروقه، همَّ ليكتب له ردًا بسرعة، فوجد أن يده ترتعش.. فهذا ليس أي شخص، إنه مروان جبر بجلالة قدره، حاول التحكّم في أعصابه وهو يكتب له ردًا على رسالته، يعرب له فيها عن فرحته العارمة بهذه الرسالة، وأنه على حق وسيفعل كل ما نصحه

به.. وطلب منه في آخر الرسالة أن يعطيه ميعادًا ليتشرف بمقابلته ولو لخمس دقائق... ضغط على زر إرسال منتظرًا ردًا منه مُتمنيًا أن يوافق على مقابلته، لكنه لم يرد. مرت دقيقة، اثنتان، خمس دقائق ولم يرد. ولن يرد...! لم يدع حسام الشعور بالحزن يتسلل له، مكتفيًا بأنه قد تفضل عليه وتكرم وبعث له رسالة. هذا في حد ذاته شيء عظيم. ورد إليه رسالة في نفس الوقت من إحدى السيدات. تخبره فيها أنها قرأت كتابه الأخير. وفتحت معه حوار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شقة مفروشة، بشارع شهاب في المهندسين، يستأجرها أحد الشباب الخليجيين. يعمّها الفوضى في كل الأنحاء؛ شنط بها ملابس وأحذية ماركات عالمية لم تُستخدم بعد، ملقاة على منضدة في منتصف الصالة الفسيحة. زجاجات ويسكي وشمبانيا فارغة على الأرض بجوار أطباق بها بقايا وجبة كباب وكفتة... كانت الفوضى في كل مكان ولم تكن غرفة النوم أقل فوضى من باقي الشقة، مستحضرات تجميل منثورة فوق التسريحة، أمامها سرير فوقه شاب يعتلي فتاة، يقطر العرق على ظهره، مُنهمِكًا، منفصلًا تمامًا عن كل ما حوله. دعنا منه الآن، فلن نستفيد شيئًا من رؤية مؤخرته... المهم أنه بجوار السرير توجد منضدة عليها علبة سجائر مفتوحة بجوار ستة سجائر محشوّة بالحشيش والماريجوانا وكأس به ويسكي وأربعة أقراص فياجرا وواقي ذكري ماركة ديـ...

لا يهم ماركة الواقي الذكري الآن، دعنا نعود لهذا الشاب الذي كاد أن يبلغ ذروة شهوته لكنه انتفض فجأة حين غرزت سمر شكري شعيب أظافرها بقوة تحت إبطه، فنهض من فوقها مشدوهًا ممتعضًا لتنهض هي الأخرى قائلة له بانفعال:

- لقد أخبرتك.. لقد أخبرتك وأكدت عليك مئة مرة ألا تمسك صدري بقوة هكذا، ولا تعضني من رقبتي فأنا لست زوجة معاليك التي أحضرتها لك أمك... لقد كررت عليك هذا أكثر من مرة.. أليس كذلك؟!

أجابها بلهاثٍ متتابع وأنفاسٍ متسارعة: - نعم أخبرتيني، ولكن هذا شيء خارج إرادتي.. ماذا تنتظرين مني أن أفعل وأنا تحتي ست الحسن والجمال سمر شعيب؟! غصب عني أقسم لكِ... هيا.. هيا بنا لنكمل..

قالها مُتوسِلًا، مُحاولًا جذبها من ذراعها فاستلقت مرة أخرى بعد تردد، أكملت معه حتى انتهى بعد عشر دقائق وهي تنظر إلى الحائط بتقزز، نهض الشاب والتقط بشكيرًا ليدخل الحمام، فبصقت عليه بصوتٍ خافت دون أن

يلاحظ. قبل أن تفتح هاتفها لتجد أن المنشور يعمل على أكمل وجه كما توقعت..

«أنا في المستشفى منذ يومين ولم أزل هناك... أمي ستموت مني ولا أدري ماذا أفعل لها، لقد أخبرني الطبيب أنها تحتاج لعملية معقدة تكلفتها ثلاثين ألف جنيه ليس معي منها سوى خمسة آلاف فقط، لقد سئمت الحياة ولولا أن أمي ليس لها أحد غيري لكنت انتحرت. لا أدري ماذا أفعل يا ربي، أرجوك قف بجانبي اشف أمي فليس معنا هذا المبلغ يا الله أرجوكم يا أصدقائي لو أحد منكم يرغب في المساعدة فليرسل لي أي مبلغ يستطيع المشاركة به على حسابي البنكيّ ٢٦٥٨٤...٨٨٤٦٦»

نشرت سمر هذا المنشور على الفيس بوك منذ سبع ساعات، مشيرة إلى أنها في المستشفى مع والدتها منذ الصباح، بينما هي الآن في المهندسين مع هذا الشاب الذي أتى إلى مصر خصيصًا لمقابلتها.. منذ أول دقيقة بدأ المنشور في الانتشار على نطاقٍ واسع وقد تعدى الآن عشرين ألف مشاركة. بالإضافة إلى أنها تلقت رسائل كثيرة من البنك تفيد بتحديثات حسابها البنكي بشكلٍ لحظيّ، فوجدت أن آخر رسالة تشير إلى أن حسابها أصبح فيه ثلاثة أربعون ألف جنيه...! أيضًا تلقّت رسائل كثيرة على حسابها في الفيس بوك، أشخاص كثر يسألونها عن مكان المستشفى وعن حالة والدتها وعن حالتها النفسية...

- ما لكم أنتم وحالتي النفسية أو مكان المستشفى يا أولاد العاهرة؟! هل ستصاحبونني؟! قالت مُتهكِّمة في قرارة نفسها بنبرة لا تخلو من بهجةٍ وحبور. من بين تلك الرسائل لفتت انتباهها رسالة مكتوب فيها «العزيزة سمر، هل ما زلتِ تحتاجين أي مبلغ؟ أنا على استعداد أن أدفع المبلغ كاملًا... شريف الكردي»

التمعت عيناها ونهضت لتقفز عدة قفزات فوق السرير وجلست مرة أخرى عاقدة قدميها، لترسل له ردًا يفيد بأنها لم تتلق سوى مائتي جنيه فقط لا غير، وإن كان يريد مساعدتها فليرسل المبلغ على حسابها البنكيّ.. ضغطت على زر إرسال وهي تحسب في ذهنها، لو أرسل هذا الشاب المبلغ ستكون قد حصدت من هذا المنشور حوالي سبعين ألف جنيه، بالإضافة إلى عشرين ألفًا في حسابها من قبل، فيكون الناتج تسعين ألفًا إلى خمسة وتسعين ألف جنيه. شردت بعيدًا بتفكيرها وهي تسأل نفسها متى سيصل حسابها في البنك إلى مليون جنيه؟! فهذه أول خطوة في حلمها... وما إن يصل إلى مليون جنيه ستبدأ بالتفكير في خططٍ أخرى لتضاعف هذا المبلغ. ولكن أول مليون هو الذي يأتي دومًا بصعوبة. هكذا قرأت على لسان أحد رجال

الأعمال المصنفين على قائمة أغنى أغنياء العالم. لا بأس، فقد جمعت حتى الآن حوالي عشرة بالمائة من المليون.. سأصبر.. سأصبر.

قطع تفكيرها صوت فتح الباب ليخرج الشاب من الحمام، قبلها قبلة ساخنة وهو يضطجع بجوارها ويجذبها إليه فنهضت وهي تقول في سرها «ألم تشبع يابن الكلب؟!»... استأذنته مُبتسمة أن تدخل الحمام، سمعت حينها صوت تلقّي رسالة وهي تضع بشكيرًا على جسدها، فأخذت معها الهاتف ودخلت به الحمام، فتحت الرسالة فوجدتها من شريف الكردي:

«حسنًا، مثلما أخبرتك أنني على استعداد أن أدفع المبلغ كاملًا ولكن بشرط، أسلمه لكِ يدًا بيد... ما رأيك؟!»

أرسلت له رسالة على الفور «موافقة... متى وأين؟!»... رد عليها بعد ثوانٍ «سأقابلك أمام جروبي بوسط البلد بعد ساعة من الآن، ستجدي سيارتي BMW سوداء اللون...»

التمعت عيناها مرة أخرى، وضعت الهاتف على رف المرآة ووقفت تحت الدش وفتحته لتغتسل في عجالة، ثم خرجت للشاب المُمَدَّد جسده على السرير ينتظرها، فاعتذرت له بأنها سترحل، مُتحججة بأن والدتها مريضة في المستشفى ويجب أن ترحل الآن لتدفع المبلغ المتبقي لعمليتها الأخيرة. هز الشاب رأسه مزمجرًا وأعطاها ألف جنيه، أخذت منه المبلغ وهي تنظر له ممتعضة:

- ما هذا؟! كان اتفاقنا على ألف دولار... ليس ألف جنيه!

- كان اتفاقنا أن تقضي معي هذه الليلة أيضًا، أنت التي خالفتِ الاتفاق.

- الأمر ليس كذلك، فأنا ذاهبة إلى المستشفى لأن أمي ستجري عملية... لم أخبرك أنني سأسافر بنجلاديش.. سأعود حتمًا!

- إذن فستأخذين باقي المبلغ المتفق عليه حين تعودين إليَّ مرة أخرى يا قطتي.

- قطتك؟!... قالتها باشمئزاز وقد أحمرَّت وجنتيها حنقًا قبل أن ترتدي ملابسها وترحل.

سمر شكري شعيب...؟!

فتاة في الثامنة والعشرين من عمرها، الفتاة التي يقال عنها بأريحية أنها كاملة الأنوثة. جمالها قد يجعل أكثر الرجال تماسُكًا ينهار فجأة حين يراها. ويرى عينيها الواسعتين الخضراوين بالنهار، والتي تميل إلى اللون الرمادي في الليل. وبشرتها البيضاء الملساء التي يزيّنها نمش خفيف تحت عينيها،

وغزير عند كتفيها وصدرها. أنف دقيق مرسوم وشفتان مُكتنزتان مُمتلئتان، لا تحتاجان لأحمر شفاة كي تبدو ساحرة. شعر متموّج طويل، أصفر اللون، يلتمع لونه في الشمس التماعًا ليتحول إلى اللون الذهبيّ. طولٌ متوسط بقوامٍ ليس به خطأ واحد. فخذان متقنان مرسومان بحكمةٍ وإحكام، يحملان مؤخرة مغرورة تنافس بها جنيفر لوبيز. نهدان ناهدان ناهضان، تتعمّد رفعهما بواسطة حمالة الصدر فتزيدهما كبرياء وعزة وشموخ. ويزيد من يراها شبقًا فوق شبقه، ورغبة جامحة في فعل أي شيء مقابل فقط.... التحدث إليها ولو لدقيقة.

سمر شكري شعيب...!

تستطيع بأقل مجهود أن تخطف لُبّ أيّ رجل، وتذيب أعصابه بنارها اللاهبة ذوبانًا. فتخلق ثعابين تتلوّى تحت جلده. تستطيع بمنتهى السهولة أن تختطف الأبصار من محجريها لتستقر بين نهديها العاجيّين. طالما تنافس شبابٌ ورجالٌ كُثُر على كسبِ قلبها لكن دون جدوى، فهي تعي جيدًا ثمن نظرة من عينيها الساحرتين المليئتين بالذكاء والشغف إلى أي منهم. حاول كثيرون أن ينشئوا معها علاقة حب وكانت النتيجة فشل ذريع... «لم ينجح أحد»!

تقدّر جيدًا قيمة جمالها هذا وتدركه، وتعتمد اعتمادًا كليًا على ذلك، وتستغلّه أفضل استغلال مُحددة هدفها بدقةٍ بالغة. ولذلك، معظم الفتيات على مواقع التواصل الاجتماعي يكرهنها وينقمن عليها ويحقدن! طالما تزاحم عليها مصورون محترفون ليجروا لها جلسة تصوير، ليس فقط دون مقابل، لكن منهم من عرض عليها مبالغ كبيرة كي توافق على ذلك. لتشير إلى اسمه حين تنشر إحدى هذه الصور على صفحتها الشخصية. فبمجرد أن تنشر صورة لها لم تكد تمر ساعة حتى يصل عدد الإعجابات إلى أربعة أو خمسة آلاف.

سمر شكري شعيب..

لا تعبد شيئًا بإخلاص أكثر من المال. ولأجله من الممكن أن تفعل أي شيء. فتحت لذلك حسابًا في البنك، تودع فيه كل ما تستطيع الحصول عليه. لا تنفق قرشًا من جيبها، والجنيه الذي يدخل حسابها البنكيّ يُقسِم بالطلاق ألا يخرج منه أبدًا. فكل حياتها تقضيها ما بين شاب يدعوها على الغداء أو العشاء في أفخم المطاعم. وبين آخر تقضي معه ليلة مقابل مبلغ لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه. وما بين هدايا من داخل مصر وخارجها من شباب في قائمة أصدقائها على الفيس بوك لديهم الاستعداد لدفع أي شيء مقابل أن تكتب تعليقًا فقط على أحد منشوراتهم. ومنهم من يأت إلى مصر مخصوص كي يحظى بالجلوس معها. وما قيمة عشرة آلاف جنيه أو حتى عشرين ألفًا

مقابل قضاء ليلة مع سمر شعيب؟! أجمل فتاة يمكن أن تراها العين، غير أنه من الصعب وصف جمالها وسحرها بشكلٍ كامل...! وأي لغة هذه التي تستطيع وصفها؟! وقد حاول الكثيرون فعل ذلك وفشلوا..!

وصلتْ إلى جروبي بعد ساعة بالضبط فوجدت بالفعل سيارة سوداء ماركة بي إم دبليو، ويجلس خلف المقود شاب وسيم، أمرد، ذو شعر أصفر وعينان زرقاوان. اقتربت من السيارة مترددة لتسأله هل هو شريف، فهز لها رأسه، مشيرًا لها أن تركب وتجلس بجواره. شعرت بفرحةٍ عارمة اجتاحت قلبها حين رمقت ظرفًا بنيّ اللون أمامه على «التابلوه» حين جلست بجواره على الكرسي الوثير داخل السيارة الفارهة المُكيّفة. أُخِذت أيضًا بوسامته حين التقت عيناها بعينيه وهي تصافحه. ثم التقط الظرف البنيّ من فوق التابلوه مُسترقًا نظرة إلى فخذيها فاتسعت عيناه انبهارًا، وعجز عن انتزاع عينيه فأطالَ النظر رغمًا عنه. شعرت سمر بذلك لكنها تظاهرت بعدم انتباهها. حتى انتزع عينيه بصعوبةٍ بالغة كانتزاع مسمار من حائط خرسانيّ، أعطاها الظرف قائلًا بأنفاسٍ مُتسارِعة:

- أخبريني، أين المستشفى لنذهب سويًا لأدفع لهم المبلغ؟

أجابته مُتلعثمة: - لا، شكرًا.. سوف آخذ المبلغ منك وأدفعه غدًا في الصباح فلا داعي لأن أتعبك معي أكثر من ذلك.

- حسنًا، ولكن على الأقل نجلس في أي مكان لنحتسي قهوة سويًا...

ابتسمت له وهزّت رأسها موافقة وهي تدس الظرف في حقيبة يدها وتعلم جيدًا أنه سيمسح حينها نصفها العلويّ بعينيه ولم تكن مخطئة، فتعمدت إعطائه ثوانٍ إضافية لينظر مليًا إلى مفاتنها. شعر شريف حينها برغبة جامحة تجاهها إلى أن التقت عيناه بعينيها مرة أخرى فانقلب حاله مئة وثمانين درجة، وقع أسيرًا لها وتخيّلها على الفور وهي نائمة في حضنه، هي أيضًا ساعدته في تخيُّل ذلك عبر نظرتها التي تحمل إغراءً أوقظ كل غرائزه... أخذها وجلسا في أحد الكافيهات الراقية بمنطقة الزمالك. طلبت عصير تفاح بالقرفة، بينما هو طلب قهوة إسبريسو، ساد الصمت بينهما أول عشر دقائق قضاها في النظر إلى وجهها منبهرًا بكل هذا الجمال المثير، والذي شعر أمامه بالارتباك حتى ابتدرت بالكلام:

- هل تعلم أنك تشبه إلى حدٍ ما شابًا كنت أعرفه قديمًا؟!

- حقًا؟!... ما اسمه؟

- هيثم ديكابريو.. قالتها وهزت رأسها مُبتسِمة وهي ترتشف من عصير التفاح.. كانت لي قصة طريفة معه، موقف لن أنساه أبدًا...

- ما هي تلك القصة، هل لي أن أعرف؟!

- سأحكيها لك يومًا ما، ولكن ليس الآن... قل لي ماذا تعمل؟!

ظلا يتحدثان في مواضيع كثيرة تطرقا إليها وأخبرها أنه يتابعها منذ فترة كبيرة وأنه يشعر تجاهها بمشاعر حقيقية ويريد أن ينشئ معها علاقة. رغم أنها لا تؤمن بالحب، وخصوصًا ذلك الحب الذي يولد من وسائل التواصل الاجتماعي، لكنها شعرت بشيء من الصدق في كلامه. أو ربما أرادت أن تصدقه. عرض عليها أن يتناولا العشاء الليلة فرفضت متحججة بأنها ستذهب لوالدتها وربما تبيت معها في المستشفى. لم يلحّ عليها وقدّرت ذلك. إلى أن أخرجت هاتفها من حقيبتها لتجد أن الساعة حوالي الرابعة والنصف، فاستأذنته أن تذهب كي لا تتأخر.. عرض عليها توصيلها للمستشفى لكنها شكرته وأخبرته أنها ستستقل سيارة أجرة. فهز رأسه لها مضطرًا ألا يبدو أمامها لحوحًا، مد إليها يده بكارته الشخصي الذي يوضح أنه يعمل مديرًا لإدارة تكنولوجيا المعلومات في شركة بالقرية الذكية:

- أتمنى أن أراكِ قريبًا. قالها مبتسمًا فهزت رأسها موافقة وأعطته رقم هاتفها وشكرته قبل أن ترتشف رشفة أخيرة من عصير التفاح، خرجت من الكافيه لتوقف تاكسي قاصدة البنك لتودع في حسابها المبلغ الذي أخذته، وفرحة الدنيا لم تسع قلبها. في التاكسي استحضرت صورة شريف الكردي انطلقت منها ضحكة قصيرة، متذكرة ذلك الشاب الذي يدعى هيثم ديكابريو حين كانت في شقته ومارس معها الجنس مرتين ثم نهضت لترتدي ملابسها في عجالة لترحل، طلب منها الجلوس مرة أخرى ليخبرها إن كل ما حدث بينهما تم تصويره بعدة كاميرات قد ثبّتهما مُسبقًا في غرفته وراء الستارة والحاسوب والنجفة، طالبًا منها هاتفها الآيفون وألفين جنيه وسلسلتها الذهبية... فأدركت أنه يريد ابتزازها بهذه الفيديوهات وسينشرها على الإنترنت إن لم تعطه ما يريد، أكملت ارتداء ملابسها دون أن يصدر منها أي رد فعل اعتاد هذا الشاب أن يراه من ضحاياه، فاندهش! دسّت يدها في حقيبتها لتخرج كارت ذاكرة وطلبت منه أن يضع هذه الفيديوهات فيها وستنشر بنفسها هذه الفيديوهات بعدما تنهي مشاويرها. فغر فاه الشاب غير مستوعب رد فعلها هذا، التقطت سيجارته من بين أصابعه ونفثت في وجهة المذهول عدة أنفاس قبل أن تغادر ملتقطة في طريقها قطعة كريستال موضوعة على المنضدة تقدر قيمتها بخمسمائة جنيه تقريبًا...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صباح اليوم التالي شقة الشاب الخليجي

استيقظت سمر فوجدته نائمًا بجوارها، لكزته عدة مرات على كتفه فلم يحرك ساكنًا لتتأكد أنه غارق في أحلامه. حمدت الله أنها أصرّت بالأمس أن يعطيها باقي المبلغ المتفق عليه قبل أن ينام، ففعل. علاوة على ذلك التقطت بنطاله الملقى بجوار باب الحمام وأخذت منه رزمة نقود، عدتهم فوجدتهم ألف دولار، ترددت في أخذها بالكامل ثم خشيت أن يكون لذلك الفعل عواقب وخيمة. فأخذت خمسمائة دولار فقط وأعادت باقي المبلغ في جيب البنطال. لم تكد تمر دقيقة فكرت فيها هل خمسمائة دولار مبلغًا كافيًا أم لا... هزت رأسها وأكملت ارتداء ملابسها وهي تحاول إقناع نفسها أن القناعة كنز لا يفنى. لكنها لم تقتنع بذلك! فالتقطت البنطال مرة أخرى وأخذت باقي المبلغ قبل أن ترتدي حذاءها وتغادر الشقة.

خرجت من العمارة فاعترضها حارس العقار ليسألها متطفلًا أين كانت؟! فرمقته شزرًا وهي تلوّح له بيدها قائلة: هل أنت مجنون؟! فتسمّر الرجل مكانه لا يدري بماذا يجيب. وقفت أمام العقار لتجد سيارة أجرة تنزل منها سيدة عجوز فركبت مكانها قائلة للسائق: - ليمان طرة لو سمحت...!

- يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم... سجن... في الصباح؟ صاح السائق

- حسن، اذهب بي إلى دريم بارك لعل أمك ترضى عني هذا الصباح...! قالتها مُنفعِلة فاندهش السائق من جرأتها في الحديث، فكر لوهلة أن ينهرها وينزلها من السيارة حين لمح وجهها عبر المرآة فتحمل انفعالها ولم يستطع التفوه بأي كلمة، أردفت بنفس النبرة:

- هل ستختفي من هنا الآن أم أنزل واستقل سيارة أخرى غير هذه المخروبة؟!

لم ينبس السائق بكلمة وانطلق بعدما ازدرد لعابه بصعوبة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين يرن المنبه عند السابعة صباحًا ويفصله حسام ليكمل نومه، تدرك أماني تلقائيًا أنه لن يذهب إلى العمل في هذا اليوم. كانت قد استيقظت قبل ذلك بقليل وجلست في غرفة المعيشة بعد أن أحضرت سندوتش جبنة بالطماطم أكلته في عجالة قبل أن تبرد قهوتها الصباحية التي تستمتع بها وهي تسمع أي مطربة إلا فيروز، فمن وجهة نظرها أن طالما الجميع أصبحوا يرون العمق هو أن تحتسي القهوة في الصباح مع فيروز. فيجب عليها أن تخالف ابتذالهم. مما جعلها تكره فيروز بعد أن كانت تحبها وطالما تسمعها. وقررت ببساطة أن تنحرف عن سربهم وتخرج من صندوقهم وتسمع أي مطربة أخرى...! أمسكت بعد ذلك هاتفها وأخذت تتصفح الفيس بوك لمدة ساعة، كان حسام قد استيقظ منذ قليل وأمسك هاتفه ليتحدث إلى السيدة التي

كانت تتحدث معه بالأمس، انتهى حوارهما إلى أنها بمفردها اليوم في المنزل، عرض عليها أن يذهب لها فوافقت على الفور. وصفت له العنوان، واتفق معها أنه سيكون هناك بعد ساعة ونصف، ثم أغلق معها المحادثة وخرج من الغرفة ليجد أماني مُمددة جسدها على الأريكة، مُمسكة بالهاتف وتسمع أغنية لنجاة الصغيرة.

مدد جسده وراءها ليحضنها من الخلف. فابتسمت له وأدارت له رأسها وقبَلته... ثمة شيء اتفقا عليه في أول زواجهما، وما زالا يسيران عليه حتى الآن. وهو أن يبدءا يومهما بابتسامة وحوار هادئ، حتى لو كانا قد تشاجرا وأمسكا لبعضهما سكاكين ليلة أمس. ولا مانع بعد ذلك لو أكملا باقي اليوم دون أي يتحدثا إلى بعضهما البعض أو حتى يستكملا شجارهما. لكن اليوم يجب أن يبدأ بداية جيدة..!

- لماذا لم تذهب إلى العمل اليوم يا حبيبي؟! سألته مبتسمة فقبَلها من رقبتها قبلة مصطنعة وهو يجيبها:

- لست أدري يا حبيبتي، فقد انتابتني حالة غريبة تجاه العمل في وزارة الأوقاف. لم أستطع رؤية كل هذا الفساد وأسكت هكذا أو أقف مكتوف الأيدي.

- فساد؟!... ماذا تقصد؟!

- الأموال التي تأتي لهم من الزكاة والتبرعات والجمعيات الشرعية... يذهب أكثر من سبعين بالمائة منها في كروشهم. يستولون عليها. أحد الشيوخ الذين أشرفوا على الجمعية الشرعية بمنطقة القاهرة الكبرى قد اشترى سيارة مرسيدس منذ أسبوع، وقبلها بشهرين اشترى شاليه في الساحل الشمالي...! هذا غير الفساد الذي أراه بأم عيني في..

قاطعته: - وهل كرهت العمل هناك لذلك السبب؟! أم لأنك لم تستطع أن تفعل مثلهم؟

- هل أبدو لكِ هذا الرجل الذي يفعل ذلك يا أماني؟! سألها قاطبًا جبينه

- لا يا حبيبي، فقد كنت أسألك فقط... مجرد دردشة.

- أعرف أنني لا أحتكم على أموالٍ كثيرة، لكن الله جعل رزقي فيك يا حبيبتي... زوجة مخلصة محبة، ماذا يمكن للمرء أن يتمنى أكثر من ذلك؟

اعتدلت في جلستها وسألته بجدية: - لماذا تثق فيَّ هكذا كل هذه الثقة يا حسام...؟

اعتدل هو الآخر قائلًا: - لأن ثقتي فيك أساسها ومصدرها ثقتي في نفسي... حسام الأزهري لن يخان أبدًا، هذه حقيقة يجب عليكِ الاعتراف بها والتصالح معها، هذا أولًا. أما ثانيًا هو أنني أعرف جيدًا أنك لست تلك المرأة التي تخون، لقد تربينا مع بعضنا البعض تقريبًا، وأعرفك منذ أن كنتِ طفلة... تتذكرين يا حبيبتي؟! هزت له رأسها مبتسمة فاستطرد: - المهم أنكِ لست المرأة التي تخون أبدًا.

ساد الصمت بينهما لثوان تبادلا فيها قبلة ليست حارة ثم استطرد وهو يضم رأسها بكفيه مبتسمًا: - لالالا هذا من رابع المستحيلات، وإن خونتيني سأعرف بالمناسبة، ولديَّ طرق كثيرة لأعرف.. ابتعد برأسه عنها قليلًا وهو ينظر لها مُتفحصًا، مُتأمّلًا الأمر وأكمل: - وأؤكد لك يا حبيبتي أنه من رابع المستحيلات أن تفعلي ذلك، لا تستطيعين خيانتي...!

من أثمن الأشياء التي قد تمتلكها امرأة هي ثقة شريكها فيها. حينها، تفعل كل ما في وسعها كي تستغل هذه الثقة أفضل استغلال لتثبت له أن ثقته هذه في محلِّها. غير أنها إن شعرت لوهلة أن هذه الثقة ليست بالأصل فيها، بل في نفسه، مُعتقِدًا أنها لن تستطيع أن تخونه لأنها ضعيفة ولن تقدر ولن تجرؤ... ففي هذه الحالة تكفر المرأة بأي ثقة في العالم. سواء منه أو من غيره. ولن تثق مرة أخرى في ثقة أي شخص كان. بل وقد يصل الأمر للخيانة فعلًا، كي تثبت لنفسها أنها لديها القدرة على فعل ذلك الآن، وفي أي وقت. فتخونه وتخونه وتتحرَّ خيانته. تخونه، لتستمتع بالنظر إليه مُشفقة على ثقته الواهية تلك، وغروره الكاذب.

- هيا. دعكِ من هذا الهراء واذهبي لتحضري لي أي شيء أتناوله سريعًا لأنني سأذهب لزيارة أحد أصدقائي.

- زيارة؟! سألته مُتعجبة... من هذا الذي ستزوره هكذا في الصباح الباكر يا حبيبي؟!

أجابها مرتبكًا باحثًا عن كذبة مقنعة: - إنه... إنه كاتب صديقي... مروان جبر، هل تتذكرينه؟!

- مروان جبر؟! لالا.. من هذا؟!

- مروان جبر... الكاتب الروائي المشهور الذي ذهبنا حفل توقيعه منذ شهر ونصف تقريبًا. لقد تحدثت معه بالأمس وطلب أن نتقابل في نادي القصة بوسط البلد لنتحدث بشأن روايتي القادمة.

هزت رأسها باسمة ودلفت إلى المطبخ لتحضر له الفطور، كان قد أخذ حمامًا وارتدى ملابسه. تناول الفطور وأخذ فنجان القهوة ليحتسيه في

الشرفة مع قرص فياجرا ابتلعه بها خِلسة، ثم انطلق قاصدًا السيدة التي اتفق معها...

في نفس الوقت الذي أمسكت فيه الهاتف لتستكمل حديثها الذي بدأته أمس في منتصف الليل مع مروان جبر، لينتهي حديثهما بأن أخبرته أنها بمفردها اليوم في المنزل، عرض عليها أن يأتي لها، فوافقت. ثم وصفت له العنوان واتفق معها أنه سيكون عندها بعد ساعة ونصف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما انتهت سمر مما كانت تفعله في المستشفى الملحقة بسجن طرة، وقفت حوالي عشر دقائق، فلم تجد تاكسي إلا بعد أن سارت ناحية الطريق السريع. في نفس الوقت الذي اتصل بها شريف الكردي ليسألها عن والدتها فأخبرته أنها بخير، وشكرته كثيرًا على ما فعله معها بالأمس، وأخبرته أنها دفعت المبلغ كاملًا وستخرج قريبًا من المستشفى بعد أن يكتمل شفاؤها على خير. سألها أين هي فأخبرته أنها خرجت من المستشفى للتو وستذهب إلى البيت:

- أين تسكنين؟

- في شبرا مصر، بمنطقة تسمى الدوران، بجوار..

قاطعها: - نعم، أعرفها... أنا أحب هذه المنطقة جدًا، لقد قضيت فيها أجمل سنين حياتي حينما كنت طالبًا. وكنت أ....

قاطعته: آسفة، ولكنني لم أسألك عن قصة حياتك لتصدعني بها... أليس كذلك؟!

- نعم هو كذلك، لقد أحرجتيني في الحقيقة وأشعر الآن أنني...

- ماذا تريد بالضبط يا شريف؟!... ماذا تريد... هل أحببتني حقًا؟!

أجابها مُتلعثِمًا: - لا.. أنا.. احم احم نعم، أقصد أنني.. أقصد أنني...

قاطعته مرة أخرى بجدية واقتضاب: - انتظرني بعد نصف ساعة أمام ماكدونالدز في أول شارع عباس العقاد... لا تتأخر... سمر شكري لا تقف في الشارع. هل أحتاج لأن أخبرك بذلك؟!

كان هناك بالفعل بعد ثلاثين دقيقة بالضبط، وصلت بعده بعشر دقائق وجلست بجواره، صافحته فاحتاج ثواني ليستطيع جمع شتات نفسه حين التقت عيناه بعينيها... همَّ ليتحدث لكن رنَّ هاتفها فأشارت له أن يسكت ولا ينطق بحرف...

- ألو... نعم يا أخي لقد عدت للتو من المستشفى وسأكون في البيت بعد ساعة - اتسعت عيناها مردفة بانفعال – كيف ستبيت الليلة خارج المنزل وأنت تعلم أنني أخاف النوم بمفردي في الشقة؟ وبعدما أحكم قفل الباب.. هل هذا سيمنع أي لص في أن يتسلل إليَّ لسرقتي أو حتى اغتصابي... حسنًا حسنًا، لكن سأتحمل... مع السلامة...

أغلقت الهاتف وهي تزفر ممتعضة، علم شريف من فحوى المكالمة أنها ستبيت الليلة بمفردها، التمعت عيناه وشعر أن الظروف سانحة ليطلب منها أن يبيت معها الليلة في شقتها، سألها بحذر إن كان هذا متاحًا؟ فنظرت له باندهاش وأخبرته أن هذا ليس مسموحًا.

- لن أفعل معك أي شيء رغمًا عنكِ، أعدكِ بذلك. كل ما أريده هو أن أقضي هذه الليلة معك، سواء في بيتي أو بيتك، أنا أعيش بمفردي ولن يضايقنا أحد..

- لالالا، لن أستطيع أن أذهب معك إلى شقتك، ولكن..

سال لعابه أكثر قائلًا: - ولكن ماذا؟

- ولكن إن أقسمت لي ألا تضايقني أو تفعل أي شيء ضد رغبتي سأجعلك تبيت معي الليلة، شريطة ألا تحاول أن تفعل أي شيء، على الأقل عدم تجاوز الخطوط الحمراء. قالتها وهي تغمز بعينيها

- موافق... أعدك بذلك وأقسم بالله ألا أفعل سوى الذي تسمحين لي به.

- اتفقنا..

وصفت له الطريق بينما كان يقود، حتى وصلا بالقرب من بيتها.. قالت:

- اسمع جيدًا ما سأقوله لك... شقتي في هذا المنزل الذي بجوار الحداد – أشارت إليه بسبابتها فهز شريف رأسه مُتفهّمًا – شقتي في الدور الثاني، إركن سيارتك وادخل البيت، ثم اصعد إلى الدور الثاني وستجد الباب موارِبًا، ادخل دون أي كلمة وستجدني أنتظرك بالداخل، إن سألك أحد ما في الشارع ماذا تريد أو من تريد، قل له أنك تريد تصليح الخلاط الخاص بك عند عم أحمد بالدور الثالث... اتفقنا؟!

- خلاط؟!

- اتفقنا؟!! كررتها منفعلة فأجابها ضاحكًا: - حسنًا حسنًا.. اتفقنا...

بالفعل نفذ شريف كل ما أخبرته به سمر، لم يكد يدخل من الباب حتى تجمّدت عروقه حين رآها بعينين مشدوهتين مُرتدية «هوت شورت» جينز

و»بادي» أحمر مكشوف الصدر والكتفين المُزينين بنمشٍ أفقداه عقله، أغلق الباب وأقبل عليها حتى كاد يلمسها فهربت منه بغنجٍ إلى غرفة النوم مُتظاهِرة بالخجل، دخل وراءها، صعدت فوق السرير فصعد وراءها فنزلت هروبًا منه حتى أمسكها من خصرها أخيرًا وأخذ يُقبّلها ويعبث بجسدها ويحضنها، بالكاد فلتت منه واستمهلته وهي تغمز بعينيها، فلم يمهلها وأمسك برسغها مُزمجرًا: - لسنا في حاجة إلى تحضير أي شيء، فأنا أحب أن أراكي هكذا دون أي تجميل أو تجهيز.

- لالالا، يجب أن أدخل الحمام لأجهز كل شيء قبل فعل أي شيء. قالتها بوجهٍ متجهم. فأومأ لها برأسه مُتأففًا. غابت عنه لخمس دقائق ثم عادت له حاملة بين يديها صينية عليها كوب عصير، أخذها من يدها ووضعها بجواره على المنضدة قبل أن يجذبها إليه باليد الأخرى ليجلسها بجواره.

- ما كل هذا الجمال؟ أخبريني...! أقسم بالله أنك أجمل بنت رأيتها في حياتي، بل أجمل بنت خلقت في التاريخ.

قالت له وهي تسير بأناملها على رقبته وشفتيه: - ها هاها ها لا تبالغ، من المؤكد أنك تبالغ.

- والله لا أبالغ، واندهش جدًا من أن هذه اللؤلؤة الجميلة تعيش وسط كل هذا الوباء...!

- ليس بيدي، ولدت هنا وسأعيش هنا إلى أن أموت... قالتها وقد اكتسى وجهها بمسحة حزن.

- لالالا، أعدك بأن هذا لن يحدث، سأنتشلك من كل هذا وسأحوِّل حياتك مئة وثمانين درجة.. قالها وهو يضع يده على رقبتها ويجذبها ناحيته فأبعدته عنها قائلة:

- هل من الممكن أن تفعل ذلك حقًا؟

- نعم وأكثر من ذلك، أعدكِ.. نهض وحملها وأخذ يقبلها قبل أن يمدد جسدها برفقٍ على السرير وينزع ملابسها في عجالة، وقد شُلَّ كل تفكيره تمامًا، شهقَ وبرقت عينيه حين رآها عارية أمامه:

- أقسم بالله أنك أجمل بنت في الدنيا، ليس بكِ غلطة واحدة، سبحان من خلق كل هذا الجمال والدلال.

كان ذلك حين انفتح باب الغرفة فجأة ليدخل منه شاب، فانتفضا مذعورين محاولًا كل منهما التقاط أي شيء بجواره ليستر به نفسه

- ما هذا أيتها الفاجرة؟ صاح الشاب. أخبرتك أنني سأبيت عند صديقي فتأتي بهذا الكلب لينام معك؟ والدتنا بين الحياة والموت ووالدنا في العمرة وأنت هنا تمارسين الفجور أيتها القذرة؟ كيف أنظر للناس بعد هذه الفضيحة.

قاطعه شريف.. – من فضلك، هل من الممكن أن تهدأ وسو...

- وهل لك عين لتتحدث وتفتح فمك أيها الكلب؟

- من فضلك يا أخي، بالله عليك لا تفعل أي شـ... قالت له سمر مُتوسِّلة

- أتستحلفينني بالله، وكيف تعرفين الله وأنت بهذا الوضع. جلبت العار لنا جميعًا ويجب أن أقتلكما، بل أذبحكما وأقطعكما إربًا كي أغسل عاري..

قالها وركض نحو المطبخ لالتقاط سكين، نهضت بسرعة وأعطته ملابسه الملقاة على الأرض فأخذهما منها بيدٍ مرتعشة، أخبرته مذعورة أن يقفز من شباك الحمام ويتسلّق ماسورة الصرف الصحي وينزل بهدوء حتى تلمس قدميه الأرض قبل أن يخرج من باب المسقط الصغير إلى الشارع...

- حسنًا حسنًا... قالها مرتبكًا، قادته إلى الحمام فوقف لجزء من الثانية مشرأبًا رقبته نحو الصالة: مفاتيحي وسجائري

لطمت وجهها: - هل تمزح، هل هذا وقت سجائر ومفاتيح؟ أخي دخل المطبخ ليحضر سكينًا وسيأتي ليقتلك ويقتلني وأنت تبحث عن سجائر؟ التفتت نحو المنضدة والتقطت مفاتيح سيارته وسجائره، وأعطتهم له، فأخذهم وهو يرتدي بنطاله بسرعة البرق وأخرج جسده من شباك الحمام الصغير المطل على المسقط... وفعلت كما أخبرته بالضبط.

لم يكترث شريف بنظرات الناس له في الشارع واندهاشهم من هيئة هذا الرجل الغريب وتصرفاته الأغرب، حتى وصل إلى ناصية الشارع فلم يجد السيارة...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ سبع عشرة دقيقة

حينما استأذنته لدقيقتين لتحضر له عصير، أخذت مفتاح السيارة والمحفظة، وضعتهم داخل كيس بلاستيكي وألقتهم لهذا الشاب الذي بدوره صنع نسخة أخرى من مفاتيح السيارة عند ورشة ليس بينها وبين البيت سوى خمسين مترًا، ثم فتح المحفظة وأخذ ما فيها من نقود بالإضافة إلى بطاقات الائتمان واستبدلها بطاقات أخرى منتهية تعود إلى شخصٍ آخر. كل ذلك حدث في غضون عشر دقائق أخذ بعدها نسخة المفاتيح الأصلية والمحفظة بعدما حلبها

وصعد بها إلى الشقة التي فتح بابها بهدوء، وضع ما معه على المنضدة قبل أن يفتح عليهما باب الغرفة ويفعل ما فعله.

أخذ شريف يتلفّت كالمجنون وهو يبحث عن سيارته لكن بلا جدوى، عاد مرة أخرى إلى البيت الذي كان فيه وقد لفت الأنظار أكثر وأكثر بهيئته الرثة هذه، سأله أحد الرجال الجالسين بالقهوة عما به فلم يأبه له وصعد الدور الثاني فلم يجد من يفتح له، صعد وراءه رجلان كانا جالسين في القهوة ومعهما رجل من سكان البيت، سألوه ماذا به، حاول أن يشرح لهم بلسان مرتجف لكنهم لم يفهموا شيئًا، وأخبروه أن هذه الشقة مجرد مخزن..

في نفس الوقت الذي تسلّلت فيه سمر ومن بعدها هذا الشاب الذي اتصل في الطريق بصديقه الذي أخذ منه المفتاح المزور وقاد به السيارة حتى منطقة الحرفيين حيث ستعامل هناك معاملة ذبيحة العيد ولن يمر عليها ساعتين وتتجزأ وتباع كقطع غيار بعد أن توزع على عدة محلات لبيع قطع غيار السيارات استيراد الخارج.

ما إن وصلا إلى منطقة الحرفيين حتى سمعوا صوت سارينة الشرطة، بعدما أبلغ شريف عنهما معتمدًا على تحديد مكان السيارة بالضبط باستخدام جهاز الـ GPS بهاتفه الذي حمد الله أنه كان في بنطاله.. حين وصلت سيارة الشرطة قفز صاحب المحل الذي كان واقفًا معهما وأغلق محله وتبخّر في غضون ثوان ليترك سمر والشاب الذي معها بجوار السيارة حائرين مُحاصرين. ما إن وقفت أمامهم سيارة الشرطة حتى نزل منها شريف مُنقضًا على الشاب وأخذ يضربه حتى حال بينهما أحد الضباط الذي أخذه وأخذ سمر وأدخلهما سيارة الشرطة في هدوء... وقف شريف أمامها وقال موجهًا كلامه لها: - أنا...؟ أنا شريف الكردي تفعلين بي هذا يا غدارة يا ابنة الكلاب؟!... سأريكِ من أكون يا بنت العاهرة... أنا شريف الكردي وسأدخلك السجن أنت وهذا الكلب الذي معك ولن تريا الشمس مرة أخرى.

بصق شريف عليها وذهب ليتفحص سيارته ليتأكد أنها لا ينقصها أي شيء، فانطلقت سيارة الشرطة ولحق بهما شريف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما أخذ الضابط أقوال كل من شريف، سمر والشاب الذي ساعدها على ذلك، أقفل المحضر في ساعته وتاريخه قبل أن يتم حبس سمر والشاب تمهيدًا لعرضهما على النيابة صباح الغد. ثم غادر شريف القسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادر الكاتب مروان جبر شقة حسام بهدوءٍ بعدما قضى وقتًا ممتعًا مع أماني. وجاء حسام زوجها بعد ذلك بساعتين، أخذ حمامًا دافئًا وجلس على

المنضدة واضعًا أمامه لاب توب، أخذ يتصفح العديد من فيديوهات التنمية البشرية والمعلومات الدينية، وكلما تعجبه كلمة يستوقف الفيديو ويكتبها في ورقة تمهيدًا لتحويرها وتجويدها ووضعها في كتابه الجديد...

بعد مرور ساعتين، اتصلت به إيمان عزمي الممتعضة من إهماله لها. دخل غرفة النوم ليطمئن أن زوجته تغط في النوم، أو هكذا خيل إليه ثم أجاب:

- ألو.. كيف حالك يا حبيبتي؟!

- حبيبتك؟! بأمارة ماذا؟! أجابته بفظاظة

- ما هذا الكلام يا إيمان... فأنت تعلمين جيدًا أنني أحبك...

- كيف تحبني وأنت لم تتصل بي طيلة يومين متواصلين؟! أخبرني إن كنت أحببت غيري لكن لا تتركني هكذا..!

- أقسم لكِ أن...

- لا تقسم.. لا تقسم... الاهتمام لا يُطلَب يا حسام... وأنت بإهمالك هذا سأعتبر أن كل ما بيننا...

قاطعها: - لا تقوليها... دعينا نتحدث.. هل أستطيع مقابلتك لنتحدث بأريحية؟!

- أنا في الساحل الشمالي الآن... سأعود إلى القاهرة غدًا. سأتصل بك حين أصل

- حسنًا... سأنتظر مكالمتك...مع السلامة يا حبيبتي

بعدما أغلق المكالمة بدقيقتين ورده اتصال آخر ولكن الرقم غير مسجل لديه، لذلك لم يجب. فاتصل مرة أخرى، فلم يجب أيضًا... ثم اتصل مرة ثالثة. فساوره الشك مُحدثًا نفسه: - ترى من هذا الغامض ابن الغامضة الذي يتصل؟! أجاب متوجسًا فوجد أن المتصل...

- سمر...؟!! يااه... منذ متى لم نتحدث؟!

تحدثت إليه بصوتٍ خافت: - اسمع يا حسام، لم أستطع أن أتحدث معك أكثر من نصف دقيقة... أنا في قسم النزهة، احضر لي فورًا.

نهض من مكانه: - ماذا؟! ماذا حدث يا حبيبتي؟!

- سأخبرك حين أراك... حاول أن تحضر لي محامي وتأتي لي بأقصى سرعة... ولا تقلق سأتكفل بأي تكاليف ستنفقها.

- حسنًا حسنًا... سأتصرف...

أغلق المكالمة ووضع الهاتف على المنضدة محدثًا نفسه بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا لأماني التي خرجت من الغرفة: - ما هذه المصائب التي تلقى على رأسي وأنا جالس في سلام يا الله؟!

- ما هذه المصائب التي تتحدث عنها يا حبيبي؟! سألته أماني وهي تتثاءب وتنزع حمالة صدرها وتسحبها من تحت قميص النوم.

- لا شيء... سمر اتصلت بي من القسم لتخبرني أنها محتجزة هناك، وطلبت مني أن أحضر ومعي محام... على أساس أنني أحتكم على الآلاف...!

- لا تذهب إليها... من المؤكد أنها تم القبض عليها في قضية دعارة أو شيء من هذا القبيل.

قطب حاجبيه: - لا أستطيع أن أتجاهلها.. فهي أختي قبل أي شيء...

- أختك؟!!... بعد كل ما حدث وتقول أختي؟!... أنسيت ما حدث؟!!!

- لم أنس... ولكنها ليس لها ذنب في أي شيء في النهاية... بالعكس.. فهي ضحية.. ضحية أشياء كثيرة... وأعتقد أنك تعرفين ذلك جيدًا.

قالها ثم شرد بتفكيره بعيدًا، حتى أن أماني تحدثت إليه فلم يسمعها... لوت فمها وعادت مرة أخرى إلى غرفة النوم وأمسكت هاتفها لتجد أن مروان جبر قد بعث لها رسالة يصف فيها سعادته حين كان معها...! قرأت الرسالة مبتسمة ثم حذفتها خوفًا من أن يراها حسام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنيسة مارجرجس محافظة أسيوط...

بمنظرها الضخم المهيب من الخارج، والذي يوحي أنها قلعة، بمجرد أن تدخل من البوابة الكبيرة المطلية باللون الأسود ومنقوش عليها صلبان ذهبية اللون، سوف تسمع صوت الترانيم المهدئة للأعصاب، وتهاجم أنفك رائحة البخور التي تفوح في جميع الأرجاء، ستذهل حين تدخل وترى السقف المزين برسومات الملائكة والقديسين يتخللها نوافذ ذات طابع قبطي قديم، وقطع الزجاج الملون والذي تخترقه أشعة الشمس فتكتسي بنفس ألوانه الخلاّبة، لتسقط بدفئها على الجالسين فتضيف على طمأنينتهم... طمأنينة.

يشاركون في الاحتفال ويستمعون لصوت الموسيقى والترانيم البديعة، والتي يؤديها مجموعة من الشمامسة، يتوسطهم مُعلِّمهم وقائدهم، إسحق جرجس سرجيوس، ذو الثلاثين عامًا.

منذ نعومة أظافره تربى ونشأ في الكنيسة، بعدما أرسله والداه - قبل أن يلقيا مصرعهما بعامٍ واحد في انفجارٍ إرهابي - إلى هناك ليواظب على دروس الآحاد وخدمة الكنيسة ليل نهار، شبَّ على ذلك وشاب، فأصبح أحد الأضلع الأساسية في كورال الكنيسة الذي يلقي الترانيم. رغم أن هناك غصّة في حلقة مما رآه خلال الأعوام السابقة في الكنيسة، من الإدارة التي تنهب جزءًا كبيرًا من العشور لخدمة المصالح الشخصية لبعض أفرادها. فكر كثيرًا في أن يفضح أمرهم، لكنه يدرك جيدًا أنه لا يملك دليلًا ماديًّا على ذلك، وبالتالي فلن يجد من يصدقه. فكر أيضًا في أن يُقلِع عن الذهاب إلى هناك، ويستقيل من فريق الكورال أيضًا. لكنه ليس مُستعِدًا لذلك الآن، لأنه يقتات من إحسانها، وإن صدر منه أيّ فعل غير محسوب نتائجه، لن يجد حينها من يعطف عليه ويُحسِن.

انتهى من غناء الترانيم، نهض بعدها القس وأجرى طقوسه حتى انتهى الاحتفال، أشار إسحق بعدها لزوجته دميانة أن تستعد للرحيل، قاصدًا بيتهما...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي

استيقظ حسام وأعاد الاتصال بصديقه المحامي ليجد أنه قد فتح هاتفه أخيرًا، كان طوال أمس يتصل به لكن هاتفه كان مغلقًا. رد عليه صديقه وطلب منه حسام أن يأتي معه قسم شرطة النزهة لأن أخته محتجزة هناك، فأخبره صديقه أن لديه موعد جلسة في محكمة مصر الجديدة وسينتهي في تمام الساعة العاشرة، بعدها بنصف ساعة سيلحق به إلى هناك...

في نفس الوقت الذي دخل فيه شريف الكردي قسم الشرطة، صافح الضابط وطلب مقابلة سمر، فأمر الضابط أحد العساكر ليحضرها إليه في الحال. ما إن دخلت مكتبه حتى خرج الضابط ليتحدثا بأريحية.. علّق شريف عينيه عليها لبضع ثوان قبل أن يقول لها بنبرة هادئة:

- هل تعلمين ماذا سيحدث لفتاة تنصب على شريف الكردي؟!

أشاحت بوجهها بعيدًا قائلة بعدم اكتراث: - لا أريد أن تخبرني. دعني أرى كل شيء بمفردي.

أعاد وجهها إليه فالتقت عيناهما: - لا تشيحي بعينيك بعيدًا عني... أنا فقط أريد أن أعرف لماذا فعلتِ هذا؟! أخبرتك أنني أحبك... وأنني على استعداد أن أفعل أي شيء لأجلك. لماذا الطمع؟! لماذا تتفقين عليَّ مع هذا الكلب؟

- هذا ليس كلبًا.. إنه ابن خالتي... ثم أخبرني... لماذا جئت إلى هنا؟! ماذا تريد؟!

- أريد أن أثبت لكِ أنني أحبك... رغم أنني بالمناسبة أعلم أنك كنت تكذبين في المنشور الذي نشرتيه على الفيسبوك... وأعلم أن والدتك توفّيت وأنت صغيرة... وأن والدك مسجون وسيخرج خلال أيام بعفوٍ صحيّ...

- كيف عرفت كل ذلك؟ سألته قاطبة جبينها

- لا شيء يصعب عليَّ، ولم يحتج الأمر سوى إدخال اسمك في مصلحة الأحوال المدنية، كلهم هناك أصدقائي... وبضغطة زر عرفت كل ذلك، وأعرف أيضًا أنكِ...

قاطعته بنظراتٍ باهتة مزدرية: - حسنًا حسنًا.. لا تكمل... سأرد لك المبلغ الذي أخذته منك، رغم أنه لن يؤثر معك في شيء وتستطيع تركه لي عن طيب خاطر، لكنني سأرده لك ولا أريده... وسأصحّح لك معلوماتك، أمي فعلا توفّيت، ولكنها توفّيت وهي تلدني، لم أرها قط.

أذرفت دمعتين حينها، لم تدع هاتين الدمعتين تنهش كبريائها الذي استجمعته سريعًا، مستطردة بنبرة قوية لا تتناسب مع بكاءها: - والآن اتركني أعود إلى الزنزانة. وإن كنت تظن أنني سأتوسّل إليك لتخرجني، أو أنك ستستطيع مساومتي على جسدي فأنت واهِم. أنا أعند شخص يمكنك مقابلته في حياتك. أنا على استعداد أن أنام مع كل من في القسم هنا لأخرج، على أن أفعل هذا معك رغمًا عني ودون إرادتي..

بدت هجومية، فلم يزدها هذا الهجوم سوى سحرًا فوق سحرها، ولم يزده تجاهها إلا رغبة وإعجابًا. ابتسم ومدّ يده ليلمس شعرها، فأبعدتها عنها بقوّة. مدّ يده مرة أخرى فضربته عليها. افتر عن ثغره ابتسامة وهمّ ليتكلّم لكنه توقف عن الكلام حين دخل الضابط، فأخبره شريف أنه يريد التنازل عن المحضر. فهز رأسه موافقًا وأمر أمين أن يكتب مذكرة تنازل ليرفقها مع المحضر ثم وقع شريف عليها... كل هذا وسمر كانت جالسة على الأريكة أمامهما. جلس بجوارها قائلًا بصوت خافت: - لقد تنازلت عن المحضر، وأنت الآن حُرّة... علمًا بأنني لا أريد جسدك.. كنت فقط أريد قلبك لكنني اكتشفت أنك لا تملكين.

صافح الضابط وهمَّ ليغادر فتذكر شيئًا عند الباب فعاد ومال بجذعه إليها قائلًا بصوتٍ خافت: - بالنسبة للمال الذي أعطيتك إياه... لا أريده.

غادر القسم قبل دقائق من دخول حسام مع صديقه المحامي البائس. وجد سمر جالسة على الأريكة شاردة الذهن. أقبل عليها مُتلهفًا ليسألها عما

حدث، فأجابته بنفس الشرود أن لا شيء حدث. وأن مشكلتها قد انتهت. نادى عليها الضابط لتوقع على تقفيل المحضر، فوقعت وغادرت..

ولا زالت ساهِمة تفكر في هذا الشخص الذي لم يمر عليها مرور الكرام مثل أي شاب آخر من قبل...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من بين مئات السيارات التي تسير في طريق مصر اسماعيلية الصحراوي قاصدة مدن العبور، الشروق، العاشر من رمضان أو اسماعيلية، أو حتى بورسعيد. هناك بعض السيارات التي تجتاز الكوبري الثاني المقام أول مدينة العاشر من رمضان، لتسير أربعة كيلو مترات بعده ثم تنعطف يمينًا لتسير في طريق غير مُمَهّد تمامًا، فيستوقفها نادورجي واقفًا بعد مئة متر مُمسِكًا بجهاز لاسلكيّ. ينحني ناظرًا إلى قائد السيارة ويتفحصه جيدًا قبل أن يشير له بالدخول دون التفوه بكلمة. ليقابل مجموعة أخرى مسلحة تتفحص من بداخل السيارة مرة أخرى قبل أن يسمح لها بالتوغُّل. لتبدأ بعد ذلك مرحلة سيارات الدفع الرباعي الواقفة يمينًا ويسارًا، وأبراج المراقبة المنتشرة، يعلوها أفراد مُسلحون ومُمسكون بنظاراتٍ معظّمة، لمراقبة المنطقة ومسحها بالكامل، والإبلاغ عن رصد أي هجوم أو أي تحرُّك غير مألوف. بعد ثمنمائة متر يوجد عدة خيم بها أشخاص يحقنون شبابًا وفتيات بالمكس. وحتمًا أنت لا تريد رؤية هذا الشاب الذي اعتاد المجيء إلى هنا بآلاف الجنيهات لكنه اليوم ليس معه ما يكفي ثمن حقنة، ورغم كل توسلاته لهم أن يعطوه جرعة واحدة، لكنهم أخذوا يضربوه إلى أن فقد الوعي وألقوا به في الصحراء. ولن تريد رؤية هذا الرجل الواقف هناك، حاملًا ابنته الرضيعة بين يديه ليبيعها مقابل أربعة تذاكر هيروين. ولن تريد أن ترى تلك الفتاة التي عرضت جسدها للبيع مقابل ثلاثة سطور هيروين. أو هذا الرجل الذي باع كليته للحصول على عدة حقن تهدئ من الدود الذي يأكل بعضه بعضًا تحت جلده بسبب عدم أخذه لجرعته منذ أسبوع...!

هل وصلت بسيارتك بحمد الله إلى مباني الإدارة؟!

مرحبًا بك في قدس الأقداس لمنطقة السحر والجمال - هكذا يسمّونها - أكبر وكر في الشرق الأوسط لتجارة المخدرات، وأقواها. الوكر الذي لم يفلح في اقتحامه قوات الشرطة، ليس لقوته بقدر دهائه. الوكر المسئول عن توزيع المخدرات إلى أكثر من ثلثي جمهورية مصر العربية. صاحب هذا الوكر رجل يدعى أبو شهد السمنودي، غير مرئي، ولم يعرفه أحد سوى القليل. رغم ذلك وراءه جيش عرمرم يقتات منه ويعيش من خيره، وعلى استعداد أن يضحوا بحياتهم بكل بساطة لأجله. كل شيء هنا يسير بدقةٍ متناهية مثل الساعة، كل فرد مسئول عن مهمة معينة وليس له الحق في

تخطي حدوده والقيام بمهمة أخرى غير الموكل بها. منهم من هو مسئول عن النقل، أو الأمن، أو استلام الشحنات، أو الفرز والتعبئة، أو الوزن... إلخ

من بين هؤلاء الرجال المسئولين عن استلام الشحنات وتقسيمها جمال سيراميكة الجالس داخل غرفته وحوله مجموعة من الأشخاص الذين ينفذون ما هو مطلوب منهم بالضبط. سمع صوت شجار بالخارج، أرهف السمع حتى استطاع تمييز أحد رجاله وهو يتشاجر مع آخر. نهض وخرج ليرى ما يحدث فتأكد أن أحد رجاله بالفعل هو من يتشاجر، وحوله رجلان من فرع الأمن يلكمونه حتى كاد يموت بين أيديهم. خطا نحوهم ودون أن يتفوه بكلمة استطاع أن يخلصه منهم.

- كيف تجرؤون أن تفعلوا ذلك بأحد رجالي؟ أجننتم؟!

- جمال، لا تكترث بهذه المشكلة وابتعد عن طريقنا وسلمنا ابن العاهرة هذا.

- لا، لن أسلمه لكم، وأجيبوني عن سؤالي.. كيف تجرؤون على فعل هذا؟

- لا تسألنا هذا السؤال، بل اسألنا ماذا فعل لنا كي نفعل به هذا.

- لا... لا أريد أن أعرف ماذا فعل، حتى لو رأيته يعتلي أمك ويضاجعها، فليس لك الحق أن تفعل هذا بأحد رجالي دون الرجوع إليَّ أولًا... ألن تعرف ذلك يا ابن العاهرة «المعلمة جمالات» رحمها الله؟!

- أنت تخطيت حدودك يا سيراميكة... قالها أحدهم وهمَّ ليلكمه فصدها سيراميكة بساعده وأمسك ذراعه ليلويه خلف ظهره وكسره عند كوعه، أقبل عليه الآخر فركله بقدمه اليسرى في بطنه فأرداه على الأرض، رفعه من الأرض مرة أخرى وألقاه في حوض مليء بالماء، أقبل عليه الثالث فأمسكه سيراميكة من رقبته وعصرها حتى كاد الرجل يموت وتخرج روحه بين يديه. لولا أن رآه «ورنيشة» المسئول عن استلام الأموال وتحويلها أولًا بأول إلى أحد الحسابات التي تصب في النهاية لأبو شهد السمنودي. وبالكاد استطاع تخليص رقبة الرجل من بين يدي سيراميكة التي انتفض العروق فيها وبرزت.

ومن يستطيع التغلب على سيراميكة؟!

ذلك الرجل الثلاثيني الذي أثبت في غضون فترة قليلة أنه الأجدر ليتولى إدارة استلام الشحنات بمنطقة السحر والجمال، يعرفه الجميع ويعمل له ألف حساب، ولا أحد يجرؤ على مضايقته، قويُّ البنية، أمين، من أكثر الرجال الخائفين على أبو شهد السمنودي ويعمل لصالحه مثل كلب حراسة أمين، رغم أنه لم يره ولو مرة واحدة، لكن أخباره تصل للسمنودي أولًا بأول. منذ أن تصدى لحملة من حملات الشرطة التي حاولت مهاجمة الوكر بعد الثورة

بعامين، استطاع فيها أن يصيب عدة عساكر وضباط وفجّر سيارة من سياراتهم وأحبط محاولتهم للاقتحام. ترقى بعدها إلى مسئول أمن، ثم بعد ذلك اشترك في عدة عمليات توزيع واستلام، كل يوم يثبت فيه إخلاصه للسحر والجمال، حتى أصبح المسئول عن استلام الشحنات الآتية من ليبيا. وتقسيمها وتوزيعها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما خرجت سمر من القسم وتبعها حسام محاولًا التحدث معها، أشارت بيدها واستوقفت تاكسي فأمسك حسام يدها واعتذر للتاكسي ليرحل.

- كنت أريد التحدث معك قليلًا، هل وراءك شيء الآن؟

أجابته متأففة - لا.. لا أعتقد. فكل مواعيدي اليوم تم إلغاؤها من تلقاء نفسها.

- حسنًا، تعالي معي لنجلس سويًا ونتحدث قليلًا..

- اجلس مع من؟!.. مع أخي الذي استنجدت به وأخبرته أنني محتجزة في القسم فجاء اليوم التالي؟!

- أقسم لكِ أنني لم أجد محامي ليأتي معي، ماذا سأفعل بمفردي هنا؟

حاولت إقناع نفسها بتصديقه وقالت له وهي مغمضة عينيها: - حسنًا، لا بأس يا حسام... ماذا تريد إذن؟

كانا يبعدان عن كافيه سيلنترو حوالي دقيقتين سيرًا على الأقدام، استأذن من صديقه المحامي الواقف في الناحية الأخرى وشكره. ثم تمشيا إلى الكافيه. جلسا في إحدى زواياه بحيث لا يستطيع أي متطفل أن يسمعهما... ظل أول خمس دقائق ملتزمًا صمته شابكًا يديه تحت ذقنه. هي أيضًا لم تتحدث ولو بكلمة وقد بدا عليها الإرهاق، أتى النادل ليأخذ طلباتهما فأشارت له أنهما سيطلبان بعد قليل وأعطته هاتفها تستأذنه أن يضعه في الشاحن قليلًا، بالكاد استطاع النادل إدراك ما تقوله له وعيناه متسمّرتان بانضمامة نهديها لثوانٍ قبل أن يرحل مجبرًا متحسرًا. لوّحت سمر لحسام بكفها أمام عينيه فانتبه لها نصف انتباهة.

- هل أنت صنم؟ هل هذا هو رد فعلك وأنت جالس أمام أجمل بنت في مصر؟ ألم تر النادل كيف بدا أمامي؟! اعتدل واجلس مثل الناس يا حسام، حتى لا أشعر بالحرج أمامهم.

لم يتحدث بكلمة، فآثرت سمر الصمت ولوّحت بيدها إلى النادل الذي أقبل عليها أسرع من الصاروخ، طلبت عصير تفاح بالقرفة بينما أشار له حسام

بإبهامه وسبابته فاستنبط النادل أنه يريد قهوة. فكتب ما طلباه ورحل قبل أن يعتدل حسام في جلسته ويتحدث إليها:

- هل تعجبك حياتك هذه المغموسة في الشهوات يا سمر؟

- وما الذي فيها لا يعجبني؟! بالعكس فهي تعجبني جدًا

- لكنها لا تعجبني أنا...!

نهضت وأشارت له بسبابتها: - ومن أنت كي تخبرني أنها تعجبك أو لا يا حسام؟ إن كنت تريد أن تخبرني أنني أزعجتك بالأمس أو أزعجت الهانم زوجتك فأعتذر لكما... لن تتكرر ثانية...!

أمسك بسبابتها بقوة وأخفض يديها بانفعال كي تجلس مرة أخرى...: - أنا أخوكي.. وأكثر شخص في هذه الدنيا يخاف عليك، أنتي لا تعلمين ماذا كان شعوري حين علمت بما حدث لكِ. وحين رأيتك داخل القسم.

- حسام... لا تخف عليَّ، لست أنا الشخص الذي يخاف عليه أحد، بل أنت هو الشخص الذي من الأولى أن يخاف على نفسه...!

أطرق رأسه.. فأردفت: - لا تخف عليَّ يا حسام، فأنا بنت بمائة رجل...

رفع رأسه وهو يسألها مندهشًا: - بنت؟!!

- وهل غشاء البكارة هو الإثبات القوي لشرفي وأخلاقي؟! وهل ما حدث منذ أكثر من عشرين عامًا كان لي دخل فيه؟! أجبني

أطرق رأسه مرة أخرى، فكررت سؤالها له بحدة أكبر:

- أجبني... هل لي دخل فيما حدث؟ هل لو كان غشاء بكارتي سليمًا حتى الآن لكان هذا دليلًا على شرفي؟ بالطبع... نعم. حتى لو كنت أذهب كل يوم إلى شقة دعارة. كنت سأتزوج بالمناسبة، كنت سأتزوج من رجل لا يعرف عني شيئًا وكان سيصدقني إن أخبرته أنه أول رجل يلمس جسدي.. وكان نفس الشيء إن أجريت عملية ترقيع، فلن يعرف أحد وسأتزوج من رجل سيعتبرني أشرف بنت في الوجود، فأنتم هكذا، تحبون التي تخدعكم وتخفي عنكم الحقيقة. ولكن الحقيقة المؤلمة هي أن كل فتاة منا لها ماضيها، مثل القمر تمامًا، لها وجه آخر لن يعرفه أحدُ سواها. سر لن يعرفه أحد غيرها.

- لا تعممي يا سمر، لديكِ أماني زوجتي مثلًا، فأنت تعرفينها جيدًا، وتعرفين أنها ليس لها ماض. وأعتبرها أشرف بنت في الوجود و...

قاطعه رنين هاتفه الموضوع أمامه مقلوبًا على وجهه، لكنه أدرك أن المتصل إيمان عزمي، لأنه خصص لها نغمة. أجاب:

- ألو.. حبيبتي، لقد افتقدك كثيرًا، متى رجعت من السفر؟

- أنا لم أبرح غرفتي يا حسام، وقد كذبت عليك أمس بشأن سفري.

- لماذا؟

- حسام، أرجوك دعني أخبرك بكل ما أريد إخبارك به دفعة واحدة، لأنه صعب جدًا عليَّ وقد تدربت كثيرًا طوال اليومين الماضيين كي أقوله لك.

- ماذا يا حبيبتي؟ لقد أقلقتيني!!

انقلبت ملامحه وتبدلت وقد لاحظت سمر ذلك وشعرت أن هذه المكالمة ستثبت ما قالته له منذ قليل، حاول أن ينهض كي يحفظ ماء وجهه أمامها إن سمع كلامًا لا يعجبه فأرغمته على الجلوس، استطردت إيمان:

- أنت تعرف بالطبع سراج عبد الملك

- سراج سراج، وهل يوجد في حياتي عدو أكبر منه، ماذا به؟

- لقد ارتبطت به منذ أسبوع، وأخبرني أنه يحبني ويريد مقابلة أهلي، فطلبت منه أن يعطيني مُهلة لأفكر، وبالفعل فكرت ووجدت أنني موافقة عليه. لذلك فأرجوك لا تغضب مني، فهذا أفضل لي ولك...

- كيف اخترتيه؟ وعلى أي أساس؟! وهل ضاقت بكِ الدنيا وتركت كل رجال الكون لتختاري أكثر شخص أكرهه في حياتي؟!

- أرجوك يا حسام لا تصعّب عليَّ الموضوع، وحافظ على ما تبقى من علاقتنا لتتحول إلى صداقة.

- صداقة؟ بهذه السهولة...! أنت تعرفين جيدًا ماذا تكونين بالنسبة لي؟! أنت طعنتيني في ظهري يا إيمان... سراج؟!! ألم تجدي غير هذا الكلب كي تطعنيني من خلاله؟!

- أرجوك لا تشتمه يا حسام.. وحاول أن تحافظ على أن تكون علاقتنا....

قاطعها: - أقسم لكِ أنني سأقتلك وأقتله هذا الكلب.. أقسم لك أنني لن أترككما تعيشان على جرح قلبي هكذا...

قاطعته أخته وخطفت منه الهاتف لتغلق المكالمة في وجهها: - ما الذي قلته لها أيها الغبي؟! أنت بذلك تثبت لها أنك ضعيف... ليس هكذا تدار الأمور..

- لا تتحدثين بكلمة واحدة، كلكن خائنات، كلكن..

قاطعته ضاحكة: - ألم أخبرك منذ قليل؟! نصيحة من أختك يا حسام، افعل مثلي.. لا توقف حياتك على أحد... استقبل خبر ارتباطهما بوجهٍ بارد، وإن أردت التألم فافعل ذلك بمفردك ولا تجعلها ترى ذلك، فأنت إنسان أولًا وأخيرًا، أعلم أنك أحببتها. ولكن ضعفك هذا لن يثنيها عما انتوت فعله... فمكالمتها هذه دليل قاطع على أنها فكرت وقررت، ولقد انتهى الأمر الذي فيه تستفتيان...

قالتها وهي تضحك وتمسك بعصير التفاح لترتشف منه رشفة قبل أن تخرج سيجارة من حقيبتها لتشعلها وتعطيها له، فلوح لها بيديه أنه لا يدخن، فوضعتها بين شفتيها مُردِفة:

- لا أنكر أن علاقتنا ليست قوية بما فيه الكفاية، وخصوصًا بعد الذي حدث حينما كنا أطفالًا، ولكن لا أنكر أنني أعتبرك أخي الأصغر وليس العكس. بل ابني. لذلك أخبرتك بما أخبرتك به، وأريدك أن تكون أقوى من ذلك، انهض وتحل بغريزة البقاء. واثبت لها أنك أفضل منها ومن هذا الذي يدعى سراج...!

لم يتفوه بكلمة وقد انقلبت ملامحه، فارتشفت رشفة أخرى من عصير التفاح وأطفأت سيجارتها قبل انتهائها ثم أشارت للنادل كي يحضر لها هاتفها والشيك، ثم دفعت قيمته ورحلت..

رحل هو الآخر بعدما انتهى من قهوته قاصدًا البيت، فوجد زوجته تقلّم أظافرها وقد لاحظت ملامحه المضطربة، سألته عمّا به فلم يجبها ودخل غرفة الأطفال مُنكِسًا رأسه، مهمومًا... يمر أمام ناظريه كل ما حدث بينه وبين إيمان. وتتردد في مسامعه كل كلمة قالتها له... أغلق على نفسه باب الغرفة من الداخل ليبدأ عزلته، حزنه.. واكتئابه...!

كان ذلك حين وصلت سمر إلى بيتها، لم تكد تلقي بجسدها على السرير حتى اتصل بها شريف، لم ترد عليه فأعاد الاتصال مرة أخرى فأجابته بحزم:
- ماذا تريد يا شريف؟!

طلب مقابلتها، رفضت، ألح عليها، أصرت على رفضها، فألح عليها أكثر حتى وافقت في النهاية على مقابلته بعدما تأخذ حمامًا لتزيل الأوساخ التي علقت بجسدها في هذه الليلة الغبراء التي قضتها داخل القسم...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن إضاءة اللمبة البائسة - المُعلّقة في السقف المتآكل - قوية بما يكفي لرؤية التفاصيل الدقيقة لهذه الشقة ذات الجدران المتهالكة المُعلّق عليها صورًا كثيرة لمريم العذراء والمسيح بأوضاعٍ مُتعددة، علاوة على

سجادة كبيرة مُعلّقة على طول أحد الجدران مرسوم عليها ما يبدو أنه القديس متَّى الرسول، والتي لم تخفِ قشور الطلاء بالأعلى أو الرطوبة بالأسفل، بلاط اسمنتيّ وطأه أربعة أجيال متتالية، وأثاث صُنِع في سبعينات القرن الماضي، بجوار الباب منضدة تحمل على استحياء تلفاز أبيض وأسود يعلوه تمثال خشبي للمسيح، شارعًا ذراعه ومطأطئًا في استكانة رأسه التي يعلوها تاج شوك ويقطر منها دماؤه الذكية الطاهرة.

شقة ضيّقة؛ ليس بها سوى هذه الصالة، وحمام بداخله حوض صغير جدًا تعلوه مرآة مؤطرة بشريط عجيب الشكل، وقاعدة "بلدي" مسطحة بالأرض. أمام هذا الحمام مطبخ ليس به سوى بوتجاز مُسطّح بثلاثة عيون لا تعمل فيها سوى عين واحدة، يعلوه نمليّة معلّقة على الحائط بها أربعة أطباق أحدها مكسور وقد أعيد لصقه. بينما في الواجهة غرفة النوم، الذي كان الظلام فيها دامِسًا يتخلّله ما تبقى من ضوء اللمبة البائسة بالصالة. يصدر من داخل هذه الغرفة صوت اصطكاك السرير متداخلًا مع صوت أنفاس إسحق اللاهثة، الذي يضاجع زوجته دميانة، مُحاوِلًا إقامة علاقة زوجية كاملة، ناجحة. لكنه كالعادة يفشل، ولم يستطع المحافظة على انتصابه أكثر من دقيقة لينتهي قبل أن تكتفي زوجته أو حتى تندمج معه.

استلقى بعدها على ظهره بجوارها والعرق يقطر على كتفيه وصدره ومازالت أنفاسه تلهث، نهضت وجلست على حافة السرير واضعة رأسها بين يديها لنصف دقيقة قبل أن تدخل الحمام مطرقة، نظرت لنفسها في المرآة متأففة لثوانٍ قبل أن تلطم وجهها بكفيها وتدخل في نوبة بكاءٍ مُحاوِلة ألا تصدر أي صوت يصل إلى مسامع إسحق الذي شعر بنشيجها فنهض ووقف أمامها زامًا شفتيه محاولًا قول أي شيء لكنها قاطعته:

- شششش لا تقل لي شيئًا، لقد أدركت بالفعل أننا سنعيش ونموت هكذا، على هذا الوضع دون أن نستمتع بحياتنا مثل باقي الناس. وقلت لك مئة مرة أن تذهب إلى طبيب ليبحث عن مكمن المشكلة لديك لكنك لا تريد. ومن ناحية أخرى ليس متاحًا اختيار الطلاق.

- لن أذهب إلى طبيب يا دميانة، والأجدر بكِ أن ترضي بما قسمه الرب لكِ ولا تنظري لغيرك. ولا أرى علاقتنا بهذا السوء. لا تسلمي أذنيك لتريزا التي تشيد بفحولة زوجها فهي كاذبة والرب يشهد على كلامي هذا.

خرجت من الحمام إلى غرفة النوم التي باتت تكره الجلوس فيها، جلست على السرير فجاء إسحق وجلس بجوارها قائلًا:

- تريزا كاذبة والمسيح الحي... فقالت له بصوتٍ خافت لا يخلو من حدة:

- ومن أدراك أنها كاذبة؟

- ومن أدراكِ أنت أنها صادقة؟!

- كل مرة نتحدث فيها عن هذا الموضوع تحاول تعليق فشلك على شماعة غيرك... ما المانع أن تذهب إلى طبيب طالما لن يعرف أحد بذلك؟

- نحن هنا في أسيوط... وأصغر صغيرة تنتشر بسرعة في بلدتنا

- فلنذهب إلى القاهرة إذن... فهناك أطباء أمهر، علاوة على أنه لن يعرفنا أحد هناك...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوع...

عاجل/ اليوم السابع

مقتل الكاتب الروائي المشهور سراج عبد الملك في شقته، وأصابع الاتهام تشير إلى الكاتب المغمور حسام الأزهري...

هذا وقد تم إلقاء القبض عليه تمهيدًا للتحقيق معه..

كاد قلبه ينخلع من مكانه حين سمع طرق أفراد الشرطة على الباب، هرع ليفتح، وجد أماني خارج الغرفة ممسكة بالمقبض فأشار لها بيده أن تدخل ليفتح هو... وما إن أدار المقبض حتى انقضوا وأحكموا قبضتهم عليه واقتادوه إلى قسم الشرطة بتهمة قتل الكاتب سراج عبد الملك، وبعد التحريات التي قام بها ضباط المباحث، قد وجدوا أنه كانت هناك عداوة بينهما وتلاسنات على وسائل التواصل الاجتماعي بالإضافة إلى مشاجرتهما الأخيرة في مكتبة الغروب، علاوة على سماع مكالمته التي هدد فيها إيمان بقتله وقتلها حال تركته وارتبطت به.

س: أين كنت ليلة مقتل سراج عبد الملك منذ ثلاثة أيام؟

ج: أقسم لك أنني لم أكن أعرف أنه قتل، وتفاجأت بذلك حين هاجمتموني...

- أجب على الأسئلة دون التفوه بحرف إضافي... أين كنت ليلة مقتل الكاتب سراج عبد الملك منذ ثلاثة أيام ما بين الساعة الخامسة والسابعة مساء؟

- كنت في البيت، لم أخرج منه بعد مكالمة إيمان التي أخبرتني فيها أنها... أنها.. - شرد قليلًا حين تذكر فحوى المكالمة التي كانت بينهما -.. إنها... أرتبطت... ارتبطت به.

- عظيم... هذا الكلام عظيم، وماذا قلت لها حينئذٍ؟

أجاب بنفس الشرود محاولًا تذكر ما قاله... فاتسعت عيناه حين تردد في مسامعه التهديد الذي هدده لها... أجاب متلعثمًا وبعينين زائغتين: - لم أقل شيئًا... كان مجرد انفعال ليس أكثر.. قالها وأطرق رأسه وضمها بيديه: - لم أقل لها شيئًا صدقني.

- كيف تكتب كتبًا بها حكم ومواعظ وتكذب هكذا؟! كيف تكون أحد خريجي الأزهر وموظفًا عاملًا بوزارة الأوقاف وتكذب؟! قالها له المحقق وهو يشير إلى مساعده ليعيد تشغيل المكالمة التي قدمتها لهم إيمان.

أقسم لكِ أنني سأقتلك وأقتله هذا الكلب.. أقسم لك أنني لن أترككما تعيشان على جرح قلبي

سأله حسام صارخًا: - ولماذا سجلت إيمان هذه المكالمة، ألم تعتبروا أن ذلك دليل على أنها قد تكون هي من قتلته لأي سبب، مستغلة هذه المكالمة التي سجلتها لي لتتربص بما سأقوله؟

- وهل كانت تعلم أنك ستقول هذا الكلام؟! ثم إن معظم الفتيات اليوم يستخدمن برامج تسجيل المكالمات لألف سبب، وأيًا كان، فليس هذا دليل وحيد على قتلك سراج، فبعدما أجرينا بعض التحريات وجدنا أنه بينكما عداوة كبيرة، وقد هددته في إحدى المرات بأنك لن تتركه يعيش هانئًا، هذا غير كلامك الذي كنت تكتبه عنه كثيرًا على الفيس بوك...! وأخيرًا أقام علاقة مع فتاة تركتك بسببه... فالموضوع لا يحتاج لشرح، قتل بدافع العاطفة. علاوة على أنك لا تمتلك حجة غياب قوية.

أطرق رأسه مرة أخرى فكرر عليه المحقق سؤاله: - أين كنت وقت الحادث؟

- أخبرتك بالحقيقة، كنت في المنزل منعزل تمامًا عن كل شيء، وبطبيعة الحال ليس لديَّ دليل على ذلك سوى زوجتي، لقد نسيت أن أصور نفسي وأنشر الصورة على الفيس بوك كي يتأكد لكم ذلك. وبالنسبة للمكالمة فهذا شيء طبيعي لشخص قالت له حبيبته أنها ستتركه.

أقفل المحضر في ساعته وتاريخه...

- هل من حقي أن أوكل محامي لي؟

- من حقك فعل أي شيء... قالها المحقق ونادى على العسكري ليأخذه ويودعه في الحجز... كانت أماني جالسة أمام غرفة التحقيقات تبكي وقد امتقع وجهها وشحب، ما إن رأت حسام يخرج منها مقيدًا مع العسكري حتى نهضت وحاولت معانقته لكن العسكري سحبه، فطلب منها أن تتصل بسمر...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ شريف مُتكاسِلًا يتحسس علبة سجائره على الكومود بجواره، أشعل سيجارة قبل أن يدخل الحمام ليأخذ دشًا، بينما نهضت سمر من السرير عارية، قاصدة الصالة لتبحث عن مناديل ورقية وجهاز تحكم التلفاز وتعود مرة أخرى إلى غرفة النوم مُلتقِطة في طريقها علبة سجائرها وولاعتها والمطفأة من فوق المنضدة. أشعلت سيجارة واستلقت مرة أخرى على السرير...!

طوال هذا الأسبوع أعرب لها عن حبه الشديد لها، وولعه بها. في البداية لم تكن تصدقه، لكنه أثبت لها ذلك بكل الطرق. وأخبرها أنه يريد أن ينتشلها مما هي فيه، ويتزوجها غير مُكترث بماضيها. ليبدءا مستقبلهما دون النظر إلى ذلك الماضي. مسَّ قلبها بعض الشيء وطلبت منه تأجيل الزواج، على الأقل حتى يخرج والدها خلال اليومين المقبلين من السجن بعفوٍ صحيّ بعد أن كبر في السن ونالت منه أمراض كثيرة وتدهورت حالته وقد صار رجلًا هشًّا، ضعيفًا. لتودعه في المستشفى حيث يقضي أيامه الأخيرة. فوافق. وظل معها إلى أن خرج والدها وأودعه في إحدى المستشفيات الخاصة بالمهندسين، محاولًا إنقاذ حياته لا ليقضي آخر أيامه. كان هذا التصرف قد قرّبه منها أكثر. وبدأت تشعر نحوه بحبٍ حقيقيّ. فأدخلته حياتها بكافة تفاصيلها.

بعدما انتهت سيجارتها نهضت مرة أخرى وقد شعرت بالملل فأخذت تعبث في درج الكومود بحثًا عن شاحن لهاتفها، فوجدت زجاجة عطر فرنسي، سيجار كوبيّ أصلي، علبة سجائر فضيّة، كيسًا صغيرًا يحتوي على مسحوق أبيض اللون وهاتف آيفون، والذي بمجرد أن وقعت عيناها عليه توقدت التماعًا، أخذت السيجار وعلبة السجائر الفضيّة ووضعتها فوق الكومود تمهيدًا لأخذها ثم أمسكت الهاتف وأخذت تقلّبه في كفها فانتفضت فجأة حين وضع يديه على كتفيها ومال عليها ليطبع قبلة على شامة ساحرة مرسومة بدقة على ظهرها الأبيض الشمعيّ المشوب بنمشٍ مثير، وجدها ممسكة هاتفه الآيفون فخطفه من يدها:

- ألم يكفيكِ السيجار الكوبي الذي يباع الآن بستمائة جنيه، والعلبة الفضية اليونانية التي يتراوح سعرها بين ألفين وثلاثة آلاف جنيه؟! وتفكرين في هذا الهاتف أيضًا؟! ألم تعلمي كم سعره هذا؟

- كم سعره؟ وإن افترضنا أنه بمليون جنيه. خسارة فيَّ؟! خسارة في سمر شعيب؟!

أجابها ضاحكًا وهو يجلس بجوارها: - لا، ليس خسارة ولكنه بسبعة عشر ألف جنيه، وقد أهدتنيه أمي في عيد ميلادي..

اتسعت عيناها من هول المفاجأة: - وهل يوجد أم تهدي ابنها هاتفًا بهذا المبلغ؟ هل يمكنني استعارة أمك لشهر واحد؟

- هاهاها إنها ستكون حماتك يا حبيبتي، ومثل أمك بالضبط.. وأنا متأكد أنها ستحبك.

- أتمنى...

- لديَّ سؤال يحيرني يا سمر... لماذا لم يأت معنا حسام حين أخرجنا والدك من السجن؟ ولماذا لا تعيشون كلكم في بيتٍ واحد؟

صمتت لثوانٍ مُحاولة إيجاد إجابة تختصر ما حدث في عشرين عامًا فلم تجد. كان هذا حين رن هاتفها، أجابت:

- آلو، ماذا بكِ يا أماني؟ كيف حدث ذلك؟ قسم شرطة قصر النيل؟ حسنًا حسنًا سآتي حالًا...

- ما هذا؟ ومن الذي في قسم شرطة قصر النيل؟ سألها شريف بقلقٍ اكتسى وجهه فجأة، فأجابته سمر وهي تلتقط ملابسها وترتديها في عجالة:

- أخي مقبوض عليه، أخبرتني زوجته أنه متهم بجريمة قتل، سأذهب لأعرف كل التفاصيل وأوكل له محامي...

- انتظري، سآتي معك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طريقهما اتصل شريف بأحد المحاميين الذين يتعاملون معه فأخبره أنه سيلحق بهم في قسم الشرطة حيث وصلا بعد نصف ساعة، طلب المحامي الإطلاع على المحضر وسماع المكالمة والشهود ومقابلة موكله حسام الأزهري، والذي بدا عليه الإرهاق الشديد وشحب وجهه وكان جبينه يقطر عرقًا. بمجرد أن رأته سمر هكذا أقبلت عليه وأخذته في حضنها: - أخي.. أخي حبيبي.. أخي.. أخذ يبكي ويئن وهو يقسم أنه لم يقتل أحدًا...

طلب منه المحامي أن يهدأ ويحكي له كل شيء خاص بهذه القضية حتى يستطيع العمل عليها، لكن المحامي بعدما سمع منه كل شيء. سأله:

- حسام، أرجوك ركز معي... نظر يمينه ويساره ليتأكد أن المحقق ليس معهم في الغرفة وأنه غادرها منذ قليل. ثم سأله: - هل أنت قتلته بالفعل كما يقولون؟

- لا لا أقسم بالله لم أفعل ذلك، أنا لا أستطيع قتل ذبابة.... قالها بصوتٍ عال.

- اخفض صوتك أرجوك كي أستطيع التفكير معك، أخبرني إذن، هل رآك أحد من الجيران طوال الفترة الماضية، أو ذهبت إلى بنك أو سوبر ماركت لتشتري شيئًا أو..

قاطعه منتحبًا: - لا للأسف لم يرني أحد قط سوى زوجتي وقد قالت هذا في أقوالها، لم أخرج من البيت... حين اتصلت بي تلك العاهرة إيمان وأخبرتني أنها سترتبط بسراج كدت أجن من هول الصدمة، كانت أختي معي في هذه اللحظة ورأت كيف كان حالي وقتئذٍ... بعدما تركتها ذهبت مباشرة إلى بيتي لم أفعل شيئًا سوى الأكل والنوم داخل غرفتي، ظللت بداخلها لم أبرحها إلى أن جاءتني الشرطة وقبضوا عليَّ...

ازدرد المحامي لعابه وهو يهز رأسه يفكر في إيجاد ثغرة، ثم وضع يده على كتفه محاولًا تهدأة ارتجافة جسده وأخبره يائسًا ألا يخاف وأنه سوف يبذل قصارى جهده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما خرجت سمر مع المحامي من قسم الشرطة، كان ينتظرهما في سيارته بالخارج شريف، الذي سأل المحامي عن إمكانية خروج أخيها وملابسات القضية وما فهمه من الإطلاع على المحضر، فأخبره المحامي مثلما أخبر حسام منذ قليل أنه سوف يبذل قصارى جهده. ثم استأذنهما ورحل. وبينما كان شريف يقود السيارة حانت التفاتة منه إلى سمر الجالسة بجواره، فوجدها مُستسلِمة تمامًا ورافِعة رأسها لأعلى مغمضة العينين، وقد بدا على وجهها إرهاق شديد.

- أعلم أن الأمر صعب عليكِ جدًا يا حبيبتي..

لم تتفوه بكلمة... كل ما فعلته هي أنها هزت رأسها في أسى، مُطلِقة ضحكة قصيرة وأشاحت بوجهها لتنظر إلى الخارج عبر نافذة السيارة. سحب زرًا أسفل كرسيها فهبط لتمدد جسدها وتريحه إلى أن يصلا إلى البيت. لم يكد يغلق باب الشقة حين وصل، حتى دخلت غرفة النوم وغرقت في نومها ثلاث ساعات، وكان بجوارها يلف سجائر، إلى أن رن جرس الباب فانتفضت مذعورة فجأة، فضحك شريف قائلًا لها: - لماذا انتفضتِ هكذا يا حبيبتي، من المؤكد أنه عامل التوصيل، لأنني طلبت غداء لنا من أحد المطاعم القريبة... حاولت أن تنام مرة أخرى لكنها سمعت صوتًا أنثويًا بعدما فتح شريف الباب، خرجت بسرعة ووقفت وراء أحد الأعمدة محاولة استراق النظر إلى هذه

الفتاة وسماع ما يدور بينهما. لم تسمع شيئًا في البداية لأنهما كانا يتهامسان، إلى أن نهضت تلك الفتاة وهي ممسكة برزمتين من المال.

- ما هذا يا شريف؟! إلى متى ستعطيني عشرين ألفًا في كل مرة؟! ماذا بك؟ ألست وعدتني الشهر الماضي أنك ستزودهم قليلًا ليصبحوا خمسة وعشرين وربما ثلاثين ألفًا؟!

نهض هو الآخر قائلًا لها بنبرة أعلى: - ثلاثون ألفًا لماذا؟! هل أنتِ رائدة فضاء وأنا لا أعلم؟! ماذا تفعلين سوى الذهاب إلى السحر والجمال مُعزّزة مُكرّمة... تحصلين على الكمية المطلوبة وتعودين أيضًا مُعزّزة مُكرّمة؟! ماذا بكِ يا هالة...؟ لماذا الطمع يابنت الطماعة؟!

أطرقت الفتاة لهنيهة قبل أن تهز رأسها وتدس المبلغ في جيبها الخلفي وتعتذر له عما بدر منها وهي تقترب منه واضعة ذراعيها على كتفيه فأبعدها عنه برفق:

- هذا ليس وقت أحضان.. أنت تجعلينني أندم أنني أشركتك معي في هذا الموضوع... وإن كنت ستفعلين ذلك في كل مرة أقسم بالله سأذهب أنا بمفردي وأنجز هذا المشوار في ساعتين. وأنا أولى بهذا الفارق. وإن كنت أفعل ذلك معك فلسببٍ واحد فقط، وهو أن أخوكي، الذي هو صديقي.. رحمه الله قد أوصاني عليكِ...

- آسفة يا شريف... لكنني أقسم لك أنني لست طماعة... كل ما في الموضوع أنني...

- لا تتفوهين بأي كلمة من فضلك يا هالة... وأرجوكي غادري الآن لأنني مُتعَب. علاوة على أن زوجتي لن تكون سعيدة لو رأتك هنا.

- هل تزوجت؟! ألف ألف مبرووووك.. أين هي إذن؟! أريد أن أرى ذوقك.

- في المرة القادمة... هيا اذهبي الآن...

ما إن غادرت الفتاة وأغلق الباب مطلقًا زفيرًا حتى وجد سمر أمامه تسأله من هذه الفتاة، فأخبرها أنها أخت صديقه الذي توفي قبل خمس سنوات في حادث سيارة، وتعتاد الذهاب إلى منطقة السحر والجمال لتشتري لهم كمية من الهيروين له ولأصدقائه ومعارفه. كمية تكفيهم شهرًا. فسألته بفضول عن العشرين ألف جنيه التي أعطاها لها، همَّ ليجيبها لكن حال دون ذلك جرس الباب الذي رنَّ مرة أخرى. وكان هذه المرة عامل توصيل المطعم.

أخذ منه الطعام وأعطاه المال ثم جلس واضعًا الطعام بجوار المنضدة التي عليها طبقٌ به ثلاثة أسطر من مسحوق أبيض وبجوارها ورقة فئة مئتي جنيه

ملفوفة بشكلٍ اسطوانيٍّ رفيع كالأنبوب. رفع الطبق بيمينه بينما أمسك بيساره الأنبوبَ مُقرِبًا فوّهته من أنفه ليسحب من خلاله أحد الأسطر دفعة واحدة قبل أن يضع الطبق ببطء وهو رافعًا رأسه ومغمضًا عينيه. سألته سمر عن هذا المسحوق بعدما فتحت علب الطعام وأخذت تأكل في نهم. فأجابها ضاحكًا وهو يستنشق كمية قليلة كانت عالقة تحت أنفه ويشعل بعدها سيجارة نفث دخانها بهدوء:

- لقد استغربت جدًا لأنك حين فتشتِ درج الكومود لفت انتباهك كل شيء... كل شيء إلا هذا الكيس الصغير..

- وما بداخل هذا الكيس إذن...!

- هذا الكيس تذكرة مجانية للعالم الآخر، ليس عالم الأموات كما يروّجون له، بل عالم الأحياء بحق...

- بودرة؟! هيروين؟!

أومأ برأسه تأكيدًا، فأردفت: - ولكني أول مرة أعلم أنك تتعاطاه...! منذ متى وأنت تفعل ذلك؟

- منذ ثلاث سنوات، ولكن هذه المرة الأولى التي أتعاطاها أمامك، بعد أن اقتربنا من بعضنا البعض أكثر، وبعد كل ما عرفتيه عني، ليس أمامي ما يجعلني أخجل منكِ يا حبيبتي، ولا أجد حرجًا في أن أتعاطاه أمامك... الموضوع ليس مخجلًا أصلًا..

بحثت بين العلب عن سلطة «كول سلو» فوجدتها وفتحتها قائلة: - ولكن هذا الطريق أعرف أنه مُظلِم، وسيؤدي بك إلى ما لا يحمد عقباه يا شريف...!

- ومن قال لكِ ذلك؟!

- قد يأتي اليوم الذي لن تجد فيه ثمن هذه التذكرة... فماذا ستفعل حينها؟

- ومن قال لكِ أن مالي سينتهي؟! ومن قال لكِ أنني أشتريه أصلًا؟ أنا أتاجر فيه، ومكسبي منها ليس نقودًا، بل مئة جرام منها تكفيني شهرًا كاملًا... فأنا لا أبحث عن المال كما تعلمين، المهم عندي هو مزاجي فقط لا غير...

- وبكم هذه الكمية إذن؟

- بحوالي عشرة آلاف جنيه.. هذا بالإضافة إلى فارق السعر الذي تربحه هالة، أخت صديقي الذي كانت هنا منذ قليل.

اتسعت عيناها مذهولة مما سمعته.. تمتمت قائلة: - هل هذا الموضوع آمن؟! أقصد... هل الذهاب إلى هذا المكان به مخاطر؟

- نعم بالطبع، ولكن ليس كل من يذهب هناك يلقى هذه المخاطر. فالمال هنا هو المتحكم في كل شيء... طالما ذهبت ومعي المال الكافي لأشتري شيئًا معينًا. سأحصل عليه وأغادر ببساطة. دون أي مخاطر. ولكن لماذا تسألين؟!

- لأنني أفكر في أن أفعل ذلك بدلًا من صديقتك العاهرة تلك. ألم تقل لي أن الموضوع مربح؟

- نعم مربح، ولكنك مجنونة... لديك آلاف الطرق لكسب المال... لماذا هذا الطريق بالذات؟

- لأنه كما يبدو أمامي مربح جدًا، علاوة على أنني أولى من تلك العاهرة.

استنشق سطرًا آخر ونهض مترنحًا ليدخل غرفة النوم ملوّحًا لها بيده قائلًا بلسانٍ ثقيل: - أنت مجنونة أقسم بالله. لن أدعك تفعلين ذلك...

كاد يتعثر حين اصطدمت قدمه بالمنضدة فلحقته لتسنده حتى دخل غرفة النوم ومدّد جسده فاستلقت بجانبه وأخذت تُقلِّب الأمر في رأسها وتتأمله لنصف ساعة تقريبًا ثم نهضت وفتحت الثلاجة بحثًا عن عبوة بيرة فلم تجد. علّقت عينيها على الطبق المتبقي فيه آخر سطر من الهيروين اقتربت بأنفها من الطبق مُحاوِلة التقاط أي رائحة لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة. وقفت عند النافذة وأزاحت الستارة لتشاهد النيل قليلًا قبل أن يلح عليها جسدها إلحاحًا، طلبًا لأي نيكوتين لتكتشف أن سجائرهما أيضًا قد نفدت.

- ما هذه الليلة السوداء؟!

قالت في قرارة نفسها قبل أن تأخذ القرار مُلتقِطة مفتاح الشقة وكتبت ورقة لشريف أنها ستنزل لتشتري بعض الأشياء وستعود بعد ساعة...

سائرة أم مُسيّرة.. لا فارق.. هي نفسها لا تعلم...! ظلت تسير مسلوبة الإرادة، أو مسلوبة الروح. حتى وصلت إلى أحد الأكشاك، ابتاعت علبتي سجائر ووقفت على كورنيش النيل بجوار شجرة لتشعل سيجارة وهي تنظر إلى تلك الشجرة العتيقة وارفة الظل، والتي تضرب بجذورها أعماق الأرض. فكرت في نفسها وفي حياتها وما لاقته وعاينته طيلة هذه الحياة. مشاهد عديدة مرَّت أمام ناظريها، بحثت بينها عن مشهدٍ واحدٍ كانت فيه سعيدة فلم تجد. اجتاحها الحزن والجزع كجلد سوط... أين جذوري؟! لماذا وُجِدتّ في هذه الدنيا هكذا بلا جذور؟ تساءلت في قرارة نفسها فلم تجد إجابة! لم ترَ أمها قط، إلا من خلال صورة واحدة، كانت بمفردها في تلك الصورة تبتسم ابتسامة شعرت أنها حقيقية. تُرى، لو لم تمت أثناء ولادتها وكانت حيّة الآن ماذا كانت لتقول لها حين تراها على هذه الحال؟! شعرت في تلك اللحظة

أنها في أمسّ الحاجة لها لتلقي بنفسها داخل حضنها مثل باقي الفتيات اللائي يرتمين في أحضان أمهاتهن حين تلقي بهن أمواج الحياة المتلاطمة إلى جزرٍ بعيدةٍ قصيّةٍ نائية. حتى والدها لم تنعم به وبوجوده، لم تره سوى مرة كل بضعة أشهر في السجن ليقول لها كلامًا هراء لا يمت للواقع بصلة فتتركه وترحل بعد أن تنظر له بشفقة. لطالما احتاجته أيضًا، لتلقي نفسها بين ذراعيه فتشعر بالأمان. ليقف في وجه كل من ظلموها شارعًا ذراعيه على امتدادهما ويصيح قائلًا: ها أنا ذا والدها يا أولاد الكلب، ومن يريد أن يلقى حتفه فليرني نفسه ويخبرني أنه يفكر، مجرد التفكير في إيذائها...!

بلا أين أو كيف أو متى أو حتى لماذا...! عاشت حياتها هكذا، لا أحد يسألها أين كنتِ طوال اليوم؟ أو كيف فعلتِ ذلك دون إخباري يا سمر؟ أو متى ستعودين يا ابنتي فالوقت متأخر؟ أو لماذا لم تخبريني أولًا يا بنت؟... مرّت أمام عينيها حياتها فوجدتها بائسة، خالية من أي شخص يخاف عليها، خالية من علامات الاستفهام، لتحل محلها كل علامات التعجب...!

انقض عليها الإحباط فجأة، وبينما هي واقفة، مُتأرجحة على شفا حفرة من الجحيم، شعرت أن هذا الإحباط يدفعها بقوة لتسقط في لجّة هاوية سحيقة لا قرار لها. استحضرت حينها كل آلامها المتراكمة، الراكدة بداخلها، حتى رأتها تطفو فوق بحيرة روحها. بكت.. بكت بحرقة حتى احمرّت عيناها من البكاء واحتقنت بحزنٍ عظيم كظيم، استسلمت لهذا البكاء تمامًا وتركت نفسها له، حتى انزاح بعض الثقل عن روحها تدريجيًا. فأكثر شيء مؤلم قد ينتاب المرء، أكثر من الآلام نفسها. هو كبح جماح تلك الآلام داخل الصدور، وإخفاؤها لتركد في أعماق النفس. نظن حينها – بسذاجة – أنها اختفت، لكن ما لا نعلمه، هو أن الآلام لا تموت بالتقادم. ولن نستطيع التخلص منها إلا بمواجهتها، قبل أن نُطلِق لها العنان لتغادر بلا رجعة.

بعدما انتهت من البكاء شعرتْ أنها تحتاج لاحتساء أي شراب يحتوي على كحول، فاستقلت تاكسي قاصدة أقرب محل لبيع الخمور. وحين انطلق بها التاكسي استأنفت التفكير في والدها الذي يقضي الآن أيامه الأخيرة. هاتفها صوت بداخلها يحثها على الذهاب إليه لتملي عينيها منه، وتضع رأسها على صدره للمرة الأولى منذ عشرين عامًا. عشرون عامًا قضتها بين رحايا الدنيا لتُطحَن فيها حتى صارت هي... ليست هي...!

وصل بها التاكسي إلى مستشفى السلام الدولي بالمهندسين، وصعدت إلى الطابق الرابع. قابلتها إحدى الممرضات بوجهٍ بشوش عند باب الغرفة، وبشرّتها أن أعضاءه بدأت تستجيب للعلاج، وأنهم بدءوا يصلحون ما أفسده مستشفى السجن. كان ذلك حين حضر الطبيب المعالج والمتابع له، فأخبرها أنهم أجروا له اليوم جلسة غسيل كلى، أخذ بعدها مُضادًا حيويًا فانتظمت

ضربات القلب وبدأت وظائف الكلى تتحسن نوعًا ما. وأخبرها أيضًا أنه تحدّث اليوم قليلًا لإحدى الممرضات وهي تطعمه.

فرحت سمر لذلك فرحًا شديدًا وقد تورّدت وجنتاها وهي تسأله هل يمكنها أن تدخل له وتجلس بجواره في هدوء. فأومأ لها برأسه موافقًا، شريطة ألا تمكث أكثر من ربع ساعة... شكرته على ذلك ودخلت لوالدها الذي بدا عليه التحسن في صحته نوعًا ما. رغم الأنبوب الرفيع الذي يخرج من تحت صدغه الأيسر موصلًا بأحد العروق داخل رقبته، مُمددًا جسده وبجواره يد مُرتخية تسير فيها عروق زرقاء انتهكتها وخزات الإبر والكانيولات حتى أصبحت ممتقعة لا تصلح لسحب الدم عبرها. ولا تصلح لجلسات غسيل الكلى، فلجأ الجراحون إلى استخدام عرق أقوى، ألا وهو عرق الرقبة. ليتم من خلاله التوصيل بجهاز غسيل الكلى. جسده الذي كان صلبًا في الماضي خارت قواه الآن، شفتين زرقاوين في وجهٍ وقع فريسة لويلات الزمن الذي حاربه في السجن وهاجمه بكل أسلحته ليترك آثار هذه الحرب عليه في هيئة تجاعيد أضافت إلى عمره... أعمارًا.

لم تستطع امتلاك نفسها فألقت رأسها على صدره بحنانٍ ورفقٍ ليصل إلى أذنها نداء قلبٍ ينبض على استحياء. يترجم ذلك النبض صوت جهاز العلامات الحيوية بجانبه، والذي يعطى صوتًا مخيفًا كل ثانية. صوتًا يوحي للبعض أنه قد يصدر صفيرًا في أي وقت حين يستوي الخط الذي كان متعرجًا طيلة الوقت، معلنًا عن الفراق... الغياب.

أمسكت يده من رسغه وقبّلتها، هاجمت أنفها رائحة مخدر مختلطة برائحة الأدوية والكحول...إلخ. للمستشفيات رائحة مُعيّنة، حين تدخل الأنف تظل مُختزِنة طيلة العمر إلى أن تصحو مرة أخرى عند أول زيارة تالية لأيّ مستشفى آخر، حتى لو بعد مائة عام...! جلست بجواره هكذا لمدة خمس دقائق حتى رنَّ هاتفها الذي نسيت أن تضبطه على الوضع الصامت. قلق والدها وفتح عينيه حينئذٍ، كان المتصل شريف الذي شعر بالقلق عليها لأنه استيقظ وقرأ الورقة التي كتبتها له ولم تعد حتى الآن. فابتعدت عن والدها لترد عليه بصوتٍ خافت وتخبره أنها عند والدها وستعود بعد نصف ساعة. ثم أغلقت المكالمة ولم تزل مُعلّقة عينيها على والدها الذي استفاق أخيرًا ونظر إليها رافعًا يده المرتعشة. فأقبلت عليه مُمسكة إياها قبل أن تسقُط. حرّك شفتيه اللاتين أوشكتا على الالتصاق فأمسكت منديلًا مبللًا لتمسح السائل الأبيض على جانبيها. كان ذلك حين لمحتها الممرضة من الخارج عبر زجاج الغرفة ودخلت لتغيّر المحلول وأعطتها كوبًا أفرغت فيه علبة عصير وملعقة صغيرة:

- خذي قليلًا من العصير بالملعقة وضعيها برفقٍ داخل فمه، هل ستستطيعين فعل ذلك أم أرسل لكِ زميلتي؟

- لالالا... سأفعل أنا.. تفضلي أنتِ.

- حسنًا... قالتها الممرضة ومازالت واقفة تنظر إليها مليًا بعينين مشدوهتين فشعرت سمر أنها تريد أن تسألها عن شيء، هزت لها رأسها مُستفسرة، فاستطردت الممرضة: - آسفة، كنت أود أن أعرف أين صبغتي شعرك ليبدو لونه بهذا الجمال؟! وما اسم هذا اللون؟!

افترّت عن ثغرها ابتسامة من جانب فمها وأجابتها أنه طبيعي، لكنها رشحت لها مركز تجميل محترف. فشكرتها الممرضة وأخبرتها إن احتاجت إلى أي شيء تضغط على الزر البرتقالي. فهزت سمر رأسها وأمسكت علبة العصير وأخذت قليلًا منه بالملعقة ووضعته داخل فمه برفق، فعلت ذلك عدة مراتٍ إلى أن زمَّ شفتيه أمام الملعقة الأخيرة وأشار لها بإصبعه أن كفى، مُحاولًا تحريك شفتيه ليتحدث معها، وكان أول شيء يقوله لها:

- الخريطة التي طالما وعدتك أنني سأعطيها لكي يا حبيبتي... ستجدينها في...

- يا أبي.. يا أبي يا حبيبي.. نحن تحدثنا في هذا الأمر عدة مرات من قبل.. وقد أخبرتك أنني لا أصدق تلك الأساطير. ولا أريد تصديقها... ولا أريد تعشيم نفسي بأشياءٍ واهية غير حقيقية. زمَّ شفتيه في حزن وأشاح بوجهه الناحية الأخرى، فاستدارت له من خلف السرير لتكون أمامه، أردفت: - أنا لا أشك في كلامك يا حبيبي، ولكنني لن أعطيه نسبة تصديق أكثر من خمسة بالمائة.

- بل.. بل... بل مئة بالمئة... قالها بصوتٍ مُنهَك. صمت قليلًا ثم أردف...: هذه الخريطة هي ما دفعت عمري كله مقابلها.

- وتريد أن أدفع عمري أنا أيضًا؟!... ماذا جنينا من هذا؟ ما الذي سنستفيده من ذلك؟ ومن أخبرك أن هذه الخريطة صادقة وأن بالفعل تحت هذا المبنى يوجد صندوق يحتوي على كنز؟!

- حتى لو كان الأمر كذلك... فيكفينا شرف المحاولة

- ومن سيساعدني في ذلك...؟ هل تعرف ما معنى الحفر تحت أملاك الدولة في أهم مكان بالإسكندرية. من رابع المستحيلات أن أفعل ذلك وحدي... ومن هذا الذي أستطيع الاعتماد عليه في ذلك واستأمنه... معذور.. أنت كنت داخل السجن طوال هذه المدة ولا تعرف أن كل الناس خارجه أصبحوا شياطين أولاد ستين كلب. ولا يمكن الوثوق في أيٍّ منهم!

- لا... فهناك شخصان يمكنك الوثوق بهما.. يمكنهما مساعدتك في ذلك بكل إخلاص... قالها وهو يسعل سعلات متتالية حتى احمرّ وجهه وبدا كأن روحه ستخرج، فأخذت قليلًا من العصير ووضعته داخل فمه وأمسكت يده بيمينها ورفعته من ظهره بيسارها وأخذت تربت برفقٍ على ظهره حتى هدأ قليلًا، دخلت الممرضة لتسألها ماذا حدث؟ فأخبرتها سمر أن لا شيء. فانصرفت بعد أن ألقت نظرة إلى شاشة المعلومات الحيوية وأشارت لسمر بعينيها إلى ساعة الحائط. وأنها يجب أن ترحل. فطلبت منها سمر أن تجلس دقيقتين أخريين وسترحل بعدها. فأومأت لها الممرضة مُبتسمة وأغلقت الباب.

اقتربت سمر من والدها وسألته بصوتٍ خافت: - من هذين الشخصين الذين يمكنني الوثوق بهما يا أبي؟!

- الأول هو حسام... أخو..

قاطعته ضاحكة: - شكرًا جزيلًا على هذه النصيحة، فحسام سُجِن في قضية قتل. من الثاني؟!

لم يجبها، تلاقت عيناها بعينيه لثوانٍ استدعت فيها ذاكرتها التي أعادتها حوالي عشرون عامًا للوراء. تجسد المشهد أمامها كأنه حدث بالأمس. رغم أنها كانت حينئذٍ لم تكمل ثماني سنوات. لكن تفاصيل هذا اليوم كانت محفورة في ذاكرتها. سألته مغمغمة:

- لا تقل لي أنك تعرف مكان أخوه التوأم... أخوه الذي...

سكتت لهنيهة ثم أردفت.. هل تعرف مكان حسن يا أبي؟!

- لا... لم أقصد حسن... فأنا لم أره منذ تلك الليلة. ولم أعرف عنه شيئًا.

- وما الذي تقصده إذن؟! سألته وهي تشعر بأن جسدها تخدر فجلست بجواره على حافة السرير مُترقِبة كل حرف يقوله، شعر حينها بأن حلقه قد جفّ تمامًا وأخذ يحرك لسانه لترطيب فمه، فأمسكت كوب العصير ووضعت ملعقتين منه في فمه حتى أصبح رطبًا وأجابها:

- يوجد أخ ثالث توأم لهما... في أسيوط. مع عائلة مسيحية لشخص يدعى جرجس سرجيوس. ولا تسأليني كيف وصل إلى هناك.

- حسنًا لن أسألك.. ولكن. هل تتوقع أنني إن ذهبت له وأخبرته بكل ذلك سيرحب بي بكل بساطة ويأخذني في حضنه ويقول لي أختي أختي مرحب بك هيا بنا لنستخرج الصندوق؟! أقل شيء سيفعله معي هو تبليغ الشرطة عني...! أو مستشفى الأمراض العقلية.

وقفت في وسط الغرفة مُنتصبة وهي تشبك يديها خلف رأسها وتنظر لأعلى، تفكر في هذه الورطة التي أدخلت نفسها فيها، فقد عاهدت نفسها ألا تنجرف وراء خرفه هذا... وحتى لو كان صحيحًا فمن المستحيل الوصول إليه... من رابع المستحيلات...!

- اسمع يا أبي، لن أفعل أي كلمة مما قلتها لي.. فهذا هراء... لن أنفذ أي حرف مما قلته... لن أذهب إلى أسيوط لأبحث عن عائلة مسيحية بائسة ربما يقتلونني أصلًا لو قلت لهم أن لي أخًا مسلمًا بينكم... وأرجوك أن تنسى كل هذا، يكفي أنك بسبب هذا الكنز الوهميّ قد قتلت وسُجِنت وضيّعت عمرك كله بين أربعة جدران.. وفي النهاية ماذا أنت الآن؟! انظر لنفسك..

لمحت دمعة في عينيه فعانقته برفق قائلة: - أرجوك يا أبي.. لا تفكر في أي شيء الآن سوى صحتك.. فقط لا غير.

أغمض عينيه فشعرت بالهلع لذلك، لكنها اطمأنت حين وجدت الأجهزة تعمل، فأدركت أنه لم يصبه سوء. دخلت الممرضة لتخبرها أن ذلك يكفي اليوم وأنه أغمض عينيه شاعرًا بالإرهاق.. فانصرفت قبل أن يتصل بها شريف بخمس دقائق، كانت قد غادرت المستشفى واستقلت تاكسي.

- آلو... أنا بخير يا حبيبي، حين نمت وتركتني شعرت بالوحدة من الجلوس بمفردي، فوجدتها فرصة لأزور أبي واطمئن عليه....حسنًا أنا في الطريق إليك.

قالتها ثم فتحت نافذة السيارة لتستنشق بعض الهواء بعد أن شعرت بأن الدنيا تلف بها ولديها رغبة في التقيؤ...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكثر شعور مؤلم قد يصيب المرء بينما يرى قدميه تخطو نحو الموت، هو الشعور بتأنيب الضمير تجاه شيءٍ ما...! يجتاح هذا الشعور المرء ويطعنه طعناتٍ متتالية قاتِلة، خصوصًا حين يكون صوته عاليًا، فيصير هذا الشعور عبئًا على المرء ينوء به طوال حياته...! منذ أكثر من عشرين عامًا وهو يعيش مُحاوِلًا – عبثًا - التغلب على هذا الشعور. منذ أن كان في التاسعة من عمره وقد حدث ما حدث...!

فعلٌ واحدٌ بسيط ترتب عليه كل ما حدث له حتى الآن. كلما يكبر ويتقدم في السن يكبر معه هذا الشعور بالذنب. حتى أصبح حملًا ثقيلًا على كتفيه بما لا يطيق أو يحتمل.

ألقى بجسده على الأرض مُنتحيًا أحد الأركان ثم استند بظهره إلى الجدار، أخذ يفكر في هذه اللحظة التي كان يمكنه أن يقول فيها الحقيقة، ويتحمل

تبعاتها أيًا كانت. لكنه كان أجبن من أن يعترف. وفضَّل العيش هكذا، حامِلًا وحده هذا الذنب على عاتقه، كالذي يصعد فوق جبلٍ حاملًا فوق ظهره حجرًا كبيرًا ضخمًا، غير أن هذا الحجر قد يكون أخفّ بكثير من ذنبٍ قد اقترفه المرء قديمًا ولم ينسه.

ذنبٌ؛ لم يستطع الاعتراف به إلى أي شخص مهما كانت درجة قربه منه...! نهض رافعًا يديها إلى النافذة ممسكًا قضبانها، ضاقت أنفاسه حينها وشعر بالعرق البارد يتصبب على جبينه فأخذ يتحدث إلى الله بصوتٍ عالٍ: - يا الله يا عدل، أنت الوحيد الذي يعلم كم أنا أعاني، ومتأكد أن ما يحدث لي الآن، رغم أنني ليس لي يد فيه لكنه بالفعل قضاؤك وعدلك، أعترف بذلك، لعل هذا الاعتراف هو أول اعتراف أواجه به نفسي. لكن للأسف، بعد ماذا؟!

أطرق رأسه يئنّ، مُردفًا حديثه بصوتٍ مُتهدِّج: - بعد فوات الأوان...

أجهش في البكاء فجأة وأخذ يهتز بدنه وقلبه يدق بين ضلوعه بقوة مُردِدًا: - بعد فوات الأوان... بعد فوات الأوان... ظل هكذا لدقائق قبل أن يشعر بجسده يبرد فجأة رغم أن الجو لم يكن باردًا حينها، انتبذ أحد الأركان مرة أخرى وتكوّر على نفسه مُستجلِبًا لبعض الدفء حتى مرت عشر دقائق استعاد بعدها قلبه بعضًا من انتظام دقاته وارتخت أعصابه قليلًا وهدأت ارتجافته وهو بَعْدُ ممسكًا ببعض الكلمات التي تتردد على لسانه..

بعد فوات الأوان... بعد فوات الأوان.. بعد..

...فوات الأوان

ظل يردد تلك الجملة حتى خايله النعاس..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن طرقت الباب حتى هرع شريف ليفتح لها وقد بدا على وجهه القلق:

- لماذا لم توقظيني لأذهب معك إلى والدك يا حبيبتي؟!

- لم أرد أن أتعبك معي أكثر من ذلك يا شريف، فيكفي ذهابك معي إلى القسم بسبب أخي.

قبَّل شفتيها قبلة حارة قبل أن يجلس أمام منضدته الصغيرة ليستنشق السطر الباقي. جلست وراءه على الأريكة وحضنته من الخلف قائلة: - هل لي أن أطلب منك خدمة يا حبيبي؟!

- بالطبع يا حبيبتي، أنت فقط أأمري وأنا عليَّ السمع والطاعة.

- أريد أن أذهب إلى السحر والجمال بدلًا من صديقتك.

نهض منفعلًا بعد أن وضع الطبق برفق على المنضدة...: - قلت لك قبل ذلك أن ذلك خطر عليكِ، هل طلبت مني شيئًا ولم أعطه لكِ؟!

لا يوجد رجل في الكون يستطيع الصمود أمام إلحاح أنثى قد قررت ضرورة طلب شيء والحصول عليه...! ظلّت تلح عليه حتى وافق في النهاية مُضطرًا. بشرط أن يرافقها كي يحميها من بطشِ أيّ شخص. فهزت رأسها موافقة ولكن بشرط:

- ستأتي معي كمرافق فقط، ولن تقتسم معي المكسب الذي سأحصل عليه.

- حبيبتي أنا لا أريد أي شيء، قد رفضت ذهابك في البداية أصلًا وقلت لك خذي مني ما تريدين. ولكن الطمع يفعل بالإنسان أكثر من ذلك.. وخصوصًا أنتِ.

- ليس طمعًا.. فأنا أعرف نفسي جيدًا. ولو أخذت منك ما أريد سأذهب أيضًا. ولكن بمفردي.. وأنا أستطيع جيدًا التصرف تحت أي ظرف. وأنت تعرف ذلك جيدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في القطار...

بينما كانت دميانة ممسكة بهاتفها تتصفح الفيس بوك، كان ينظر عبر النافذة إلى المراكز والقرى التي يمر بها القطار، شرد بخياله في هذه المنازل حين يهدئ القطار من سرعته. ترى؛ كم بيت من هذه البيوت، رغم بساطتها عامرة بالأطفال؟ كم أسرة سعيدة الآن ومجتمعة حول الطعام يأكلون وهم يتسامرون؟ كم رجل نائم مع زوجته الآن ويمارس معها الجنس حتى أشبعها؟ هل يوجد سعادة أكثر من ذلك؟! هل تتمثل السعادة في أي شيء سوى الأطفال والمال والفحولة الجسدية؟! هل يوجد..

- بسم الصليب.. ما هذا!

قطعت زوجته حبل خياله حين شهقت مُندهِشة، التفت لها وسألها ما بها، لم ترد عليه وأخذت تنقل نظرها بين وجه زوجها وبين صورة على الهاتف...

- ماذا بكِ يا مجنونة، علام تنظرين في الهاتف ليجعلك مندهشة هكذا؟

- انظر... قالتها وهي تعطيه الهاتف ولا زالت تحت تأثير اندهاشها، نظر إلى الصورة فوجدها لرجل شاب في أواخر العشرينات ومكتوب تحت الصورة، الكاتب حسام الأزهري، في إحدى صفحات جريدة اليوم السابع بعنوان، القبض على كاتب مغمور بتهمة قتل الكاتب الكبير سراج عبد الملك...!

لم يشغل تفكيره فحوى الخبر بقدر اندهاشه من صورة حسام، وبالتطابق الرهيب بين وجهيهما...

- إنه يشبهك الخالق الناطق، لو أطلق لحيته مثلك لكان نسخة طبق الأصل منك...!

- أو لو حلقت أنا لحيتي مثلًا..

- ماذا؟!! هل جننت؟ هل هذا ممكن أصلًا؟ لحيتك هذه هي أحد أهم رموز تدينك وتقربك من الرب والكنيسة المباركة، ورافقتك منذ أن كنت أناغنوستيس وإيبودياكون حتى أصبحت الآن أرشيدياكون.. رئيس الشمامسة، قائدهم ومعلمهم...!

- لماذا تتحدثين هكذا؟! هل رأيتيني أمسك موسًا وأحلقها؟ لقد سئمت من مبالغتك ومغالاتك ومزايدتك في كل شيء..

- هل تسمي تديني وتمسكي بتعاليم الكنيسة شيئًا تافهًا؟!

- ليس تافهًا، ليس تافهًا، هل تستطيعين عدم التحدث إلى أن نصل القاهرة؟!

- حسنًا... صمت لدقيقتين نظر فيهما عبر النافذة مرة أخرى، استكملت كلامها: - هل تؤمن بأن الرب خلق من الشبه الواحد أربعين كما يقولون؟

- أربعين؟!... نعم أربعين.. اثنين منها في مصر، أحدهما مسلم والآخر مسيحي... تناغم رائع!

- لماذا تسخر من كل كلمة أقولها لك هكذا؟! ألا تستطيع التحدث بلباقة واحترام؟

- ألا تستطيعين أنتِ النوم إلى أن نصل القاهرة؟ أنا قلقٌ ومتوتر للغاية وأرجوكي لا أريد التحدث مطلقًا

أسندت رأسها إلى مسند الكرسي بينما واصل إسحق النظر إلى المنازل بالخارج لدقيقتين قبل أن يلتفت مرة أخرى إلى زوجته قائلًا لها: - تخيلي معي أن الرب بالفعل خلق اثنين متشابهين متطابقين، أحدهما مسلم والآخر مسيحي.. وكل منهما ينظر إلى الآخر على أنه سيدخل النار...! الفكرة مرعبة حقًا، هل توافقينني الرأي يا حبيبـ...

قاطع كلامه صوت شخيرها، شك في البداية أنها توهمه بالنوم، هز كتفها برفق فأدرك بالفعل أنها غطت في سباتها، فواصل النظر إلى الخارج متحدثًا إلى نفسه مرة أخرى...: - ترى من منا الذي سيدخل الجنة؟! أي فريق هو الذي على صواب؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي...

حين وصلت السيارة الـ BMW السوداء إلى منطقة السحر والجمال، قابلهم في أول الطريق رجل ضخم البنية، مُمسِك بجهاز لاسلكيّ. استوقفهم، فأنزل شريف زجاج السيارة. سأله الرجل إلى أين ذاهب وعيناه تكاد تنقلع حين وقعتا على نهديَّ سمر ومن ثم فخذيها. فقال له شريف بصوتٍ خشن: "سأقابل ورنيشة... لأحصل على كيلو بسبوسة...!" فأشار لهما الرجل بالمرور وأمرهم بإغلاق هواتفهم، بعدما بالكاد استطاع انتزاع عينيه من سمر، التي رغم ما بدت عليه من قوّة وشجاعة بالأمس، لكنها الآن تشعر بالرهبة والخوف. دخلت السيارة متوغلة حوالي خمسمائة متر للداخل، حتى بلغت غرفة مبنية بالطوب اللبن وسقفها من جريد النخل. يقف أمامها إسلام الشحط الذي استقبلهما بحفاوة: - مرحبًا بابن الذوات الذي ينسانا ويزورنا كل ثلاثة أشهر.

- اعذرني يا صديقي - قالها وهو يعانقه - فلديَّ مشاغل كثيرة.. وبالكاد أستطيع أن آتي إليكم، لكنني في حالة عدم استطاعتي الحضور أرسل لكم

هالة، والآن قد أحضرت معي سمر، صديقتي. والتي ستحضر بعد ذلك بمفردها في حالة كنت مشغولًا.

- مرحبًا بك يا غالي وأي شخص يأتي من طرفك سيكون غاليًا مثلك... تفضل في الاستراحة يا أستاذ شريف وتفضلي يا أستاذة، ورنيشة على أول الطريق يحضر شيئًا وسيلحق بكما في خلال ربع ساعة على أكثر تقدير.

دخلا إلى غرفة مكيّفة الهواء فتنفسا الصعداء، سألته بفضول من أين يأتون بالكهرباء فأشار لها بكفه أن تصمت ولا تثير الشك لأنهما ربما يكونان مراقبين الآن. فاتسعت عيناها وبدا على ملامحها الرهبة أكثر فهدأها وطلب منها أن تهدأ ولا تتوتر قائلًا:

- لقد لفت انتباهي نفس الموضوع، وسألتُ إسلام الشحط عن مصدر الكهرباء لديهم، وأخبرني أنهم يستخدمون مولدات كهربائية ضخمة.

دخل لهما الشحط مرة أخرى يسأله ماذا يريد وما هي الكمية التي يحتاجها ليخبر الرجال بقسم التعبئة كي يجهزوها إلى أن يصل ورنيشة، فأخبره شريف أنه يريد كيلو هيروين، ويقسمه إلى أربعة أرباع. كل ربع في كيس منفصل. هز الشحط رأسه ومضى، ثم سرعان ما عاد مرة أخرى معتذرًا وهو يسأله ماذا يشربان. فأخبره شريف أنهما لا يريدان. وطلب منه أن يسرع لأنه متعجل.

لم تكد تمر ربع ساعة حتى حضر أحد رجال جمال سيراميكة من قسم التعبئة والذي أرسله كي يتأكد هل يريد الكمية على كيسين أم ثلاثة أكياس.. كان الرجل لا يقل ضخامة عن ذلك الذي قابلهم في الخارج. شارب كث ورأس حليق. ما إن رأى سمر حتى سال لعابه عليها فوقف شريف أمامه مباشرة ليحول بينه وبينها. رغم وضوح فرق الطول بينهما لكن شريف شد قامته وهو واقف أمامه متخذًا وضعًا دفاعيًا، أجابه أنه يريد الكمية على أربعة أرباع. فوقف الرجل مُتسمِرًا مُحاوِلًا استراق نظرة إلى سمر التي اعتدلت في جلستها. ظل واقفًا هكذا لثوانٍ ثم رحل وعاد بعد دقيقتين مع رجلٍ آخر. أخذوا يفتحون مواضيع واهية مع شريف ليسترقا النظر إلى سمر... فانفعل شريف عليهما وسألهما عن ورنيشة فأخبروه أنه سيأتي بعد ساعتين. جلس أحدهما بجواره والآخر بجوار سمر. شعر شريف أن خطبًا ما سيحدث. أمسك يد سمر وجلسا في الأريكة المقابلة، في الوقت الذي أمسكه فيه أحدهما من يده ليجلسه في نفس مكانه مرة أخرى. جذب شريف يده بسرعة وكان قد أوشك على أن يتصادم معه في نفس الوقت الذي دخل فيه ورنيشة ليصافحه ويعانقه ممازحًا:

- ما هذا النور ما هذا النور؟!... أين كنت طوال هذه الفترة يا رجل؟! لقد حسبتك مت.

- لا لم أمت لا تقلق علي... كان الرجلان ما زالا واقفين لكنهما تراجعا خطوتين للخلف، سأله شريف: - ما هذين الرجلين يا ورنيشة؟ هل هم رجالك؟

- لا ليسا رجالي بل رجال سيراميكة، ولكن لماذا.. هل ضايقاكما؟! نظر ورنيشة إليهما وسألهما: - هل ضايقتما الأستاذ شريف وصديقته يا أولاد الكلب؟!

- أتشتمنا يا معلم ورنيشة؟! وأمام الأغراب؟!

أقبل ورنيشة عليهما وأمسكهما من مرفقيهما ودفعهما إلى الخارج: ماذا بكما؟! اذهبا وأحضرا الكمية المطلوبة منكما يا أولاد العاهرة...

قال له أحدهم مُنفعلًا: - لا تتحدث إلينا هكذا يا معلم ورنيشة... فقد جئنا لنسأل الأستاذ والأستاذة عن شيء محدد فقط. لماذا توبخنا هكذا يا معلم ورنيشة؟ وأمامهما؟!

قال الآخر: - أقسم لك أن هذا الموضوع لن يمر مرور الكرام وسنخبر سيراميكة..

رحلا فقال لهما ورنيشة بصوتٍ عند الباب: - أنسيتما نفسيكما يا أولاد الكلب حين كنتما صبياني؟! أنسيتما حين كنتم ترتعشون أثناء التحدث معي؟

استأذنهما كي يذهب هو بنفسه إلى الغرفة التي يحضرون فيها الكمية المطلوبة كي يحضرها له. ما إن خرج من الباب حتى قابله في الخارج جمال سيراميكة ويسأله منفعلًا: - ما هذا الذي أسمعه يا ورنيشة؟ لقد أرسلت رجالي كي يستفسروا من هذا الزبون العاهر ابن العاهرة عن الكمية المطلوبة، فتشتمهما وتوبخهما؟! وأمامهما؟!

كان صوت جمال سيراميكة عاليًا فتناهى إلى مسامع شريف الذي نهض عازمًا الخروج من الغرفة فأمسكت سمر يده تتوسله ألا يخرج لهم ولا يتحدث إليهم قط. لكنه رغم ذلك خرج ليوضح له ما حدث: - لا، هذا الكلام خاطئ، فرجالك حاولوا التحرش بصديقتي. وقد رأى ورنيشة هذا، ولذلك هو وبخهم لأننا في حمايته.

- في حماية من؟!... امرأة في حماية امرأة مثله.. ورنيشة لا يستطيع حمايتك...

بدا على ورنيشة الانفعال ولم يستطع تمالك نفسه وانقض عليه وتشاجرا مع بعضهما البعض، أخرج سيراميكة مطواة من جيبه وجرح بها ورنيشة الذي أخذ يلكمه عدة لكمات. في نفس الوقت الذي جاء أربعة رجال من طرف سيراميكة كي يضربا شريف فتصدى لهما الشحط، أحد رجال ورنيشة المخلصين، حاول أحد رجال سيراميكة إمساك شريف من الخلف في حين جاء آخر وضربه في بطنه عدة مرات حتى أغشي عليه فتركوه ودخلوا الغرفة فوجدوا سمر مختبأة في أحد الأركان، جالسة القرفصاء وترتعش باكية من الخوف، حملها أحدهما وخرج من الباب الآخر قاصدًا غرفة سيراميكة الذي ضرب ورنيشة على رأسه فغاب عن الوعي هو الآخر ولمح بعدها أحد رجاله وهو يحمل الفتاة. فتركهما ملقيين على الأرض بينما ابتعد الشحط رافعًا يده لسيراميكة فهو يدرك أنه لن يستطيع فعل شيء بمفرده أمامه.

دخل سيراميكة استراحته المكونة من غرفة فسيحة يتم فيها التعبئة بداخلها غرفة أخرى ينام فيها. فوجد صبيّه عند الباب يستأذنه أن يضاجع الفتاة هو وزميله. فوضع سيراميكة يده على كتف الرجل ونظر إليه بعينٍ شاخصة فارتعد الرجل قبل أن يقول له جمال: - الحالة الوحيدة التي يمكنك فيها مضاجعة امرأة قبلي حين تكون تلك المرأة أمك... منذ متى وأنتم تفعلون هذا قبلي؟!

ضحك عدة ضحكات متقطعة ثم أمره أن يخرج ويحضر له ثلاث زجاجات بيرة. فرحل الرجل ودخل سيراميكة إلى الغرفة التي كان الضوء فيها خافتًا، بها سرير في الواجهة تختبئ خلفه سمر. خائفة، مرتعدة. اقترب منها ضاحكًا فقالت له بصوتٍ مرتجف:

- إن كنت تريد أن تضاجعني فلن أمانعك، ولكن أرجوك اترك شريف وشأنه وأأمر رجالك ألا يؤذوه. أرجوك.. وأعدك أنني لن أمانع في فعل أي شيء بي...

بينما كانت تتحدث اقترب منها واضعًا يده على مؤخرتها الرجراجة يدلكها، فقال لها حسنًا، فتح نافذة الغرفة لينادي على أحد رجاله لإحضار شريف... فتح النافذة فتسلّل من خلالها ضوء النهار، ما إن رأت سمر وجهه بوضوح حتى صرخت في وجهه وبدا على ملامحها كل أمارات الرعب والفزع مما أدى إلى اندهاش سيراميكة من رد فعلها غير المبرر هذا، سألها متعجبًا:

- ماذا بكِ، هل رأيت عفريتًا؟

ابتعدت عنه والتصقت بالجدار قائلة: - ما الذي أتى بك إلى هنا يا حسام؟ وما هذا الذي ترتديه وكيف خرجت من القسم؟!

- حسام؟!... حسام من؟! هل أنت مجنونة؟!... شرد بخياله قليلًا وقد تسمّر هو الآخر حين أرهف عينيه محاولًا تذكر شيء حدث منذ سنين... أو بالأحرى سنوات كثيرة... عقود...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عام ١٩٨٥ مستشفى سموحة العام للنساء والتوليد

بعدما خرجت حسناء من المستشفى ظلت في حالة بائسة يرثى لها لمدة أسبوع تقريبًا، ولكن ما هوَّن عليها خبر موت أحد الثلاثة أن لديها توأمين آخرين، أحبتهما جدًا واهتمت بهما اهتمامًا كبيرًا وغمرتهما بحنانٍ جارف، لم يكن شكري شعيب ينفق على البيت سوى بالفتات، اتسعت الفجوة بينهما كثيرًا بسبب رفضها إعطاءه تلك الخريطة التي توضح مكان الكنز الذي تركه لها والدها. رغم أنها في قرارة نفسها ودت أن تستأمنه على هذه الأمانة، لكن شيئًا خفيًّا بداخلها كان يحذرها من ذلك، ورأت أن وقت استخراج هذا الكنز لم يحن بعد، إن كان بالفعل في الإمكان أن يتم استخراجه. وطالما شردت تفكر ليل نهار في أمر هذا الصندوق، وتريد أن تحصل عليه اليوم قبل غد، لكن ليس عن طريق هذا الزوج الذي تحوّل فجأة وظهرت حقيقته البشعة. فكان يعاملها أسوأ معاملة، وكثيرًا ما كان يتشاجر معها بسبب هذه الخريطة. وبسبب أشياء أخرى حدثت في تلك الفترة وتراكمت فوق بعضها البعض حتى سأم منها وهجرها ليتزوج امرأة أخرى تسكن في نهاية الشارع الذي يقطنون فيه. امرأة يتيمة، أرملة؛ مات زوجها تاركًا لها عقارًا يدرّ عليها ربعمائة جنيه شهريًا، فتزوجها وأنجبت منه فتاة. فرح جدًا بها لكن فرحته لم تكتمل لأن أمها ماتت بعدما أنجبتها بدقائق، وظهر ورثة لها من عدم، فتم تقسيم المنزل ثم باعوه ليجد أن نصيبه بعد كل ذلك شقة واحدة وخمسة آلاف جنيه.... ورضيعته التي عاد بها مرة أخرى إلى حسناء التي وجدها قد بدأت في هذه السنة تنظم حياتها بعدما اشتغلت بإحدى المدارس لتنفق على ولديها.

حاول إصلاح ما بينهما علّه يستطيع الوصول إلى هدفه ويحصل على الخريطة، أدرك أن العنف لن يأتي معها بنتيجة فاستخدم الرفق واللين. ظل لفترة طويلة يلح عليها أن يعودا إلى بعضهما البعض ويعيشا في هدوء ويربيا أولادهما في سلام. وافقت على مضض أن يعودا لبعضهما البعض مرة أخرى حين أخبرها أن معه خمسة آلاف جنيه.. ووجدت أن هذا المبلغ جاء في وقته لأنها كادت أن تمل من العمل ولم تعد تستطيع الاستمرار فيه. وأخذا ينفقان من هذا المبلغ في تربية الولدين والفتاة، التي سماها على اسم أمها...

سمر...!

وعاشت مع أخويها من الأب، حسام وحسن

حتى جاء اليوم الفارق الذي سيقلب حياة كل منهم رأسًا على عقب...! ففي أحد الأيام التي كان شكري شعيب فيها كالعادة نائمًا على الكنبة في الصالة، وبجواره سبع زجاجات بيرة وزجاجة بلاك ليبل، كان يحتسيها طوال الليل إلى أن غاب عن الوعي، استيقظ على صراخ ابنته ذات السبعة أعوام، نهض مفزوعًا من مكانه فوجدها مستلقية على الأرض وتحتها بقعة صغيرة من دماء تسيل من بين فخذيها. رفعها من الأرض واكتشف أنها على الأرجح قد فقدت عذريتها. سألها من فعل بها ذلك، فأجابته باكية:

- أخي هو من فعل ذلك..

- من فيهما؟ سألها صارخًا وهو يتلفت حوله ثم أردف: - أين هما أولاد الكلب؟

حملها ووضعها على السرير وأخذ يبحث عنهما في كل أرجاء الشقة، في الوقت الذي دخلت فيه زوجته التي فزعت حين وجدته ثائرًا بينما الطفلة ظلت تبكي وتصرخ ويعلو صوتها أكثر وأكثر، سألته ماذا حدث فأمسكها من ذراعها بقوة:

- ماذا حدث؟!! ألا تستحين وأنت طوال الوقت خارج البيت وتسألين في النهاية ماذا حدث؟... ما حدث شيء طبيعي طالما أنت خارج المنزل طوال الوقت يا هانم...! أحد كلبيكِ فض غشاء بكارة سمر... ابحثي عنهما معي..

اتسعت عيناها مما سمعته وأخذت تبحث عنهما حتى وجد أحدهما يختبئ مذعورًا تحت السرير، بينما الآخر كان يختبئ تحت السرير المقابل له ويرتعش أيضًا من الخوف، التقطهما بقوة وعنف بينما حاولت الأم كبح جماح غضبه قليلًا لكن بلا جدوى، التقط الحزام من المنضدة وأخذ يضربهما بينما كانت الأم تحاول وضع ساعدها أمامه لتتلقي معظم الضربات بدلا عنهما، حتى أدمى يديها وفي النهاية جردهما من ثيابهما في عز البرد وأوقفهما بجوار بعضهما البعض ووضع أمامهما كرسيًا وجلس عليه يسألهما:

- من منكما الذي فعل ذلك؟!

لم يجد منهما أي رد سوى البكاء، كان الأمر محيّرًا جدًا بالنسبة إليه، فالاثنان متشابهان لدرجة التطابق، حتى في بكائهما حينها كانا متطابقين، نفس درجة الصوت، نفس حدة البكاء، إذا رآهما أي شخص لن يستطيع تمييز أحد على الآخر في تحديد من فعل ذلك بأخته.. بدا على وجه الأب السكير كل أمارات الحيرة، اقترب منهما وأمسك أحدهما ورفعه إلى مستوى وجهه بيدين مرتعشتين ضعيفتين وسأله بقوة صارخًا في وجهه: - هل أنت الذي فعلت

ذلك يا ابن حسناء العاهرة؟! فأجابه الطفل أن لا وهو يهز رأسه ويبكي، فرماه على الأرض وضربه بقوة في بطنه وفعل نفس الشيء مع الآخر وسأله نفس السؤال فلم يجد منه سوى ما فعله أخوه قبل ثوانٍ.. فألقاه على الأرض أيضًا وظل يضرب فيه بقوة فأمسكته الأم من ذراعيه وتوسلت له أن يتركهما الآن لأنه سكير ولن يستطيع بهذه الطريقة حل الموضوع، وأخبرته أن الأولى به الآن أن يأخذ سمر إلى المستشفى ليشخصوا حالتها.

بعد أن بذلت مجهودًا لإقناعه بأن يكف عن ضربهما ويفكر في حل الموضوع، طلب منها أن تعد له كوب قهوة. لم تكد تدخل المطبخ، حتى سمعت صوت اصطكاك الباب بقوة. ووجدت أحد ابنيها بجوار الحائط يبكي. كانت هذه المرة الأولى التي لم تستطع فيها تمييز أحدهما عن الآخر. حملته من الأرض وسألته من أنت.. حسام أم حسن؟ فأجابها بعينين باكيتين:

أنا حسام..

حاولت تهدئته حتى نام وأنفاسه لازالت لاهثة... بينما أخذ شكري شعيب معه سمر وحسن ونزل بهما فوجد أمامه صديقه، الأسطى ياسر الذي يعمل سائقًا لدى أسرة، جالسًا على القهوة وممسكًا بكوب شاي. فاستأذنه شكري أن يأخذه إلى مشوار قريب. فنهض على الفور.

في منتصف الليل...

بينما كانت حسناء ساهرة طوال الليل تنتحب وتفكر فيما سيفعله زوجها بحسن، مرَّ بتفكيرها كل السيناريوهات التي من الممكن أن تحدث، إلا السيناريو الذي بالفعل نفذه شكري الذي عاد حاملًا ابنته بين ذراعيه بعد أن أسعفها في المستشفى. وبينما يضعها على سريرها سألته حسناء عن حسن فأخبرها أنه لن يطيق رؤيته بعد الذي فعله في سمر، فأرسله إلى أحد الأقارب ليومين أو ثلاثة أيام حتى تهدأ نفسه منه. فصدقته، أو حاولت تصديقه، خصوصًا أنها تعرف أنه مقطوع من شجرة وليس له أقارب. حلَّفته أن يعيده إليها بعد يومين. فأقسم لها ثم جلس على الأريكة ممسكًا بزجاجة بيرة.

دلفت حسناء إلى غرفة النوم محاولة تهدئة نفسها إلى أن نامت دون أن تعرف أن شكري قد ألقى بابنها عاريًا في عرض الصحراء، بعد أن أبرحه ضربًا حتى غاب عن الوعي... ثم تركه ورحل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أشك أنكِ تتذكرين أدق التفاصيل في هذا اليوم يا سمر... قالها مُبتسمًا وهو ينظر لها بعينين باهتتين، وما زال واقفًا بجوار النافذة، بينما كانت سمر

جالسة على حافة السرير وقد بدا على وجهها الاغتمام من فتات ما تذكرته في هذا اليوم.

- لست متذكرة ما حدث جيدًا، ربما أتذكر صراخكما، ضرب أبي لكما، ركض أمكما وراءه حينها وتلقيها ضربات كثيرة عنكما لدرجة أن ساعدها كُسِر.. أدركت حقيقة ما حدث لي حين كبرت وأصبحت في الثالثة عشرة، وأدركت تبعاته حين أتممت الثامنة عشر... أطرقت لثوانٍ وأذرفت دمعتين وهي تستطرد: - وبدأت اقتنع حينها أنني لن أتزوج أبدًا مثل كل صديقاتي....

- هل تعلمين من الذي فعل هذا بكِ؟! سألها مبتسمًا رافعًا حاجبيه

- لا أعلم بالتحديد، فأنتما الاثنين متشابهين جدًا، ولكنني أعتقدت لفترة كبيرة أنه أنت بالفعل... أخبرني أنت.. من فعل بي هذا؟ أنت أم حسام؟!

- تعالي أولًا نخرج من هذا الوكر ونستكمل كلامنا بالخارج..

- ليس قبل أن اطمئن على شريف...

- وماذا يقرب لكِ المحروس؟ أهو زوجك أم صديقك كما قال؟

- سأخبرك لاحقًا..

طلب منها أن تمكث في مكانها. خرج من غرفته فوجد رجاله قد أحضروا شريف مثلما طلب منهم وأجلسوه على الكرسي ليقيّدوه. أمرهم بألا يفعلوا ذلك وأن يحاولوا إيقاظه، رشّ أحدهم ماء على وجهه حتى انتفض فجأة وانقضّ على سيراميكة ليلكمه بيمينه على وجهه فتفاداها سيراميكة وأمسك يمينه، فحاول شريف أن يلكمه بيساره فتفاداها أيضًا مُمسكًا بيساره، محكمًا السيطرة عليه قائلًا له بنبرة هادئة رخيمة:

- سمر في الداخل... حاول أن تهدأ تمامًا كي نستطيع التحدث لأن الموضوع كبير..

كان ذلك حين خرجت سمر من الغرفة وشهقت حين رأت جمال سيراميكة مُمسِكًا بشريف هكذا ومُحكِمًا السيطرة عليه. أردف سيراميكة لشريف بنفس النبرة: - ليس من الرجولة أن تأتي بفتاةٍ إلى هنا. وهذه ليست أي فتاة.. ليست أي فتاة... أسمعت؟ سأتركك الآن لتخرج من هنا وتدير سيارتك. وسنلحق بك أنا وسمر بعد دقيقتين.

نظر شريف إلى سمر فهزت له رأسها مؤكدة: - لا تخف ولا تقلق يا حبيبي... سنحكي لك كل شيء.

كان ذلك ورجاله واقفين غير مستوعبين أي شيء مما يحدث. فصاح سيراميكة فيهم: - مالكم واقفين هكذا يا أولاد العائبة.. اذهبوا لتكملوا عملكم... مسح شريف نقطة دم تسيل من أنفه وعدَّل من هندامه قبل أن يخرج فأمسكه سيراميكة من رسغه:

- لمن كانت هذه الكمية من الهيروين؟ لك أم لسمر؟

- هل سيفيدك هذا في شيء؟

صاح به مرة أخرى بصوت أعلى مكررًا سؤاله، فأجابت سمر بدلًا منه: - ليس لي أو له... نحن نتاجر فيه فقط... هذا كل ما في الأمر.

التفت لها سيراميكة: - حسنًا، سأحاول أن أصدقك... ولكنني لن أعطيكما شيئًا. ثم وجه كلامه إلى شريف: - أنا أعلم أنك تتعاطى لأنني رأيتك هنا من قبل، لذلك سأعطيك خمسين جرامًا.. هدية... تعويضًا لك على ما حدث.

أشار سيراميكة إلى أحد صبيانه الذين دخلوا إحدى الغرف بسرعة البرق وأحضروا كيسًا صغيرًا به خمسون جرامًا من الهيروين. أعطاه لشريف ثم أشار له أن يخرج ليدير سيارته. فخرج. اقترب سيراميكة من سمر وأخرج منديلًا يجفف به عرقها الذي يقطر على جبينها قائلًا بصوتٍ أجش:

- لا تقتربي من هذه السكة. وأنصحك ألا تعرفي ذلك الكلب الوغد مرة أخرى، إنه ليس رجلًا، ولو كان خائفًا عليك حقًا لما أحضرك إلى هنا.. أنت هنا في الجحيم. فهمت؟

- فهمت. ولكن الأمر ليس كما تفهم. شريف فعلًا ليس له أي ذنب في ذلك. سأحكي لك لاحقًا...

- حسنًا. لدي سؤال آخر... حينما وقعت عينك عليَّ ظننتيني حسام.. أليس كذلك؟ هزت رأسها بالإيجاب. فاستطرد:

- ماذا قلت حينها؟! هل هو في السجن فعلًا؟

أجابته وقد أطرقت بأسى: - نعم.. هو مسجون.

- ما هي التهمة التي سُجِن بها؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما خرجوا من غرفته، ركبا السيارة وجلست سمر في الخلف بينما ركب سيراميكة بجوار شريف الذي انطلق غير مستوعبًا أي شيء، نظر إلى سمر عبر المرآة بعينين متسائلتين فقالت له: - أنا أقدّر عدم فهمك هذا يا شريف، فأنت لم ترَ حسام أخي من قبل... أليس كذلك؟

- كنت سأقابله في القسم لكنهم منعوني وقالوا لي أن من يستطيع مقابلته زوجته وأنتي والمحامي فقط.

- لو كنت قابلته أو رأيته آنذاك لكنت دهشت الآن. الموضوع باختصار أن سيراميكة أخي، وأخو حسام التوأم.

بدا على شريف عدم الاستيعاب فأخبرته أنها ستشرح له كل شيء لاحقًا، ثم سألت جمال سيراميكة:

- ماذا حدث لك بعد ذلك؟

أطلق ضحكة قصيرة قبل أن يجيبها مُتهكمًا وهو شارعًا ذراعيه: - ها أنت ترين كل شيء بنفسك... مهندس بترول كبير في الصحراء... لم تعلّق سمر على سخريته ثم تابع وقد اكتست الجدية وجهه: - أصبحت كما ترين، أحد الأعمدة الهامة في أكبر وكر مخدرات في مصر... حين ألقى بي هذا الرجل القاسي في الصحراء عاريًا، وجدني أحد الأعراب في طريق الإسكندرية، في نفس المكان الذي ألقاني فيه، كنت أرتجف بردًا، أدركت في هذا اليوم أن الارتجاف خوفًا لهو أعظم بكثير من الارتجاف بردًا... فالخوف هو أعظم شيء يمكن زراعته داخل الروح، وأسرع شيء ينمو بداخلها...!

أخذني ورباني مع أولاده، كان يعمل في المخدرات، ولكن لحسابه، كان أحد الموثوق فيهم عند أبو شهد السمنودي؛ الرأس الكبيرة في هذا المكان، السحر والجمال، وحينما أشرف على الموت كنت قد تعلّمت كل شيء عن هذا المكان، وهذه المهنة التي برغم خطورتها أحببتها، لأنها ممتعة.

- وفيما تكون خطورتها؟

- الحكومة بالتأكيد، وبالأخص اللواء عماد أبو العزم والرائد شهاب نور الدين، عدواي اللدودين، وبسببهما أعيش مثل الذئاب، بعينٍ مفتوحة والأخرى مغلقة.

- لماذا؟! ماذا حدث بينكما؟ هل يوجد ثأر؟

- نعم، يمكنك قول ذلك... ولكن الموضوع كان خارجًا عن إرادتي، لقد أصبت الأول في ركبته في إحدى عمليات الاقتحام التي دائمًا ما تفشل. علمتُ بعدها أنه بتر قدمه من الركبة.

سكت لثوانٍ أخرج فيها سيجارة وأشعلها مكملًا كلامه: - أما الثاني فقد ألقى بخطيبته الصحفية طُعمًا لنا كي يصطادنا بها، جاءت متنكرة في هيئة مدمنة وتريد أخذ حقنة، وحاولت أخذ عدة صور لنا وللمكان، شككنا فيها وفي الأمر برمّته وبالفعل تأكد شكنا حين بدأ الاقتحام دارت بين قواته وبيننا حربًا

ضروس في ذلك اليوم، انتهت هذه الحرب بمقتل أربعة رجال من جانبنا، ومن جانبه فقد ضابطًا وعسكريين... قالها ثم أطرق رأسه واستوقف كلامه، فنظرت له سمر بعينين مُتفحصتين متوقعة ما سيقوله، فقالته هي بدلًا منه...: - وخطيبته؟!

- نعم... شهقت سمر واضعة أناملها عند فمها بينما بدا الانزعاج على وجه شريف وزمَّ شفتيه، أردف جمال سيراميكة كأنه يدافع عن نفسه: - لم يكن الأمر بأيدينا، لقد استفزنا وفقد صوابه حينها، ودخل كالمجنون بسلاحه رغم تهديدنا له أنه إذا توغّل أكثر من ذلك سنقتل خطيبته التي أخذناها رهينة، لكنه لم يأبه بكلامنا... وتوغّل أكثر فاستفزني، فقتلتها برصاصة في رأسها، وألقيت بها على مرأى منه، على بعد مائة متر... فهرع إليها مع ضابطين آخرين محاولا إنقاذها، في نفس الوقت الذي تراجعنا فيه وهربنا، فأخذها وأخذ قتلاه وغادر المكان متوعدًا إيانا..!

- هل حدث بينكما أي تصادم منذ ذلك الحين؟

- لا لم يحدث، ولكن ربما يحدث قريبًا... من يدري؟! ارتسمت ابتسامة حزينة على شفتيه

- هل أنت من فعل ذلك؟!

- قلت لكِ نعم... أنا للأسف الذي أطلقت عليها الر...

قاطعته: - لالالا.. لم أقصد قتل خطيبة هذا الضابط، أقصد ما حدث لي.. هل أنت من فعل ذلك؟! أعرف جيدًا أنك ستنفي... هذا شيء طبيعي ومنطقي..

أطلق نصف ضحكة أخرى ولم يجبها... ألحت عليه فقال لها: - سأترك الإجابة عن هذا السؤال لإحساسك.. على الأقل الآن.. المهم أخبريني.. كيف حال أمي الآن؟

أطرقت رأسها وهي تزم شفتيها، كرر سؤاله بعينين مغرورقتين، فأخبرته كذبًا أنها ماتت بمرض السرطان بعد طرده بعامين تقريبًا. جزَّ على أسنانه ثم قال متأسيًا:

- رحمك الله يا أمي، لم أكن أعرف حينها أنه سيكون آخر يوم أراها فيه، رحمك الله يا أمي، أتذكر جيدًا أنها في هذا اليوم حاولت حمايتي بكل ما أوتيت من قوة... يا حبيبتي يا أمي.

- رحمها الله، لكن للحق يا سيراميكة... أنا أحببتها جدًا، وكانت خير عوض لي عن أمي التي ماتت وهي تلدني... بعد موت أمك بعامين تشاجر أبي مع أحد أصدقائه وفقأ عينيه، فدخل السجن ومات خلال فترة عقوبته.

استرق شريف نظرة إليها عبر المرآة، رمشت له سريعًا فأدرك أن لكذبها هذا مغزى. فآثر الصمت. سألها سيراميكة:

- وماذا عن هذه القضية التي سجن فيها حسام؟!

طلبت منه سيجارة فأخرج من علبته سيجارتين لها ولشريف الذي اعتذر حين لمح أنها كليوباترا سوبر، لكن سمر أخذتها منه ونظرت لطولها مندهشة ووضعتها بين شفتيها، دس يده في جيبه ليخرج ولاعة ليشعلها لها ثم استطردت بابتسامة ساخرة:

- قضية قتل... مسجونٌ في قضية قتل، لقد قبض عليه قبل ثمانية أيام.... وهو الآن على ذمة التحقيقات التي أوشكت بالفعل أن تنتهي... وسيتم تحويله للمحاكمة قريبًا إن لم يستطع المحامي فعل أي شيء... وأشعر بالفعل أنه لن يستطيع...!

- لماذا لا يستطيع؟!

- لأن كل الأدلة ضده...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين وصلوا إلى «هايبر وان» بطريق مصر الإسماعيلية الصحراوي، طلب منه جمال أن يقف لينزل هناك، بعدما اعتذر له عما بدر منه، صافحه وصافح سمر وأخبرها أنه سيقابلها مرة أخرى قريبًا جدًا. ثم نزل واستكمل شريف السير بعد أن جلست بجانبه سمر، التي بدت ساهمة. شعر شريف أنها لا تريد التحدث الآن فآثر الصمت على أن يسألها عن كل ما يدور في عقلها حين يصلان البيت.

سافرت سمر في تفكيرها بعيدًا، شعرت أن كل شيء في حياتها قد يتغيّر في أي لحظة، كيف يمكن لحادثة صغيرة حدثت منذ أكثر من عشرين سنة أن تغيّر مصير إنسان هكذا؟! ترى، من هو الذي فعل بي ذلك حينها؟ هل أبي كان على حق حين توقّع أن يكون حسن أو بالأحرى جمال سيراميكة هو الذي فعل ذلك ولهذا السبب طرده؟

وإن كان سيراميكة بريء فهل حسام، الملقى في السجن الآن يعرف ذلك؟! لماذا لم يتكلم ولم يصارحني طيلة هذه المدة؟ هل أصلًا يتذكر ما حدث ذلك اليوم؟ ولماذا لم يجبني سيراميكة على هذا السؤال؟ لماذا أراد أن يجعلني في حيرة من أمري هكذا؟ هل كان يجب عليَّ أن أحكي له ما ترتب على هذه الحادثة لي ولحياتي بعد ذلك؟!

انتبهت من هيجان خواطرها وجولان أفكارها حين انتزعها شريف من كل ذلك ليسألها ماذا تريد أن تأكل، وهل تفضِل أن يأكلا في أي مطعم بالخارج

أم في البيت؟ فطلبت منه أن يوصلها أولًا إلى المستشفى حيث والدها، فهو أول شخص يجب أن يعرف كل ما حدث...!

- حسنًا يا حبيبتي، كما تحبين. ولكن أخبريني... لماذا كذبت عليه وأخبرتيه أن والدك توفي في السجن؟!

- ستعرف يا شريف.. ستعرف كل شيء بعدما أزن كل الأمور داخل عقلي... لا تكن مُتعجِّلًا. هيا بنا نذهب إلى والدي أولًا قبل انتهاء مواعيد الزيارة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما انتظرها شريف بالأسفل في كافيتريا المستشفى ليشرب فنجان قهوة، صعدت سمر إلى الطابق الرابع فوجدت الممرضة تدخل غرفته ومعها صينية عليها تفاحة مُقشّرة، علبة زبادي، علبة مربى صغيرة، ثمرة موز. وقرصين من الدواء. استوقفتها سمر لتسألها عن حالته فأخبرتها:

- لا جديد، يستيقظ على فترات مُتقطعة يسأل عنكِ ثم يعود للنوم مرة أخرى. لكن حالته الصحية تتحسن عما كان عليه حين جاء إلى هنا، على الأقل بدأ يأكل ويتغذى بدلًا من المحاليل التي كنا نعلقها له. وهذا في حد ذاته إنجاز. وهو الآن مُستيقِظ وسأل عنكِ أيضًا منذ قليل، لذا استغللنا استيقاظه هذا لنطعمه.

استأذنتها أن تأخذ منها الصينية لتطعمه هي فأومأت لها برأسها أن لا مانع ولكن يجب أن تكون صبورة معه لأنه أحيانًا يرفض الأكل. دخلت سمر بالصينية فوجدته مُوليًا وجهه الشاحب والخالي من الحياة شطر الحائط، زائغ العينين، ساهمًا، اقتربت منه فلمحت دمعة مُعلّقة بإحدى زوايا عينيه. اكتسى وجهها بمسحة حزن مفاجئ حينها ووضعت الصينية لتخرج منديلًا مسحت به عينيه وشفتيه اليابستين ثم سألته بنبرةٍ متحسرة:

- لماذا تبكي يا أبي يا حبيبي؟!

التفت لها قائلًا بلسانٍ ثقيلٍ: - هل تعلمين يا سمر أن اليوم الذي يمرّ على الإنسان لا يعود أبدًا؟! حين يفوتك يوم كان باستطاعتك أن تفعلي فيه شيئًا مهمًا ولم تفعليه تشعرين بالندم.. أليس كذلك؟! هزت رأسها بالإيجاب وهي تبتسم، فاستطرد:

- حين دخلتِ عليَّ الآن كنت أحصي بالضبط كم يومًا مرَّ عليَّ داخل السجن، وكان يجب على أن أفعل فيه أشياءً كثيرة لو كنت خارجه... لولا ما فعلته. سبعة آلاف وتسعمائة وأربعة وعشرون يومًا... كل يوم كان يمر عليَّ كالدهر. لم يمر عليَّ يوم مرور الكرام. كان يجب أن يمرّ بحدوث شيء معين يمتص مني ومن جسدي ومن روحي الكثير. حتى لو لم يحدث شيء

جوهريّ، فبُعدي عنكِ وحده في حد ذاته كان أصعب شيء يمكن أن يحدث لي.

أشاح بوجهه ناحية الحائط مرة أخرى مردفًا: - دخلت السجن بسبب رغبتي في أن أحسِّن وضعي، أعتقد أن هذا من حقي. كنت سأحيا حياة عظيمة مع حسناء لو أعطتني الخريطة لأحصل على الصندوق. كنت سأحبها وسأعتني بها وبكِ، وكنت سأتغاضى عما فعلته بي... كنت سأتغاضى عما فعلته بي. وها أنتي اليوم ترفضين قبول الهدية التي أريد إعطاءك إياها على طبقٍ من فضة.

- ليس صحيحًا، ليس صحيحًا يا أبي... - اقتربت منه ولثمت رأسه - فرفضي هذا كان بالأمس، لكنني اليوم قد أتيت لك لتخبرني عن مكان الخريطة.

- ماذا تقصدين؟

- لو أخبرتك من قابلت اليوم لن تصدق...

- من؟!

- سأخبرك، ولكن قل لي أولًا... ما الذي فعلته حسناء وتغاضيت عنه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي...

كعادته، كان المحامي عبد الحي بسيوني أول من يدخل مكتبه في الصباح، حتى قبل مجيء سكرتيرته بنصف ساعة. جلس على مكتبه يقلب أوراق عدة قضايا ويرتب مواعيد يومه، سمع طرق الباب، نهض متأففًا قائلًا بصوتٍ عالٍ «لقد قلت مائة مرة ألا تنسي المفتاح، سكرتيرة كسولة حمقاء بمؤخرة سمينة... لا أعلم في الحقيقة من يعمل عند من!!!»

في طريقه للباب التقط زجاجة مياه باردة من الثلاجة قبل أن يفتح فلم يجد أحدًا، لكن لفت انتباهه ظرف بني مُلقى فوق الدوّاسة الموضوعة أمام الباب. نظر إليه باندهاش قبل أن ينحني ليلتقطه وأخذ يقلّبه بين يديه محاولًا استنباط ما بداخله لكن بلا جدوى. دخل مرة أخرى وأغلق الباب خلفه وجلس على مكتبه. وضع الظرف أمامه وأخذ ينظر إليه وهو يفكر مترددًا هل يفتحه أم لا. حتى قرر في النهاية فتحه بحذر وخوف من أن يكون الظرف يحتوي على مادة متفجرة أو قاتلة..

ألا لعنة الله على أفلام الأكشن الدرجة الخامسة الرخيصة...!

فتح الظرف فوجد بداخله كارت ذاكرة...! ومعه ورقة مكتوب عليها بخطٍ رديء

«إن كنت تريد شهادة الفتاة، إليك رقم هاتفها»

٠١٠٦٦*********

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعتين

سراي النيابة

لم ينتظر المحامي إلى اليوم التالي، وبمجرد أن شاهد ما يحتويه كارت الذاكرة انتفض مُسرعًا إلى النيابة وفرحة الدنيا لم تسع قلبه، استأذن العسكري الواقف على باب مكتب رئيس النيابة أن يقابله، فدخل العسكري غرفة رئيس النيابة وخرج ليخبره أن ينتظر نصف ساعة وسيقابله... فطلب المحامي من العسكري وهو يضع خمسين جنيهًا في جيبه أن يدخل له مرة أخرى ليأذن له أن يقابل موكله في خلال هذه المدة... فوافق رئيس النيابة وأمر العسكري أن يحضر له المتهم في الغرفة المجاورة في حضور وكيل النيابة. ففعل. في نفس الوقت الذي أخرج فيه المحامي هاتفه ليتصل بالرقم الذي اتصل به منذ قليل ووجده غير متاح...!

كان ذلك حين اقتربت منه أماني التي كانت تقف بجواره وقد سمعته يقول اسمه: - معذرة، هل حضرتك محامي حسام محمد الأزهري؟

- نعم.. من أنتِ

- أنا زوجته، أنا هنا منذ ثلاث ساعات ولم أستطع مقابلته.

اسمعي... ادعي الله أن يخرجه منها. لا أعرف ماذا بين زوجك وبين الله في الحقيقة.. ولكنني معي دليل براءته.

- حقًا؟ سألته مُتهلّلة.. ما هو.. طمئنني أرجوك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

داخل غرفة الحجز الضيّقة، والتي تضم ثلاثين سجينًا، كان حسام ينزوي في أحد الأركان ينعي حظه العاثر، ويفكر في كل الاحتمالات التي من الممكن أن تحدث له، لكنه وجد أن كل احتمال يتطرق إليه بتفكيره يؤدي حتمًا في النهاية إلى... حبل المشنقة...!

أخذ يحدث نفسه؛ هل هذا هو الوقت الذي يجب فيه إخبار أخته بحقيقة أنه هو الذي فعل بها ما حدث منذ أكثر من عشرين عامًا، وهل اعترافه المتأخر هذا سيجعله كبيرًا في نظرها أم العكس؟! هل صراحته هذه ستجعلها تشعر بالراحة أم العكس؟! ترى، أين هو أخي الآن؟ هل هو حيّ أم ميّت؟ هل قتله والدي يومها أم ماذا فعل به؟!

تبًا لأسئلة ليس لها إجابات... تبًا لأسئلة كنت أتحاشاها طيلة عمري، فلماذا أتطرق إليها الآن وأنا على شفا حفرة من الموت؟! هل...

- حساااااام شعيب

قطع تفكيره صوت العسكري الأجش، فاعتقد حسام أنها تهيؤات، فكرر العسكري مرة أخرى اسمه فانتفض حسام من مكانه..

- ها أنا ذا حسام يا فندم..

- تعال معي...

أخذه العسكري ووضعه في الغرفة التي يجلس فيها وكيل النيابة على مكتبه، وعلى مقربة منه ينتظره المحامي بوجهٍ حبور، حضنه حين اقترب منه: - كيف حالك يا حسام بيه؟

- حالي؟ ماذا يهم حالي؟! على العموم حالي هو مثلما تراه الآن...

نظر المحامي إلى العسكري نظرة تحمل معنى «ارحل من هنا، ماذا تريد يا ابن العاهرة؟!» ففهم العسكري ورحل. بمجرد أن انفرد المحامي بحسام، استأذن وكيل النيابة أن يجلسا بعيدًا عنه قليلًا، فهز رأسه موافقًا، فانزوى به المحامي وسأله هامسًا بنبرة بها بعض حِدّة:

- لماذا؟! لماذا لم تخبرني أنك كنت في الاسماعيلية وقت ارتكاب الجريمة؟!

- اسماعيلية؟! كيف؟!

- كيف؟ هل تسألني أنا كيف؟! على العموم عندما تخرج من هنا، اشكر أصدقاءك الذين أرسلوا لي دليل براءتك...

- أخرج؟ أصدقائي من؟! ودليل براءتي كيف؟!! ماذا تريد أن تقول؟

- لقد استقبلت صباح اليوم ظرفًا بداخله كارت ذاكرة به مقطعين فيديو لك وأنت تأكل في مطعم «سمكمك» بالاسماعيلية، مع فتاة.. فائقة الجمال، لماذا لم تخبرني بذلك، لما كنت قضيت ساعة واحدة في السجن...!

لم يتفوه حسام بكلمة واحدة مُكتفيًا فقط بالنظر إليه متوجسًا، محاولًا استيعاب ما يقوله المحامي الذي أردف: - هل جننت، هل تريد أن تعدم؟! هل خوفك من زوجتك أكبر من خوفك من حبل المشنقة؟! قل لي لماذا لم تخبرني؟!

- لم أخبرك بماذا؟! أنا لم أغادر البيت قط.

لم يكد يتحدث المحامي حتى نهض وكيل النيابة من مكتبة فتوقف عن الكلام إلى أن خرج وأصبح هو وحسام فقط في المكتب. قال له بحدة:

- كيف؟! هل تريد أن أفقد عقلي أيها المخبول؟! ماذا عن هذا الفيديو؟! هل تستطيع أن تخبرني؟ قالها وهو يخرج نسخة من الفيديو كان قد وضعها في هاتفه مسبقًا وعرضه عليه، ذُهِل حسام مما رآه في الفيديو الذي يعرض صورته عن طريق أقرب كاميرا تستطيع تصويره بوضوح، وبأعلى الشاشة من اليمين كان الوقت يشير إلى وقت ارتكاب الجريمة، شعر بأن صاعقة نزلت من السماء وصعقته، محدثًا نفسه كالمجنون: كيف يكون ذلك؟! من هذه الفتاة؟ ومن هذا الشخص؟ مستحيل أن أكون قد جننت إلى هذه الدرجة؟ مستحيل أن أفعل شيئًا مثل هذا ولم أتذكره... خصوصًا إن كان هذا الشيء سيخرجني من حبل المشنقة...!

نهض من مكانه قائلًا بصوتٍ أجش: - هذا ليس أنا، لا أعرف من هذا الذي في الفيديو...!

نهض المحامي هو الآخر واضعًا يده على فمه: - اخررررس، لا تقل هذا على الإطلاق... هل سمعتني؟! لا تتفوه بأي كلمة مما تقولها الآن..

- كيف؟ كيف لا أتفوه بكلمة؟ هذا ليس أنا أقسم بالله..

- لا.. قالها صارخًا حتى دخل عليهم وكيل النيابة ليسألهما ما بهما وما هذا الإزعاج الذي يسبباه، فالتفت له المحامي قائلًا له بأدبٍ جم: - لا يا حضرة الوكيل، أعتذر لسيادتك عن أي إزعاج قد سببناه في مكتب سيادتكم، أعتذر لك..

هز وكيل النيابة رأسه وجلس على مكتبه مرة أخرى. نظر له المحامي وقد شعر بالضيق لجلوسه، فقال لحسام بصوت منخفض:

- أنصت لي جيدًا يا حسام، هل تريد الخروج من هذه القضية أم لا؟!

- من المؤكد أنني أريد الخروج الآن وليس بعد ساعة...

- إذن فالشخص الذي في هذا الفيديو هو أنت... أنت... أسمعتني؟

- لست أدري ماذا أقول لك في الحقيقة.

- لا تقل لي شيئًا، حتى لو كان هناك أي سوء تفاهم فسنستطيع التفكير فيه وحلّه فيما بعد. ولكننا الآن لدينا حبل مشنقة، وحجة غياب قوية، فيديو يعرض حضورك في مطعم مع فتاة جميلة ذات مؤخرة كبيرة وقت ارتكاب الجريمة. وببضعة تحريات ستستطيع النيابة الذهاب للمطعم للحصول على نسخة أخرى من هذا الفيديو، وسنستطيع أيضًا أن نتواصل مع هذه الفتاة التي كانت معك، حينما تفتح هاتفها..

- كانت معي؟!!

- نعم كاااااااااانت معك، هل لديك مانع؟!

- لا ليس لديَّ مانع، افعل ما شئت، المهم أن أخرج من هذه الورطة.

- إن أردت الخروج من هذه الورطة فافعل ما آمرك به... وخذ هذا أرسلته لك زوجتك... أعطاه حقيبة بها دجاج مشوي وبعض علب العصائر والمناديل المبللة... ثم أردف: - لا تنس كلامي... هذا الذي في الفيديو هو أنت... أنت... أسمعت؟!

لم ينته المحامي من جملته حتى وضع وكيل النيابة سماعة الهاتف وأخبر المحامي أن رئيس النيابة ينتظره في مكتبه، فأومأ له المحامي رأسه مُبتسِمًا وهو يقول له بانكسار: - حسنًا يا فندم، وأعتذر لك مرة أخرى عن أي إزعاج سببناه لسيادتكم.

- لا مشكلة... نادى على العسكري وأمره أن يقيد المتهم مرة أخرى ويأخذه إلى مكتب رئيس النيابة، في الوقت الذي استقبل فيه المحامي رسالة تفيد بأن هاتف الفتاة قد تم فتحه... فاتصل على الفور بالرقم فأجابته الفتاة من أول جرس قائلة:

- أهلًا بك يا سيادة المحامي، حينما تريد مني المجيء لأشهد أنني كنت مع حسام الأزهري موكلك، أخبرني قبلها بساعتين على الأقل، وسأحضر... قالتها الفتاة قبل أن تغلق المكالمة. فاطمأن قلب المحامي وأغلق المكالمة، حين انتهى العسكري من تقييد حسام وسحبه إلى غرفة رئيس النيابة. فذهب معهما المحامي الذي دخل خلفهما وصافح رئيس النيابة بحرارة، وهو يخبره ببساطة أن لديه أدلة جديدة على براءة موكله...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوع

في خلال هذا الأسبوع بدأت تحريات النيابة مرة أخرى في قضية مقتل الكاتب سراج عبد الملك، وفي الأدلة التي قدمها مؤخرًا المحامي الخاص بحسام محمد الأزهري، حيث ذهبوا إلى المطعم الذي أخبرهم به المحامي، واطلعوا على سجل الكاميرات هناك، واطلعوا أيضًا على ما تم تسجيله في هذا اليوم.

وبالفعل، بعد مراجعة عدة كاميرات أخرى في زوايا مختلفة، تم التأكد من صحة ما أدعاه المحامي، بالإضافة إلى استدعاء النيابة للفتاة التي كانت معه في الفيديو، بعدما اتصلوا بها على الرقم الذي أعطاه لهم المحامي الذي جلس مرة أخرى مع حسام ودرّبه جيدًا على ما سيقوله لهم في التحقيقات القادمة والاستجوابات التي انتهت بـ:

- بعد التحقيقات قررنا نحن سراي النيابة، إخلاء سبيل المتهم حسام الأزهري، من التهم الموجهة إليه... قالها رئيس النيابة قبل أن يلتفت إلى حسام ويطلب منه النهوض ليوقع على المحضر ويرحل..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرج حسام مع المحامي من سراي النيابة بوجه حبور والسعادة تملأهم، رغم أنه لا يعرف ما هذا الفيديو ومن هذه الفتاة التي أدلت بأقوالها للنيابة أنها كانت معه. لكن على أيّ حال كانت السعادة تغمره. شعر أنه كان مسجونًا مئة عام، أحس في الأسبوعين الماضيين بقيمة الحرية، قيمة التحرك هنا وهناك دون أن يحاسبه أحد. فلن يعرف المرء قيمة الحرية دون أن يتعرف على معنى السجن، كما أنه لا يشعر بقيمة الشبع دون أن يتذوق طعم الجوع. وأي نعمة أخرى عمومًا، لن يدرك المرء قيمتها دون أن يتذوق ويجرب ويعيش نقيضها والمحنة التي تنتج عنها. وأثناء تلك المحنة يبدء في تذكر كل الخطايا التي ارتكبها، ويواجه نفسه بها..

وهذا ما فعله حسام داخل السجن الذي كان بداخله الوقت حديديًا، صلبًا، ثقيلًا لا يمرّ. واجه في هذه المدة كل الخطايا التي ارتكبها وعلى الأخص ما فعله لأخته حين كانوا أطفال، وقرر حين خرج من النيابة أن يواجهها بكل شيء ويطلب منها الغفران والصفح والسماح. كانت أول من ينتظره بالخارج، جالسة بجوار شريف داخل سيارته. هللت حين رأته وخرجت من السيارة تستقبله بعناقٍ حار قائلة:

- حمد الله على سلامتك يا حسام، أتمنى ألا تكون قد تأذيت في المدة التي كنت فيها بالداخل يا حبيبي...

شعر حسام أن الفرحة بداخله ستظل ناقصة إن لم يخبرها بما حدث قديمًا ويخلّص ضميره الذي كان يوخزه، فشعرت سمر أن به خطبًا ما وسألته بقلق: - ماذا بك يا حسام؟!

كان ذلك حين وصلت زوجته أماني مع صديقتها، وما إن وقفت بسيارتها حتى نزلت وعانقته بلهفة... ثم صافحت سمر وعانقتها هي الأخرى، كررت سمر عليه نفس السؤال: - ماذا بك يا أخي؟ أشعر أن لديك شيئًا ما تريد قوله.

- لا شيء يا سمر، لا تقلقي... كنت فقط أود أن أجلس معك على انفراد لأخبرك بشيء مهم جدًا.

- أنا التي أريد أن أخبرك بأشياء كثيرة...

-.....؟!

- تعال معي أولًا.. دعنا نبتعد عن هذا المكان البائس

تدخل شريف وصافح حسام وعانقه مندهشًا من درجة التشابه والتطابق بينه وبين جمال سيراميكة: - سبحان الله، قادر على كل شيء.. حدجته سمر بنظرةٍ لا تخلو من صرامة فتراجع متلجلجًا:

- حمدًا لله على سلامتك يا حسام، اسمع.. لقد اشتريت لك ملابس جديدة، أتمنى أن تكون مناسبة لك وتنال إعجابك.. هل تود أن تأتوا معي إلى بيتي الآن أم تذهب إلى مركز جاكوزي لإزالة ما في جسدك من تعب وإرهاق أولًا؟

نظر له حسام قاطبًا جبينه مندهشًا: - شكرًا جدًا، سأذهب إلى بيتي، لأنني لا أشعر بالراحة في أي مكانٍ آخر، ولكن معذرة.. من أنت؟!

أمسكت سمر بساعده قائلة وهي تضحك: - ستعرف كل شيء في الوقت المناسب، والآن سنوصلك إلى بيتك وسنعود لك بعد ساعتين، ومعي مفاجأة...

- أخبريني أولًا، هل تعلمين بالفيديو الذي قدمه المحامي..

- لقد قلت لك، ستعرف كل شيء في وقته المناسب... هيا بنا الآن، ولنذهب من هذا المكان لأنني أشعر بغصة في حلقي وأنا هنا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بمجرد أن دخل حسام وزوجته شقتهما، ومعه الملابس التي أشتراها له شريف، مدّد جسده على السرير الذي شعر بأنه كان بعيدًا عنه منذ خمسون عامًا، أحسّ حينها براحةٍ ولجت قلبه فأغمض عينيه قليلًا ثم فتحها مرة أخرى

ليملي عينيه بالمكان ورائحته وتفاصيله. ألقى بالملابس على السرير ودخل الحمام ليأخذ دشًا ويزيل أوساخ أسبوعين أسودين من جسده، شعر أن جسده استقطب كل الأوساخ والبراغيث التي كانت عالقة بالمساجين الذين كانوا معه. تفاجأ بعدما دخل الحمام بأماني تدخل وراءه عارية. شعر برغبة عارمة تجاهها، طلبت منه ألا يفعل شيئًا سوى الجلوس على قاعدة الحمام لتدلك له جسده جيدًا، مارسا بعدها الجنس ثم اغتسلا سويًا وخرج. وقف مرة أخرى أمام سريره لنصف دقيقة يتأمله ويتأمل جماله قبل أن يلقي بجسده عليه هانئًا، مُحاوِلًا التخفيف من أعباء ما حدث له في السجن. شعر حينها بأن عضلات جسده تعاني تصلبًا وألمًا عظيمًا. بينما دخلت أماني المطبخ لتعد له الغداء الذي كانت رائحته شهية للغاية وفوّاحة. انزاح الألم عن جسده تدريجيًا وظلّ ينظر إلى السقف شاردًا، أخذت تجوس في رأسه أفكار متداخِلة مُتلاطِمة؛ ما هذا الفيديو اللعين؟! ومن تلك الفتاة التي كانت معي؟!... هل من الممكن أن يكون مُفبركًا لهذه الدرجة التي تجعل النيابة تنخدِع؟ لكنه ليس مُفبركًا، والدليل على ذلك أنهم تحرّوا عنه في المطعم وشاهدوا المشهد من عدة زوايا وأدركوا أنه فعلًا كان شخصًا حقيقيًّا. من المؤكد أنني لست مريضًا بالفصام حتى أذهب إلى مكانٍ كهذا ولا أتذكر عنه شيئًا أو عن الفتاة التي كانت معي... ترى من هذا الذي كان في الفيديو؟ سرح قليلًا مُحاوِلًا تخيُّل أو توقُّع أي سيناريو، إلا سيناريو واحد قد ورد للتو إلى مخيّلته... تُرى... هل من الممكن أن يكون هذا الذي في الفيديو أخي... حسـ...

انتزعه طرق الباب من شروده فانتفض بسرعة وارتدى ملابسه الداخلية وفوقها جلبابًا، خرجت أماني من المطبخ لتفتح لكنه أشار لها بيده أن تعود إلى المطبخ ليفتح هو ليجد سمر واقفة مُبتسِمة:

- هل سأقف هكذا كثيرًا... ألن تأذن لي بالدخول؟!

- لالالا تفضلي يا حبيبتي...

دخلت وأغلق الباب وراءها فأمسكت الباب قائلة: - يوجد شخص ما معي، يريد أن يدخل..

قال لها مبتسمًا: - هل معك ذلك الشخص الذي يدعى شريف...

- أنا لست شريف يا حسام.. قالها جمال سيراميكة من الخارج فابتلع حسام ما كان سيهمّ بقوله ووقف لُعابه داخل حنجرته حين رآه يدخل ويغلق الباب خلفه. ظل سيراميكة واقفًا أمامه ينظر إليه بعينين مجوّفتين خاليتين من أي تعبير. بينما تيبس حسام مكانه ينظر إليه وقد تجمّد الدم في عروقه وهو يرى آخر مشهد حدث بينهما ورآه فيه، بل عاد به الزمن قبل ذلك بدقائق

حين تذكر ذلك المشهد الذي فعل فيه بأخته ما فعل، وتظاهر حينها بحرفيّة ودهاء أنه بريء من هذه الفعلة. تذكر ذلك المشهد الذي كان فيه مُختبئًا أسفل أحد الأسرّة، وأمامه أسفل السرير المقابل يختبئ أخيه البريء ويبكي خائفًا مما قد يفعله والدهما للمُذنِب، تلاقت عيناهما آنذاك بنظرة متبادلة بينهما، هذه النظرة هي نفسها النظرة التي بينهما الآن...! بدا الموقف أشبه بمبارزة لتبادل النظرات الصامتة بينهما. وقفا أمام بعضهما البعض بعينين شاخصتين، كمصارعين داخل حلبة بلا حبالٍ سميكة، لا يأبهان بما يهتف به الجمهور حولهما.

شعر حسام أن نظرة أخيه له تحمل كل معاني اللوم والعتاب، فنظرة المظلوم المعاتبة للظالم لهي أقسى من ألف رصاصة قاتلة، وأحدّ من ألفِ سيفٍ باتر. وبالفعل، شعر حسام بأن خنجرًا قد تخلّل صدره، سأله جمال بعينيه، دون أن يتفوه بأي كلمة: «هل رأيت ماذا يمكن أن تفعل كلمة حق لم تقل لتنقذ بريئًا؟» فرد عليه حسام بعينين دامعتين دون أن يتفوه أيضًا بأي كلمة: «نعم يا أخي، رأيت وأدركت.. نعم أدركت»... سأله جمال: «هل شعرت من قبل بما يشعر به طفل عار ملقى في الصحراء؟... هل تعلم أنك أنت الذي كان يجب أن تكون مكاني الآن؟!...» فرد عليه حسام وهو يهز رأسه دون أن ينبس أيضًا بأي كلمة «أجل يا أخي أعرف جيدًا أنه كان يجب أن أكون مكانك، ولكن الله عاقبني بأن طُرِدتُّ أنا الآخر بعدك بمدة قصيرة.. عاقبني الله بوخزٍ في ضميري الذي ظل يؤنبني أكثر من عشرين عامًا... لقد عاقبني الله... لكنني أدرك جيدًا أن عقابي هذا لا يمثل أي شيء بما شعرت أنت به»

وقفت سمر تنظر إليهما دون أن تدري فحوى هذا الحوار الصامت الذي يدور بين عينيهما، مرت دقيقة تقريبًا وهما في نفس الوضع، كانت بالنسبة إلى جمال سيراميكة دهر، وبالنسبة لحسام.... دهور.

إلى أن كسرت سمر حاجز الصمت هذا لتُلطِّف الجو بينهما قائلة بسخرية: - ألن تفعلوا مثل الأفلام الأبيض وأسود وتعانقا بعضكما البعض؟ لا تحرماني من هذه اللحظة أرجوكما.

لازالا واقفين متجمدين، ورغم كل شيء شعر سيراميكة أنه بالفعل يريد معانقة أخيه، اقترب منه فشعر حسام بأن رحمة أخيه تلك لهي أقسى مما كان سيفعله به انتقامًا لما حدث له من قبل. أخذ سيراميكة أخيه في حضنه وعانقه بقوة واضطرام. ابتعد حسام عنه قائلًا بصوتٍ مُتهدج: - لقد فعلت فيك أقسى شيء يمكن أن يفعله المرء لأخيه يا حسن، أرجوك اختر لي عقابًا لأرتاح، فرحمتك هذه تعذبني، أرجوك يا أخي اخلع حذاءك واضربني به...

- لا تقل هذا مرة أخرى يا حسام.. قالها مبتسمًا... فأنا سامحتك منذ أن رأيتك قبل دقيقتين... وإن كنت تريد الصفح فعلا فاطلبه من سمر...

نظر حسام إلى سمر التي أطرقت رغم ابتسامتها المنكسرة التي انفلتت من بين شفتيها، أدركت في هذه اللحظة أن من فعل ذلك ليس حسن، أو بالأحرى جمال سيراميكة... بل حسام الذي أمسك يدها وأخذ يقبّلها: - سامحيني يا سمر، فأنا أعرف أن هذه الحادثة أثرت عليكِ بشكل كبير، وكان هذا هو الموضوع الذي كنت أريد التحدث إليك بشأنه حين خرجت من النيابة قبل ساعات. أنا الذي فعلت ذلك... سامحيـ...

قاطعته: - حسام... أرجوك لا تقل أي حرف آخر في هذا الموضوع، ودعنا نستمتع بعودتنا مرة أخرى... ولم الشمل بعد غيابٍ طويل..

- نعم.. أوافقها الرأي، وبالمناسبة أنا لم أعد أدعى حسن، أنا جمال.. جمال سيراميكة.. المهم أنني جائع جدًا.. وأريد أن أتناول خروفًا مشويًا الآن...

ضحكوا جميعًا، كان ذلك حين سمعت أماني صوت سيراميكة المشابهة تمامًا لصوت زوجها، فخرجت من المطبخ قائلة: - أعرف أنك جائع جدًا يا حبيبي، لقد انتهيت من...

تسمَّرت حين وجدت الأخين واقفين أمامها، تطلّب الأمر منها بضع ثوان لتستوعب ما تراه ثم سألت سمر وهي تشير إليهم بيدها:

- ما هذا يا سمر؟ ما هذا الذي أراه؟!

انطلقت منها ضحكة قصيرة قائلة: سأخبرك لاحقًا.. المهم أخبريني، ماذا أعددتِ لنا في الغداء؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعدما انتهوا سأل سيراميكة عن مكان الحمام فأخبره حسام، نهض قائلًا لأماني: - سلمت يداكي، الأكل رائع يا زوجة أخي. فابتسمت له أماني ابتسامة صفراء وهي تهز له رأسها، دخل جمال الحمام فنهض وراءه حسام كي يناوله فوطة فأمسكت سمر بيده لتجلسه مرة أخرى قائلة له بصوتٍ منخفض: - لا تخبر جمال قط بما فعله والدنا رحمه الله..

- رحمه الله؟! متى توفي؟

- منذ سنة وشهرين... مات في السجن - أجابته كاذبة – المهم ألا تخبره بما فعله، سأخبرك لماذا لاحقًا.. المهم ألا تخبره بذلك... إطلاقًا.. مفهوم؟

- مفهوم... مفهوم يا سمر.

نهضت سمر دون أن تأكل سوى ملعقتين سلطة، ونهضت بعدها أماني لجمع الأطباق الفارغة، وساعدها في ذلك زوجها. ثم أعدت لهم مياة غازية. طلبت سمر من أماني أن تتركهم وحدهم. فدخلت غرفة النوم لتعبث بهاتفها، ثم تجمّع الإخوة في غرفة المعيشة.

أخرج جمال علبة سجائره وهو يطلب من حسام مطفأة، فناولها له، أشعلت سمر سيجارة هي الأخرى، كان ذلك حين دخلت أماني حاملة صينية بها أربعة أكواب مياة غازية، وضعتها على المنضدة وجلست مُرحِّبة بجمال وهي تنظر له مُندهِشة بدرجة التشابه بينه وبين أخيه، رمقتها سمر بنظرة حادة فهمت أماني من خلالها أن وجودها غير مرغوب فيه، على الأقل من ناحية سمر. لكنها رغم ذلك تظاهرت بعدم الفهم وحاولت فتح موضوع، فرأت سمر أن لا بد من إحراجها، فقالت لها بلهجة جافة:

- أماني، نحن إخوة مع بعضنا البعض ونريد أن نتحدث في أمرٍ مهم. اتركينا وحدنا من فضلك؟

نهضت أماني معتذرة بعدما شعرت بالإحراج. وما إن خرجت حتى أغلقت سمر الباب وراءها ثم جلست مرة أخرى، ناولت كل منهم كوبه ثم نظرت للسقف لثوانٍ، محاولة إيجاد كلمة تبدأ بها حديثها قبل أن تقترب منهما برأسها وقد اكتسى وجهها بجديّة واضحة وقالت بصوتٍ منخفض:

- أريد أن أتحدث بكل صراحة، مبدئيًا يمكنكما القول بأن هذه تقريبًا هي المرة الأولى في حياتي أن أتحدث بهذه الدرجة من الجدية.

بينما كان حسام وجمال منتبهين لكلامها، سحبت من سيجارتها نفسًا عميقًا اختزنته داخل صدرها لثوانٍ ثم زفرته ببطء وهي رافعة رأسها ثم استطردت:
- أريد أن أتحدث في موضوعين. أولًا أنا أسعد إنسانة في الدنيا لأنني كنت السبب في لمِّ الشمل من جديد، لكن.. هل تعلمون أن الشمل رغم كل ذلك ما زال ناقصًا...؟

سألها حسام مُندهشًا: كيف يا سمر؟! نفس السؤال سأله سيراميكة... فأجابتهم سمر بنبرة رخيمة:

- قبل أن يموت والدنا أخبرني، ببساطة شديدة، أن لديكما توأم ثالث.

نظرا حسام وجمال إلى بعضهما البعض قاطبين، مندهشين مما سمعا... فقالا لها في وقت واحد ونفس النبرة: - نعم؟!! ماذا تقصدين بتوأمٍ ثالث يا سمر؟!

ضحكت قائلة: فعلًا، توأمين... المهم، حين ولدتكما أمكما رحمة الله عليها، كانت حاملًا في ثلاثة توائم. كذب عليها والدنا وأخبرها أن واحد منهما مات،

واتفق مع الممرضة أن تدخل معه عليها بجثة طفل ميت حينئذٍ. بينما تلك الممرضة عرضت عليه أن يبيع أحدهم لرجل وامرأة من عائلة مشهورة في أسيوط. لم ينجبا. وباع ذلك الرضيع لهما بثمانية آلاف جنيه تقريبًا، أو عشرة آلاف لا أتذكر. المهم أنه لم يمت كما أخبر أمكما كذبًا.

قال جمال: - أنا فعلا أتذكر أن أمي أخبرتني ذات مرة أننا كنا ثلاثة. ومات أحدنا. وحكت لي أن ذلك اليوم كان من أحلك الأيام سوادًا بالنسبة إليها... ولكن، لماذا أخبرك بذلك قبلما يموت؟!

هذا هو الشيء المهم الثاني الذي كنت أريد أن أفاتحه معكما. هل مستعدين لسماع ما سأقول؟!

نظرا الأخوان إلى بعضهما البعض ثم نظرا لها وهما يهزان رأسهما أن نعم.. فأردفت بصرامةٍ وحزم:

- لقد أخبرني أبي أن في هذه الأيام كان هناك شجار كثير بينه وبين أمكما رحمها الله، بسبب خريطة، هذه الخريطة ورثتها عن والدها الذي ترك لها كنزًا، كنزًا حقيقيًا، قيمته الآن ملايين، وحسبما أظن أنه من الممكن أن يكون عشرات الملايين بل مئات...

- وما الذي جعلك متأكدة هكذا أن قيمته مئات الملايين؟! ومن أدراك أصلًا أن هناك بالفعل كنزًا؟! سألها سيراميكة، فأجابته سمر بنبرة هادئة:

- الجواب الذي كان مرفقًا مع الخريطة يوضح ذلك...

- وأين هذا الجواب والخريطة التي معه؟!

- لا أدري أين الجواب، ولكن الخريطة معي، ولا تسألاني كيف، ولا تسألاني عن أي تفاصيل الآن. المهم أنها معي. لقد أخبرني أبي قبلما يموت أن هذا الكنز عبارة عن صندوقٍ به أشياء ثمينة، لا تقدر بثمن.

نظر الأخوان إلى بعضهما البعض فاستطردت سمر: - سيف الإسكندر الأكبر مثلًا، واحد من تلك الآثار التي داخل هذا الصندوق... وسبائك، أكثر من خمسين سبيكة.. وماستين نادرتين وأشياء أخرى... لكما أن تتخيّلا، واشطحا بخيالكما إلى أبعد حد...

سأل حسام ببلاهة: - والآن، ماذا علينا أن نفعل؟!

أجابه سيراميكة بدلًا منها: - من المؤكد أن نذهب للحصول على هذا الصندوق.

- لا... قالت سمر بحدة... يجب أولًا أن نبحث عن الأخ الثالث... يجب أن يشترك معنا في الحصول عليه لسببين، أولًا لأن هذا حقه، ثانيًا لأن الموضوع ليس سهلًا... أو تستطيعون القول إنه مستحيل.. ما إن لم نتعاون ونتكاتف سويًا.

سألها حسام: - ولماذا لم يقدم والدنا على تنفيذ ذلك منذ أن حصل على الخريطة؟

أجابته وهي تشعل سيجارة جديدة بتلك التي في يدها وأوشكت على الانتهاء:

- لأنه دخل السجن بسبب قتله صديقه، تعب داخل السجن ومرض ومات، هل ستقاطعني كثيرًا؟!

- لا لا... أنا آسف. تفضلي أكملي.

أكملت سمر موجهة كلامها لجمال الذي لمحت في عينيه أسئلة: - وحتى لو لم يكن مريضًا، فمن المؤكد أنه لن يستطيع الحصول عليه بمفرده، ولم يجد من يستطيع ائتمانه على سرٍ كهذا. ولهذا السبب قد أرسلك الله لي يا جمال. رسالة واضحة وجليه منه.

انتهت سيجارة جمال فأخرجت سيجارة من علبتها وأعطتها له واستطردت: - بصراحة، حين أعطاني أبي الخريطة قبل أن يموت. بدأ الشيطان يتحرش بي، وبدأ الفأر يلعب في صدري، وبدأ...

قاطعها حسام: - وبدأت القطة تدخل صدرك هي الأخرى.. أليس كذلك؟!

التفتت له ونظرت له مليًا قائلة: - هل تعلم؟ كان جمال مخطئًا حين قرر مساعدتك في الخروج من السجن، ليته ما فعل ذلك وتشنق ونستريح منك... إن قاطعتني مرة أخرى سأضع تلك السيجارة في مؤخرتك.. ما رأيك؟!

قال لها ساخرًا: - تأدبي يا بنت، لا تتحدثي إلى أخيكي الكبير هكذا

- حسام، من فضلك دعنا الآن من هذه الحوارات الجانبية لنعرف ما هي قصة هذا الكنز الذي تتحدث عنه سمر، والذي يقدر بملايين. قال سيراميكة بنبرة هادئة، فردت عليه سمر:

- كيف، كيف لا يسخر ويستهزيء ويشتتنا ويخرجنا من ديننا بخفة دمه تلك؟! شعر حسام بالإحراج رغم أنه كتم ضحكة جاهدًا على عدم إطلاقها.. ساد الصمت لثوان قبل أن تردف:

- حين أخذت الخريطة من أبي، بدأ الشيطان يراودني. وفكرت بصراحة أن أحصل عليه وحدي، لكن كيف؟! والصندوق مدفون على عمق حوالي أربعة أمتار أسفل أحد المباني المهمة في محطة الرمل بالإسكندرية. وكما حدث مع أبي، فكرت في أن يساعدني أحد ولكن لا يوجد من أستأمنه على ذلك، فلو حتى وثقت في شخص فلن أستطيع الوثوق في الشيطان القابع بداخله. فأمام الذهب والمال يضعف أي شخص. هذا أولًا.. ثانيًا كما قلت هذا حقكما أيضًا، وحق أخوكما الثالث الذي في أسيوط. وحين نحضره سنكون أربعة.. سنتكاتف ونتعاون بإخلاص كي نحصل عليه.. ونقسمه بالعدل فيما بيننا. وأعتقد أن أربعة أفراد سيكون لديهم القوة لاقتحام ذلك المبنى وحفر حفرة عمقها أربعة أو خمسة أمتار تقريبًا للحصول على هذا الكنز..

- وماذا إن رفض الاعتراف بذلك أو رفض مساعدتنا؟! أو رفض أصلا التحدث معنا والإنصات إلينا؟!

سأل جمال فأجابته بابتسامة مطمئنة: - يا جمال... حينما يعلم أن الموضوع فيه ملايين، بالتأكيد سيستمع لنا ويعترف بنا حتى لو كان يعيش في بيت رئيس الجمهورية..

سألها حسام: - وما الذي جعلك متأكدة أن هذا الصندوق موجود أصلًا؟

- سيف الإسكندر مثلًا، لقد بحثت عنه في الإنترنت، وعرفت أنه من الآثار التي سرقت من أحد المتاحف قبل أربعين عامًا. ولم يعثر عليه حتى الآن. لا داخل مصر ولا خارجها. هذا المبنى كان من ممتلكات جدكما، وقد صودر كما هو دون أي تعديلات عليه. وحتى لو وجده أحد أو عثر عليه كان سيبيعه ويخرج إلى النور، وكنا سنسمع أنه موجودًا في متحف كذا. فكل الآثار التي تُباع وتُهرّب خارج البلاد تعرض في متاحف بالخارج. وأثر كسيف الاسكندر كان سيقلب الدنيا حتمًا. أطرقت لهنيهة ثم أكملت: - ولو الصندوق لا قدر الله ليس موجودًا. فيكفينا شرف المحاولة. ويكفينا أننا تقابلنا أخيرًا.

نظر الأخين إلى بعضهما البعض وقد اقتنعا تمامًا بما قالته الأخت، وما يحمله كلامها من منطقية، وما تحمله هي من قدرة رهيبة على الإقناع عن طريق إجابات قصيرة باترة... كانت سمر لديها مهارة شديدة في ذلك...

سألها سيراميكة مُغالبًا دهشته مما يسمع: - وكيف سنجد الأخ الثالث إذن؟ هل تظنين أن أسيوط صغيرة؟! كيف سنبحث عنه هناك؟ شردت قليلا لتفكر في إجابة: - مبدئيًا ادعوا الله معي أن يكون حيًا أصلا وأن...

قاطعها حسام ضاحكًا: - تخيّلوا معي أننا حين نعلم أن لنا توأمًا ثالثًا حيًا وليس ميتا مثلما كنا نظن طوال ثلاثين سنة، وحين نبحث عنه نجده قد

مات...

برغم أن ما قاله حسام ليس مدعاة للضحك فبالطبع لم تضحك سمر، ولكن سيراميكة انفجر في الضحك مضيفًا: - أو نجده كان عائشا طوال تلك السنين وقد مات من أسبوع فقط مثلًا...

أجابتهما سمر بعد ثوان بجدية واضحة مرسومة على قسمات وجهها: - في هذه الحالة سنضطر إلى الاستعانة بشخص رابع كي نستطيع تنفيذ الخطة التي دأبت على رسمها طيلة سنين طويلة... وليكن شريف.

صاح جمال: - لا... فهذا الشخص لا أستريح له بالمناسبة، اعذريني، أنا أعرف أنك تحبيه. ولكنه لا يمر بحلقي، يكفي أنه أحضرك إلى السحر والجمال. هذا دليل على أنه لا يخاف عليكي. وهذا مدعاة على أن يكون شخصًا لا يؤتمن.

- دعنا لا نسبق الأحداث ونبحث عن توأمكم الثالث أولًا. وللعلم، فشريف ليس سيئًا لهذه الدرجة. سأقنعك بذلك لاحقًا.. المهم الآن أن نبدأ في العمل.. دعونا نعمل.

- حسنًا... قالها حسام.. نعود إلى نفس السؤال الذي طرحه حسن.. أو جمال منذ قليل، كيف سنجده إذن؟ كيف سنبحث عنه هناك؟

- أبي أخبرني أنه باعه لرجل من عائلة في أسيوط تدعى سرجيوس... هذا الرجل اسمه جرجس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المساء...

حين وصل سيراميكة إلى منطقة السحر والجمال، دخل غرفته ومدد جسده على سريره وشعر أنه لم ينم منذ سنين طويلة، دخل عليه ورنيشة فنهض جمال بسرعة واحتضنه قائلًا: - أنا آسف يا ورنيشة، لم أكن أقصد كل ما حدث.. أرجوك سامحني.. ولك عندي حق عرب... اطلب مني ما تريده.

بينما اختلى حسام بنفسه في غرفة الأطفال وفتح حاسوبه ليتصفح الفيس بوك، وولج صفحة سراج عبد الملك والهاشتاج الخاص به، قرأ آلاف منشورات وتعليقات التعازي فيه، ومئات القراء الذين نشروا صورهم بجانبه مرفق معها كلمات الرثاء، شعر برغم كل شيء أن غصّة في حلقه منعته من ازدراد لعابه، وأحس بغبطة في قلبه ناحيته... وقف أمام المرآة ينظر إلى نفسه: - ألهذا الحد؟! تحسد شخصًا مات؟! ألم يكفيك أنك كنت تكرهه وتحسده حينما كان حيًا، يا لك من تافه، فاشل، ضعيف... ولكن... ترى من قتل سراج عبد الملك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي...

بعدما حلق لحيته وشاربه الثقيل، صار نسخة طبق الأصل من حسام. ظل سيراميكة واقفًا مذهولًا وهو يجول ببصره في كل أرجاء محطة مصر، مأخوذًا بمنظر البهو بالداخل. منبهرًا بالسقف الذهبي الضخم، والذي ينتصفه اثنتا عشرة زهرة لوتس محفورة على شكل دائرة، بداخلها زهرة أخرى ضخمة محفورة أيضًا، يسقط من مركزها شكل مخروطي مقلوب، قاعدته منتصف الزهرة، ورأسه إلى أسفل. والتي تكاد تتلامس مع رأس مجسّم لهرم تحته. اتسعت عينيه حين رأى الأربع أعمدة رصينة القامة فرعونية الطراز، والموضوعة على الأركان بشموخ. بينما يوجد شاشة إلكترونية عملاقة تعرض مواعيد أقرب القطارات، مُعلّقة بين سلالم كهربائية يمينًا ويسارًا يؤدون إلى سلسلة المطاعم والكافيهات والحمامات بالأعلى.

إلى أن تفاجأ بسمر وحسام الذي اتسعت عينيه من الذهول حين رأى جمال بهذه الهيئة بعدما حلق لحيته وشاربه، لولا اختلاف الملابس بينهما لشعر أنه واقف أمام المرآة، صافحوا بعضهم البعض وذهبت سمر إلى شباك التذاكر لحجز أول قطار ذاهبًا إلى أسيوط، والذي أخبرهما الموظف أن أول قطار موعده الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة. أي بعد ساعة. فوجدا أنه من الأفضل أن ينتظروا هذه الساعة في المطعم بالأعلى. طلب كل منهما قهوة قبل أن تسأله سمر لماذا حلق لحيته، فأجابها:

- كي تتغير هيئتي قليلًا ولا يعرفني أحدًا، خصوصًا هذا اللواء أو الرائد الذي أخبرتك عنهما.

سأله حسام بفضول: - في ماذا تعمل بالضبط يا حسن.. آآآ.. أقصد جمال... لا أعلم بماذا تفضل أن أناديك. المهم في ماذا تعمل؟

- مخدرات، وقاتل مأجور... أجابه مبتسمًا ابتسامة سمجة فشعر حسام بالتوتّر نوعًا ما ثم قال ملطفًا للجو: - إحم... فلنغير الموضوع إذن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أربع ساعات ونصف...

أطلق القطار صافرة وصوله أسيوط حين دخل المحطة مُتباطِئًا، نزلوا من القطار فتفرّس حسام وجوه الناس، مُتعجبًا من مساحة مصر الشاسعة...! محافظة تبعد عن القاهرة مسافة أربع أو خمس ساعات بالقطار الذي كان يعدو بسرعة هائلة، مسافة ٤٥٠ كيلو تفصل بين سكان القاهرة وبين هؤلاء

الناس... مختلفين عنا في أشياء كثيرة لكنهم مشتركين في حمل الجنسية المصرية...

والبؤس...!

كان أول شيء يجب البحث عنه هو مطعم يأكلون فيه، لمحت سمر لافته لمطعم كنتاكي، فسألوا عن مكانه وقصدوه، طلب كلا منهما وجبة ريزو، وكانت سمر أول من ينتهي من تناول وجبتها في أقل من عشرة دقائق قبل أن تشرب علبة بيبسي دايت دفعة واحدة.. سألها حسام متندرًا: - على استعداد أن أدفع نصف عمري مقابل أن أعرف أين يذهب كل ما تأكلين ولا يظهر عليكي هكذا..

نظرت له سمر شزرًا: - ألم تر أنني أشرب بيبسي دايت؟!

حين انتهى سيراميكة من وجبته، نهض وهو يخرج سيجارة من علبته: - سأنتظركما بالخارج لأدخن سيجارة... لا تتأخرا..

- خذني معك... نهضت سمر وقالت لحسام: لا تتأخر.

ما إن خرجا حتى طلب حسام وجبة أخرى أوشك على الانتهاء منها بعد عشرين دقيقة تقريبًا حين نضبت سمر بالخارج ودخلت له:

- هل سنقضي طوال النهار هنا أم ماذا؟!

تناول آخر ملعقتين وقال لها والأكل يتطاير من فمه: - حسنًا، لقد انتهيت... نهض ملتقطًا علبة المياة الغازية حين نفث جمال آخر نفس في سيجارته التي كان يدخنها في الجهة المقابلة على كورنيش النيل حيث الهواء الطلق ولن يشعر أحد بأي رائحة للحشيش... سألتهما سمر: - كيف سنبدأ البحث عن عائلة سرجيوس هذه؟

- سنسأل بالطبع، سنسأل في الأماكن المزدحمة والمليئة بالناس. قال حسام

قال له جمال: - أسيوط ليست كشك سجائر على أية حال..

- ولكن هنا العائلات تعرف بعضها بعضًا. سنحاول ونرى... وبإذن الله سنستطيع الوصول إليهم بسرعة

استقلوا تاكسي فسألهم السائق عن وجهتهم فلن يستطيعوا الرد عليه، سأله حسام عن عائلة سرجيوس فهز السائق رأسه أنه لا يعلم، فطلب منه أن يذهب بهم إلى مكان يستطيعون فيه السؤال عنهم، فأخذهم إلى منطقة تدعى درنكة، وما إن وصلوا حتى سألوا الذاهب والغادي عن هذه العائلة لكن

دون جدوى. اقترح عليهم حسام أن يسألوا عمال الدليفري في المطاعم المشهورة، ربما قد يكون ورد عليهم هذا الاسم من قبل. فنهرته سمر: - وهل سيتذكر عامل توصيل اسماء الأشخاص الذين يوصل لهم؟ هل جننت؟

- أقصد أنه ربما اسم مميز كهذا يكون محفورًا في ذاكرة أحدهم...

- وبدلا من أن نسأل عن شخص واحد أو عائلة واحدة، ننشغل باستجواب عشرات عمال توصيل المطاعم.. وهل تظن أصلًا أنه سيلتفت لنا أحد منهم؟ فربما يظنون أن نيتنا ليست سليمة أصلًا ولا يفيدوننا بشيء.. وربما يدخلونا في دائرة أخرى نحن لسنا على استعداد الدخول فيها – نظرت إلى جمال قائلة - وبالأخص أن معنا بسم الله ماشاء الله تاجر مخدرات كبير... فأضاف جمال:

- وقاتل مأجور، هل نسيت؟!

- آسفة.. نسيت... التفتت لحسام: - أعتقد أنه من الأفضل ألا تفكر يا حسام، لأن كل أفكارك ستؤدي بنا إلى طريق أسود لا يعلم نهايته إلا الله.

- هذا لو كان موجودًا أصلًا... أضاف جمال سيراميكة مبتسمًا فقطب حسام جبينه وفغر فاه غير مُصدق ما سمعه منه فسألته سمر بنبرة جادة: - هل أنت ملحد يا جمال؟

أحابها مبتسمًا بنبرة هادئة: - تستطيعين قول هذا إن أردت.

- حسنًا، المهم، سوف نـ...

قاطعها حسام: - المهم؟!! ما هذا المهم الذي هو أهم من كون أخيكي مُلحدًا كافرًا بالله.

صاحت به سمر: - هل هذا وقت إقامة الميزان والمحاسبة؟!! حسنًا، دعنا نترك ما جئنا لأجله ونناقش مسألة الإلحاد وأثره على المجتمع والناس و. سكتت للحظة لتلتقط أنفاسها وقد بدا على وجهها الإرهاق. فسكت حسام هو الآخر، دسّت يدها في حقيبتها وأخرجت قرصًا مهدئًا طحنته بضروسها وبلعته وهي تغمض عينيها لتهديء أعصابها، حينها قال سيراميكة لحسام بنبرة قوية حازمة:

- اسمع، منذ هذه اللحظة لن أسمح لك بالتدخل في حياتي، ولا ترسم عليَّ دور طالب الأزهر وموظف الأوقاف طيّب القلب... هل فهمت؟ أنت لست ملاك.

أطرق حسام رأسه موافقًا على كلامه فاستطردت سمر: - ماذا لو سألنا مندوب البريد؟ عمال النظافة؟

صاح سيراميكة بعد أن لانت ملامحه وقد وردته فكرة للتو: - أو نذهب إلى العمدة مثلا أو ما شابه هنا، لا أعرف ماذا يسمونه...

قال حسام وسمر في صوت واحد: فكرة جيدة...

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة حين ذهبوا إلى ديوان المحافظة وسألوا هناك عدة أشخاص حتى دلهم أحد العاملين هناك وقد كان بمقربة منهم يربط دراجته في شجرة حين سمعهم يرددون اسم سرجيوس:

- نعم... نعم.. أعرف عائلة سرجيوس، فجميعهم ملتزمون متدينون مؤمنون بالرب... فابتسم حسام قائلًا: - بارك الله فيهم.. فأردف الرجل: - أبناء كنيسة، مؤمنون موعوظون لا يفوّتون أيًا من دروس الآحاد أو أي موعظة للبابا هناك، حتى أن معظم أبنائهم يخدمون الكنيسة...

فغر حسام فاهه مندهشًا، ولم يكن اندهاش جمال وسمر أقل من اندهاشه، أشاح جمال بوجهه إلى الخلف كاتمًا ضحكه، بينما واصلت سمر حديثها مع الرجل بجديّة وحزم...

- وأين يقيمون يا مقدّس؟!

- في منطقة تدعى دير الجبراوي ومنزلهم هناك بجوار كنيسة القديس يوحنا المعمدان، فمعظمهم يقيم هناك، وبقيّتهم يقيمون ما بين منطقتي النمايسة والمطيعة.

شكرته سمر وهي تكتب في هاتفها اسماء المناطق التي ذكرها الرجل ثم رحلا مُستقلين سيارة أجرة قاصدين أول مكان، والذي ذهبوا إليه بعد عشر دقائق وسألوا هناك عن منزل عائلة سرجيوس فوصفه لهم أحدهم. ذهبوا إلى هناك فوجدوا منزلًا مُكوّنًا من أربعة طوابق يبدو عليه القدم، واجهته بها شرفات تشي بعدم فتحها منذ دخول مريم العذراء والسيد المسيح لمصر، نوافذها طويلة عليها غبار نجح تمامًا في إخفاء لونها. باب مدخل العمارة خشبيّ لا لون له ولا جزء فيه يمكن للمرء أن يطرق عليه. اقتربوا منه فأرعبهم طفلٌ صغير يسيل مخاط من أنفه انشقت عنه الأرض فجأة وظهر من بين ظلام المدخل ليسألهم عمّا يريدون، فمالت سمر بجذعها قليلًا لتكون مقتربة من مستوى رأسه وسألته هل يسكن أحد بهذه العمارة، فأخبرها الطفل أن نعم. فصاح حسام: - أقسم بالله أنني أشك أنها بالفعل مسكونة ولكن بالجن والعفاريت وليس بالسكان...! حدجه جمال بنظرة أرعبته قائلًا: - ماذا أخبرتك منذ قليل يا حسام؟؟!! فأشار له حسام بيديه مُتفهمًا ما قال. ابتعد جمال عن باب العمارة ووقف منتصبًا بمنتصف الشارع

موليًا وجهه شطر الواجهة ونظر لأعلى واضعًا كفيه حول فمه لينادي: - يا حاج سرجيوس... يا حاج سرجيوس...!

صاحت سمر: - حاج؟!! لقد قال الرجل أنهم مسيحيون.. مسيحيون يا جمال...!! فأطلق حسام ضحكة جاهد ليكتمها لكن دون جدوى فشبّك جمال يديه خلف رأسه محاولًا كتم ضحكته هو الآخر. تطوّعت سمر بدلًا منه. زفرت بقوة قبل أن تقف بجواره وتنظر لأعلى لتنادي:

- يا مقدسين... يا مقدس جرجس... التقط حسام حجرًا من الأرض وظل يطرق الباب به حتى ظهرت سيدة في الطابق الرابع تستحق بجدارة الدخول في مسابقة غينيس للمُعَمِّرين. عبارة عن جلد يكسوه جلد، مرتدية رداء أسود، وعلى رأسها غطاء لم يفلح في تغطية شعرها الخفيف نحاسيّ اللون.. سألتهم بصوتٍ متهدج ضعيف: - من؟! من الذي ينادي؟

أجابتها سمر أنها تريد رجلا من آل البيت لتتحدث معه في أمرٍ مهم. سكتت السيدة لبرهة ثم سألتهم بنفس النبرة: - من؟!! من الذي ينادي يا أولاد؟!

نظرت سمر إلى الأرض وبصقت بقوة ثم انحنت مستندة بيديها إلى ركبتيها، كرر لها حسام السؤال بدلًا منها: - يا أمي لو سمحت نحن نريد رجلًا نتحدث معه في أمرٍ مهم أرجوكي...!

سكتت العجوز لثوانٍ ثم أعادت نفس السؤال: - من؟! من الذي...

لوّح حسام بالحجر الذي في يده مُهددًا إياها أن يلقيه عليها إن لم تسكت... قاطعها سيراميكة ولم يدعها تكمل جملتها البائسة مثلها وظل ينادي بصوتٍ عالٍ: - يا أهل الله.. يا أهل الله... يا مقدس سرجيوس...! وما زالت العجوز تكرر ما قالته. كان صوتها برغم ضعفه متداخلًا مع صوت جمال سيراميكة الأجشّ فأحدثا جلبة في الشارع حتى ظهرت في الطابق الثاني سيدة خصيبة البدن في الأربعينيات من عمرها، مرتدية رداء أسود هي الأخرى، لن تستطيع تحديد لون بشرتها أو ما إن كانت جميلة جدًا أم قبيحة جدًا، ذات وجهٍ لا يتميز بأي شيء وشعر أبيض يتخلله شعيرات سوداء. ما إن وقعت عيناها على جمال الذي ينادي حتى شهقت وضربت بيدها على صدرها المترهل:

- ما هذا الذي فعلته بلحيتك يا إسحق؟ لماذا حلقتها أيها المجنون... ومن هؤلاء؟!

ولم تكن قد رأت حسام الذي رفع رأسه ناظرًا للسيدة التي ما إن شاهدته هو الآخر حتى صاحت بصوتٍ أعلى:

- بسم الصليب.. بسم الصليب! ما هذا الذي أراه بحق بركة السيدة العذراء المباركة؟! لاح صوت غليظ من الداخل يسألها:

- ماذا يجري يا تريزا؟! فنظرت للداخل وهي تصيح:

- يا بيشوي، يا حنا، يا عاذر... يوجد بالأسفل رجلين متشابهين تمامًا مع إسحق ابن عمكم، لولا أنهما حليقا اللحية لقلتم إنهما هو... ولا زالت البائسة بالأعلى قاطبة جبينها تنادي مُتساءلة: - من الذي ينادي يا أولاد؟ من هؤلاء يا تريزا؟!

نظرت تريزا إلى الأعلى: - لا شيء يا أمنا... سأخبرك لاحقًا...

بدأ الإخوة يشعرون بالقلق، لكن مهما بلغ هذا القلق فإن شعورهم بأنهم على بعد خطواتٍ من الأخ الثالث جعلهما على استعداد تحمُّل أي شيء... حتى صوت هذه العجوز الهرِمة التي في الطابق الرابع...! وقد بدأت تنادي بإلحاحٍ على جاراتها في العمارة المقابلة. ووقف البعض في الشرفات. همست سمر لأخويها:

- من الواضح أن اسمه إسحق... المهم، أعتقد أن وجودكما سيثير لنا المتاعب، وعشرات آلاف الأسئلة التي نحن في غنى عنها بالتأكيد... أقترح عليكما أن تختفوا الآن من هنا وتنتظروني خارج هذا الشارع، وسأسأل أنا عن إسحق هذا... هل تتفقون معي في هذا الرأي؟

سألتهما وهي تنتقل بعينيها بين حسام وجمال اللذين نظرا لبعضهما البعض وهزا رأسيهما موافقين، وانطلقا بعيدًا عنها بسرعة. في نفس الوقت الذي جاء رجلا يبدو عليه البدانة ويرتدي فانلة داخلية رثة لا تخفي كتفيه المشعرين بغزارة، نظر للأسفل فوجد سمر بمفردها، فالتفت إلى زوجته. أين يا تريزا؟! من هؤلاء الذين تتحدثين عنهم أيتها المخبولة لا أرى سوى فتاة جميلـ... آآآأقصد فتاة وحيدة؟!

لوت تريزا شفتيها دلالة على عدم استيعابها. فهز الرجل رأسه وهو ينظر مرة أخرى للأسفل ليسأل سمر ماذا تريد، فقالت له محاولة أن تتذكر الاسم الذي قالته تريزا من قليل وسرعان ما تذكرته: - استحلفك بالعذراء المقدسة يا أخي، كنت أريد آآآآ... كنت أريد إسحق سرجيوس في أمرٍ مهم مُتعلّق بأسرة مسيحية كان يحسن إليها من شهرين.

- يحسن إليها؟ هاهاها إسحق؟!! متأكدة من كلامك هذا؟! سألها مُتعجبًا لكن هذا التعجُّب لم يمنع عينيه من أن ترشقا بين نهديها ومعرفة حجمهما وحتى لون طرف حمالة صدرها...

- نعم... كنت أريد التواصل معه، أين يقيم؟ هل هو هنا أم...؟ سألته وقد أدركت كعادتها ما ينظر إليه وأن جزءًا كبيرًا من دماغه قد توقف الآن تمامًا عن التفكير...!

- لا، هو يقيم معنا هنا في الطابق الأول لكنه في القاهرة هذه الأيام... قالها ولم تزل عيناه بين نهديها

- القاهرة؟! طيب، هل من الممكن أن تعطيني رقمه؟ فالأمر مهم جدًا ومتعلق.. بـ

قاطعها الرجل..: - لا عليك يا أختنا... شرفينا إذن لنتحدث، فليس من الجيد أن تأتي هكذا وترحلين دون أن نعمل معك الواجب... لكزته زوجته التي لاحظته وهو يشفط كرشه للداخل وعيناه المثبتتين على جسدها... فاعتذرت سمر ووعدته أن تفعل ذلك المرة القادمة لأنها مُتعجلة، طلب منها أن تصبر ثوان، غاب في الداخل لدقيقتين كتب فيهما رقم إسحق في ورقة مهتوك عرضها والتقط قميصه ليرتديه وينزل ليعطيها لها، فخطفتها تريزا الورقة من يده مُلقية عليه نظرة صارمة ارعبته، طوتها عدة مرات وأحكمت عليها مشبك غسيل خشبيّ، قائلة لسمر وهي تلقيها لها: - القي المشبك مرة أخرى بعدما تأخذين الورقة..

احتارت كل دراسات علم النفس في إيجاد سبب جوهريّ لتقديس معظم النساء لمشابك الغسيل واستعدادهن لفعل أي شيء للحفاظ عليها...!

التقطت سمر الورقة ونظرت لها ببرود وهي تلقي المشبك بعيدًا كيدًا لها.. ثم انصرفت لا تلوي على شيء...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نفس الوقت...

كان حسام وجمال واقفين على ناصية الشارع في الناحية المقابلة عند محل عصير قصب بناء على اقتراح حسام، فوافق جمال الذي لمح صليبًا كبيرًا خشبيًا وتمثالًا للعذراء والمسيح بجانب لوحة مصفرّة معلقة على الحائط مكتوب عليها «اتعجب من المصريين كيف يشعرون بالتعب وعندهم عصير القصب» فأطلق ضحكة وهو يهز رأسه، كان ذلك حين لمح سمر من بعيد، لوّح لها بيده فلمحته على الفور وعبرت لهما الشارع، سألها حسام ماذا فعلت فقالت له: - قبل أي شيء، أطلب لي كوكتيل فواكه بالأيس كريم، فالتفت حسام في الحال للبائع قائلًا: - عصير قصب صغير لو سمحت...

جلست سمر وهي ترتدي نظارتها الشمسية وتخرج هاتفها من حقيبة يدها لتتصل بالرقم، فأدرك كل منهما أنها نجحت في إحضار الرقم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القاهرة... بنسيون تيوليب

بينما كان إسحق يحزّم حقائب السفر استعدادًا للرحيل، كانت دميانة تتوسل إليه أن يمكث في القاهرة ولو ليومين آخرين، لكنه رفض وأصرّ على السفر وتسليم الغرفة الليلة: - ولماذا نجلس هنا أكثر من ذلك وقد انتهينا مما قد أتينا لأجله؟

ردت عليه مُتأففة وقد صُرَّ بين حاجبيها: - ولماذا نرحل هكذا سريعًا دون أن نخرج ونتنزه قليلًا في القاهرة؟ هل نزورها كثيرًا كي نأتي ونرحل منها سريعً هكذا؟! هناك أماكن كثيرة أود زيارتها، مُجمّع الأديان ومقابر الشهداء وأماكن دينية كثيرة... هذا بخلاف أننا لم نسهر يومًا مرة على النيل مثلًا ونهدأ أعصابنا ونغير جو.. أليس هذا الذي طلبه منا الطبيب وأن هذا سوف يساعدك في العلاج؟ على الأقل لنخرج من الضغوط التي نحن فيها يا إسحق...

- وهل سألتي نفسك هل معنا مصاريف البقاء هنا ليومين أم لا؟! ثم أن أسيوط بها نيل أيضًا... ونستطيع أن نفعل هناك ما سنفعله هنا... وبطبيعة الحال ليس معي ما يجعلنا نمكث أكثر من ذلك...!

خلعت من رقبتها السلسلة التي ترتديها ومدت إليه بها يدها: - خذ هذا الصليب، يمكننا بيعه فيكون معنا نقود.

- أجننتِ؟! صاح بها منفعلًا.. هل تودين بيع الصليب الذهبي الذي أهداه إليكي أبونا مكاريوس حين تزوجنا؟!

- لست في حاجة إليه الآن، ومن المؤكد أنك ستشتري لي غيره يومًا ما، وفي هذه الحالة سيكون أغلى من هذا، كقيمة وكثمن.

علّق عينيه على السلسلة وهو يفكر فيما قالته له زوجته ويقلّب الأمر في رأسه، مدَّ يده لأخذه لكنه تراجع وفي آخر لحظة ولّى ظهره لها صائحًا بصوتٍ عالٍ: - لا.. لن أجعلك تبيعين ذهبك. لن نمكث أكثر من ذلك وهيا حضري حقيبتك...

خرجت دميانة من الغرفة غاضبة حين رن هاتفه:

- آلو

- آلو، إسحق سرجيوس؟!

- نعم... من أنتِ؟

- ليس مهمًا من أنا، فالموضوع طويل جدًا ويحتاج لشرح، والوقت ليس في صالحنا، وأعتقد أنك لن تريد شرح ذلك في الهاتف.

- لا أفهم شيئًا.. من أنتِ؟ وماذا تريدين بالضبط؟

- أنا شخص معي لك أمانة أود أن أعطيها لك... آلاف، بل عشرات الآلاف... بل المئات... وربما ملايين.. هذا متوقّف على حظك وتفهُّمَك للموضوع برمته...

ساد لحظة صمت بينهما ثم أستطرد مُنفعِلًا: - لا زلت لا أفهم شيئًا، من أنتِ؟!

- صدقني.. شرح من أنا يحتاج أن نتقابل ونتحدث وجهًا لوجه وليس هكذا في الهاتف... ونريد أن نرى تعبيرات وجهك حين نخبرك بالحقيقة كاملة. هل تريد أن تفوّت علينا هذه الفرصة؟

- أين أنتِ إذن؟

- نحن عندك في أسيوط... أين أنت الآن وسنأتي لك في غضون دقائق...

- لا أعتقد أنها ستكون دقائق... لأنني هنا في القاهرة وليس أسيوط، ولكنني سأسافر غدًا في الصباح البا...

قاطعته..: - لا... لا تسافر ولا تبرح القاهرة، سنأتي لك الآن وسنأخذ أول قطار..

- من أنتم.. ولماذا أصبح كلامك بصيغة الجمع.. من أنتم؟!

- أرجوك اهدأ ولا تفعل مثل جدة جدة جدة جدتك التي صدّعت رأسنا... سنأتي إليك في أول قطار.. قل لي أين تقيم.

بعد أن أملاها عنوان الفندق الذي يقيم فيه، أغلق المكالمة وخرج لزوجته الجالسة على أحد الكراسي مُطرِقة في حزنٍ، مسّد شعرها بيدٍ ومدَّ إليها اليد الأخرى: - أعطني الصليب يا حبيبتي..!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هل سأظل مادًا يدي بالعصير هكذا كثيرًا؟!

لم تلتفت له سمر التي غرقت بتفكيرها فيما سيحدث بعد ذلك، والذي لاحظ ذلك جمال حين وضع يده على كتفها ليسألها عما حدث في المكالمة فأخبرته وهي تخلع نظارتها الشمسية وتمسحها بطرف بلوزتها:

- تحدثت معه والمفترض أن نعود إلى القاهرة في أقرب قطار... هيا

- وبالنسبة لهذا العصير؟! سألها حسام

- اشربه أنت، ثم ألم أقل لك أنني أريد كوكتيل فواكه بالآيس كريم؟! ما هذا الهراء الذي طلبته لي؟!!!

رغم شعوره بالإحراج المؤقت لثوانٍ لكنه لم يأبه للموضوع كثيرًا وشرب العصير بدلًا منها.. قبل أن يدفع قيمته ويلحق بإخوته. كانوا قد وصلوا محطة القطار في غضون ربع ساعة حين وجدوا قطارًا يقلع من المحطة.. صاحت سمر وهي تضع يدها على فمها:

- أتمنى ألا يكون هذا قطار القاهرة، لأن ذلك سيعني أننا سننتظر اثنتى عشرة ساعة على موعد أقرب قطار آخر..

قال حسام: - ولماذا ننتظر قطارًا أصلًا؟! نستطيع أن نذهب إلى موقف الميكروباصات ونستقل ميكروباص من هناك، وسنصل القاهرة في غضون خمس ساعات على أكثر تقدير...

نظرت له سمر وهي تفكر في كلامه قبل أن تذهب إلى شباك التذاكر الذي أخبرها الموظف بداخله أنه بالفعل قطار القاهرة، فاقترح جمال أن يأخذوا بنصيحة حسام، فذهبوا إلى موقف الميكروباصات خلف محطة القطار. وجدوا سيارة واقفة وبداخلها شخصين فقط، ونائمين. فقالت سمر مُستنبطة: - أعتقد أن بهذه الطريقة ستمتليء السيارة بعد أسبوعين، فقال لها حسام:

- لا تقلقي يا سمر، وأعتقد أنه من الأفضل أن نحمد الله، فلعل عدم لحاقنا بهذا القطار خير، ماذا كنا سنفعل إن اصطدم بقطارٍ آخر مثلًا وحدث لنا أي مكروه لا قدر الله، ماذا سنفعل حينها لو....

قاطعه سيراميكة: - يا عم الشيخ الشعراوي، أرجوك ارحمنا واذهب اشتري لنا أي شيء نأكله فالسكة طويلة.

فقالت له سمر على الفور: - شاورما دجاج «إكسترا مايونيز» وبطاطس مقليّة مع سلطة كلو سلو.

نظر لها حسام مندهشًا فهزت سمر رأسها له متسائلة: - ماذا بك؟! هل قلت لك شيئًا حرامًا؟!

- لا، لكنني أرى أنك حين تأتي سيرة الأكل أو الشرب لا تحتاجي وصاية من أحد... المهم، التفت إلى جمال... وأنت ماذا ستأكل؟!

- مثل سمر، ولكن شاورما لحم، وعلبة سجائر مارلبورو أحمر.

رفعت سمر يدها: - وعلبة سجائر ميريت أصفر لي أيضًا. ولا تنسى، بيبسي أو أي عصائر ما عدا المانجو.. ويفضل بيبسي دايت.

وقف حسام لثانيتين يقارن بين ما طلبوه وما في جيبه، شعر به سيراميكة الذي أخرج ورقة فئة مائتي جنيه وأعطاها له دون أن تلاحظ سمر، أو هكذا تظاهرت... وما إن رحل حسام حتى صاحت بصوتٍ عالٍ: - أكرر لك أمام جمال أنني طلبت شاورما دجاج «إكسترا مايونيز» وبطاطس مقلية مع سلطة كلو سلو وبيبسي دايت وعلبة سجائر ميريت أصفر، لا تنسى أن تجلب لي شيئًا آخر لتصيبني بالشلل الرباعي...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد حوالي ساعة ونصف ولم يأت أحد في الميكروباص سوى رجلين آخرين، سألت سمر أحد السائقين هل هذا عادي فأخبرها أن أحيانًا السيارة تُملأ في خمس ساعات... اقترحت عليهما أن يدفعا ثمن باقي الكراسي ليذهبوا سريعًا لكن جمال رفض لأن الطريق مليء بالكمائن التي سترتاب فيهم ويحتمل أن يستوقفهم أحدهم ويطلب منه الكشف على بطاقته، لكن الذهاب وسط آخرين والميكروباص ممتليء سيجعل الأمر قد يمر طبيعيًا، أضاف حسام أن يستغلا وقت الانتظار هذا في الاستغفار وسوف يمتليء سريعًا فرمقته سمر في غيظ، ولم تكد تحرك شفتيها حتى جاءت عائلة مكونة من سبعة أشخاص فامتلأت السيارة في الحال وركب السائق الذي صاح فيهم بصوتٍ غليظ:

- الأجرة ستون جنيهًا، ولن نستطيع الوقوف في أي كافتيريا سوى مرة واحدة فقط، سمعونا الفاتحة ولا تلقوا قشر لب أو سوداني في السيارة، سمعونا الفاتحة و.

قاطعه جمال بصوت أغلظ منه: - يا باشا نحن لدينا حالة وفاة في القاهرة، وسنقرأ الفاتحة في الطريق وسنكتب الكتاب وسنفعل كل شيء تريده، فقط اقلع من هنا...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أربع ساعات ونصف

الساعة ٠٨:٤١ م وسط البلد

بعدما طلبت من أخويها الذهاب إلى شقة حسام لينتظراها حتى تأتي لهم بالأخ الثالث، ذهبت إليه في العنوان الذي أخذته منه واتصلت به لتخبره أنها أسفل الفندق تنتظره داخل تاكسي، فنزل لها بعد دقيقتين...! وبالطبع، تعرفت عليه بسهولة حين رأته يخرج من الفندق، أخرجت رأسها من نافذة السيارة ونادت عليه فالتفت لها واقترب من السيارة وانحنى مُستندًا إلى الباب:

- نعم، ماذا تريدين أن...

لم تستطع إخفاء اندهاشها من التطابق الرهيب بينهما، ومن كل هذه السنين التي مرت عليهم دون أن يروا بعضهم البعض رغم أنهم شيء واحد وانقسم إلى ثلاثة... فكرة أن هذا الواقف أمامها لم ينعم بقُربِ أخويه التوأمين في الدنيا سوى سويعاتٍ فقط لهي فكرة مُرعِبة... لم تستطع إخفاء ابتسامة افترت من ثغرها وهي تقاطعه:

- تفضل يا إسحق، اركب.

- لا أستطيع الركوب هذا أولًا، ولا أعرفك هذا ثانيًا... غير أنني لست وحدي، فمعي زوجتي ولا أستطيع أن أتركها هنا... هذا..

أكملت بدلًا منه: - ثالثًا... هذا ثالثًا... فهمت.. تستطيع أن تتصل بها لتنزل. لا مشكلة، ولا تخاف مني أرجوك... تفضل اتصل بها لتنزل...

أمسك هاتفه ليتصل فتذكر أن رصيده قد نفذ، فطلب منها مُحرَجًا أن يستخدم هاتفها فأعطته الهاتف قائلة:

- تستطيع أن تجري المكالمة داخل السيارة، لماذا أنت واقف هكذا...؟!

- لا تخافي يا آنسة، فأنا لست لصًا ولن أخذ هاتفك باهظ الثمن هذا وأهرب...!

لم تتمالك نفسها من الضحك ولم تستطع الرد عليه. اتصل بدميانة وطلب منها النزول، ففعلت وكانت معهم في السيارة بعد خمس دقائق. لم تتفوّه بكلمة ولكن نظراتها كانت تحمل أسئلة كثيرة، أسئلة لا تقل عن الأسئلة التي كان يحملها إسحق في نفسه لكنه آثر الصمت حتى يعرف إلى أين سيذهب، وما هي نهاية هذه الفتاة التي ظهرت له فجأة من عدم...! وما هي حكاية هذه الملايين التي أخبرته بها في المكالمة...! ظل ساهمًا طوال الطريق يفكر في كل هذه الأشياء، والتي فكرت في معظمها دميانة أيضًا حتى طلبت سمر من السائق أن يقف هنا حين وصلوا إلى منزل حسام بميدان المطرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الوقت الذي كان فيه جمال سيراميكة يخرج من الحمام بعد أن آخذ دشًا أنزل فيه غبار السفر وعناؤه من جسده، مُرتديًا جلباب أخيه ويجفف رأسه بمنشفة. كان حسام في المطبخ يطفئ شعلة البوتجاز ويصب فنجان القهوة. طرقت سمر الباب وبجوارها إسحق ودميانة. خرجت أماني من غرفة النوم لتفتح الباب.

وقعت عينا إسحق على حسام الذي خرج من المطبخ ممسكًا بفنجان القهوة، في نفس اللحظة التي انتزع فيها جمال الفوطة من رأسه فوقعت عينيه على إسحق. في نفس اللحظة التي وقعت فيه عينيّ دميانة على جمال. في نفس اللحظة التي وقعت فيه عينا أماني على إسحق...!

لحظة الحقيقة الكبرى...!

كانوا جميعًا واقفين أمام بعضهما البعض.. ران الصمت بينهم لثوانٍ، تبادل فيه الإخوة النظر. ورغم أن جمال وحسام كانا يعرفان أن لهما أخًا توأمًا ثالثًا، وسوف يقابلانه بعد قليل. لكن دهشتهما لم تكن أقل من دهشة إسحق الذي كان واقفًا يتبادل النظر بين جمال وحسام، غير مستوعب ما يحدث. شعر أن حياته من قبل قد حُذِفت تمامًا وأنه مُقبِل على كل ما هو مجهول. كل منهما حين نظر إلى الآخر شعر أنه ينظر إلى مرآة، رغم وجود بعض التغيرات الطفيفة في الوجه أو الهيئة الجسدية أو البنية الجسمانية. والتي لاحظتها دميانة حين رأت جمال وبنيته الجسمانية التي يفتقر إليها زوجها إسحق، الذي يحمل في وجهه وداعة يفتقر إليها حسام. وداعة ورزانة لفتت انتباه أماني جيدًا...!

لأكثر من دقيقتين كان كل منهم يفكر في مئات الأشياء، كل منهم تهاجم رأسه آلاف الأسئلة عما هو قادم. إلى أن ابتدر إسحق بالكلام بعدما أطلق ضحكة قصيرة:

- بالطبع، المفترض أن أبدأ أنا بالكلام، بما أنه من الواضح أنكما تعرفان بعضكما البعض... قالها وهو ينظر إلى توءميه ثم صمت لثانيتين ازدرد فيهما لعابه مُردفًا: - والمفترض أيضًا أن أنتظر أحدكما ليخبرني أنني أخوكما وقد نسيتماني قديمًا في أحد الملاجئ أو الأسواق...! جال بنظره في أرجاء الصالة فوقعت عيناه على آية الكرسي المعلقة على الحائط والمصحف الموضوع فوق المنضدة، مردفًا وهو يضحك ساخرًا: - أو أمام أحد المساجد...

أطرق وهو يحكّ ذقنه وأردف بصوت منخفض: - وفي حالتي أنا سيكون الأمر مختلفًا... ستقولان إنكما نسيتماني أمام إحدى الكنائس...!

لم يُجِب أي منهما عليه، وقعت عينا إسحق على إطارٍ آخر معلق على الحائط لسورة الفاتحة... هز رأسه بهدوءٍ ثم انطلقت منه فجأة ضحكة غير مُستوعِبًا ما يرى. خطا خطوتين نحو حسام الذي لم يصدر منه أي ردة فعل سوى زمّ شفتيه ليس لديه ما يقوله، ظل ينظر لملامح وجهه بعينين ثاقبتين ثم التفت إلى جمال الذي اكتفى بهز رأسه مُحاوِلًا احتواء اندهاش إسحق الذي التفت إلى زوجته وهو يطلق ضحكة أخرى ويشير إليهما بسبابته ثم

أشار إلى آية الكرسي المعلقة على الجدار، أطلق ضحكة أخرى قائلًا لدميانة:

- انتظري قليلًا وحاولي الاستمتاع بهذا الموقف رغم أنهما لا يتكلمان، ربما سيخبراننا الآن أنني مسلم أيضًا. ولم ينفك انتهى من الضحك حتى دخل في نوبة أخرى من الضحك وهو رافع رأسه لأعلى حتى انتهى تمامًا من نوبة الضحك التي انتابته ثم جلس على كرسي خلفه وشرع ذراعيه قائلًا: - حسنًا، فليخبرني أحدكما ما الذي يجري هنا بالضبط...!

وقفت سمر أمامه قائلة ببساطة: - إنهما أخواك يا إسحق، أنتم كنتم ثلاثة تواءم، ووالدك الحقيقي، والذي هو والدنا جميعًا قد باعك لرجل يوم مولدك، وهذا الرجل لا ينجب هو أو زوجته فاشتراك منه يومها...

- وكبرت وأصبحت أنا شماس في كنيسة، وهؤلاء من المؤكد أنهما عاشا في خيرٍ لم أعشه أنا... أليس كذلك؟!

- ليس بالضبط يا إسحق، قالها جمال سيراميكة مقتربًا منه... أستطيع أن أؤكد لك أن حظك أفضل من حظي بكثير، على الأقل أنت تربيت وسط أسرة تعرف أنها أسرتك منذ اليوم الأول حتى الآن، لم تذق يومًا طعم اليتم، لم تذق يومًا طعم الحرمان من حضن الأم، أو حنان الأب... لقد طُردت وأنا في السابعة من عمري، وطوال هذه الفترة عشت مطاردًا مدحورًا يتيمًا... حتى فترة قريبة جدًا حين تعرفت على سمر بالصدفة.

انتقل إسحق بنظره إلى حسام الذي لوّح له بيديه ضاحكًا: - لا تنظر لي، فقد عشت أنا الآخر بلا أب أو أم معظم سنين حياتي... ومنذ ذلك الحين وأنا أعاني مثلما عانى أخي جمال سيراميكة...

- هذا يعني أنه كان من الممكن أن يشب أحدكما ليكون شماسًا بدلًا مني...

- أو كاتبًا فاشلًا فقيرًا معدمًا وموظفًا في وزارة الأوقاف بدلًا مني... أردف حسام

- أو... سكت جمال لهنيهة ثم أردف: أو تاجر مخدرات بدلًا مني...

وسط اندهاش كل من دميانة وأماني مما يروياه ويسمعانه، نظر التواءم إلى بعضهم البعض لثوانٍ ساد الصمت فيها حتى قطعت سمر هذا الصمت: - دعوني أقول لكم إن كل منا شاب على ما شب عليه، دون حتى التدخل في الحال التي أنا عليها الآن، يجب علينا أن نتكاتف ونتفهم هذا الوضع الذي نحن فيه الآن..

- عن أي وضع تتحدثين؟! هل تودين إخباري بعد كل تلك السنين... نظر حوله وضحك ثم أردف.. بعد كل تلك السنين هل تودين إخباري أنني لست مسيحيًا مثلا؟! بل مسلمًا؟! هه؟ وماذا تتوقعين رد فعلي؟!

أجابه حسام: - أن تمتثل لهذا الأمر بالطبع يا إسحق وتسجد لله شاكرًا على نعمة الإسلام و.

قاطعته دميانة خارجة عن صمتها: - نعم؟! هل أنت مجنون؟! نعمة ماذا؟ الإسلام؟ أطلقت ضحكة قصيرة ثم أكملت... معذرة، أخبرني كيف هي نعمة هذه؟

- الإسلام نعمة هذا شيء معروف، وهذا موضوع غير قابل للشك... وأرجوكي لا تتدخلي بين الإخوة، وخصوصًا أنت مسيحية ونحن الثلاثة مسلمون..

- كيف تقول لي ذلك.؟ هل جننت؟!... أنا أتدخل في أي شيء يعنيني أو يعني زوجي.. إسحق سرجيوس كبير شمامسة كنيسة مارجرجس بأسيوط... عن أي إسلام تتحدث؟!!

خطا حسام نحوها مُنفعلًا قاطبًا جبينه فنهض إسحق من الكرسي ممسكًا ذراعه بقوة فاستوقفه وتبادل الاثنين نظرة عدائية اقتطعها جمال في الوقت المناسب مُباعِدًا بينهما: - ماذا تفعلان؟ هل أنتما مجانين؟! نظر إلى حسام قائلًا له والرذاذ يتطاير من فمه:

- ملعون دينك يا حسام... ثم التفت إلى إسحق: - وملعون دينك أنت الآخر يا إسحق...

قطب جبيني كل من حسام وإسحق وهما ينظران إلى جمال، شعرت سمر أن حربًا ضروسًا ستحدث الآن، وأن كل ما توقعت أن تراه لم يحدث فوقفت في المنتصف صارخة: - ماذا بكم؟ هل سنحول الموقف لفتنة وحرب طائفية وننسى ما هو أهم من ذلك؟! بدلًا من أن تكونوا سعداء لأنكم وجدتم بعضكم البعض بعد غياب عقود تتشاجرون هكذا؟!

جلس كل منهم على كرسيه وسأل إسحق: - وما هو أهم من ذلك الذي تقصديه إذن؟ وما هو الشيء الذي أخبرتيني به في المكالمة؟

- لن أتحدث قبل أن تهدأوا جميعًا... التفتت إلى دميانة وأماني ثم استطردت: و....

قالت أماني: - وماذا يا سمر؟! أليس من حقنا أن نعرف الموضوع؟ أبعد كل ما عرفناه وشاهدناه وسمعناه دون أن نفهم شيئًا، تستكثرين علي أنا و...

نظرت إلى زوجة إسحق: - آسفة، ما اسمك يا قلبي؟ فأجابتها: - دميانة يا حبيبتي... نظرت أماني مرة أخرى إلى سمر: - بعد كل ذلك تستكثرين عليَّ أنا ودميانة أن نعرف تفاصيل الموضوع؟! ثم... ثم لماذا أصلًا متأكدين أنكم إخوة بالفعل؟ هل التطابق الكبير في الشكل هذا يثبت ذلك؟

قالت لها سمر بحدة: - أماني، لن أضيع وقتي في الكلام معك، ومن الأفضل لكِ أن تضعي لسانكِ داخل فمك ولا تسمعيني صوتك.. سأخبرك بشيء جيد، لن نتحدث هنا أصلًا.. نظرت إليهما قائلة: - هيا بنا نذهب إلى مكانٍ آخر نتحدث فيه بهدوء..

- ولكني لن أستطيع أن أترك دميانة هنا... قال إسحق وهو ينظر إلى زوجته التي قالت له مبتسمة وبهدوء: - لا تقلق عليَّ يا إسحق، اذهب معهم وسأمكث هنا مع أماني، لكن لا تتأخر عليَّ... فليحافظ عليك الرب ويشملك برعايته.

رغم أن إسحق كان مُندهشًا من رد فعل زوجته لكنه اجتاز تلك الدهشة ونهض، فنهض معه حسام وجمال وهم ينظرون إلى بعضهم البعض بنظرات لا تخلو من شكٍ وريبة...

وخوف مما هو قادم...

ومن المجهول!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان القمر يتجلى بين السحب على استحياء، وظلال المساء قد امتدت في السماء التي اكتست ظلامها ببعض حمرة، ورغم أن فصل الخريف يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكن السحب الكثيفة لم تبخل على حيِّ مصر الجديدة بالأمطار في هذه اللحظة التي تجمّع فيها الإخوة هناك، بالقرب من ميدان تريومف. كانت سمر قد اقترحت أن يجلسا في كافيه بلانت أفريقيا ذي الطابع الإفريقي الجبليّ. لكن جمال اقترح أن يتحدثا في الشارع بعيدًا عن أي مُتلصص مُتطفل في مكانٍ عام مغلق. فوافقوا جميعًا، خصوصًا إسحق الذي وقف مأخوذًا بجمال وعظمة كنيسة تريومف الشامخة ذات الطابع القوطيّ، والذي ظل موليًا وجهه شطرها حتى قطع تفكيره حسام:

- أتمنى من الله أن يهديك للإسلام بحق يا إسحق.. فأنت أخي وأخاف عليك من أن تحيا في النار خالدًا أبدًا...

استدار إسحق له قائلًا: - هل من الممكن ألا نتحدث في مسألة الدين هذه الآن؟! بينما كان جمال يخرج سيجارة من علبته فأشارت له سمر أن يعطيها

واحدة. ففعل ومد يده إليها بالولاعة ليشعل لها السيجارة. حينها قال حسام ساخرًا:

- ماشاء الله، أخ يشعل السيجارة لأختـ...

قاطعته سمر وهي تنفث دخان سيجارتها: - هل تعلم يا حسام؟ ندب النساء الثكلى هذا هو الذي سيجعلنا نفشل في مهمتنا وسيدخلنا كلنا السجن...

رمقه جمال أيضًا بنظرة ارتعد منها كالعادة فوضع يده على فمه مشيرًا أنه لن يتفوه بكلمة...

ساد الصمت بينهما للحظات قبل أن تتحدث سمر موجهة كلامها إلى إسحق: - اسمعني جيدًا يا إسحق، أنت الآن أمام أمرٍ واقع، أنت أخ ثالث لتوأمين، وهم جمال وحسام... وكل كلمة سمعتها منذ قليل كانت صحيحة. والقدر وحده هو من جمعني بسيراميكة و..

قاطعها إسحق: سيراميكة من؟!

- جمااااال... جمال سيراميكة... قالتها وهي تشير إليه... أنتم ثلاثة تواءم، وهولاء إخوتك، مسلمين، مسيحيين أو حتى يهود أولاد ستمائة كلب لا يهم إطلاقًا... المهم الآن هو أنني أريدك أن تعلم أن والدنا قبل أن يموت أخبرني أنه يوجد كنز بملايين، يقبع تحت أحد المباني المشهورة جدًا في الإسكندرية. هذا الكنز قد تركه جدكما من الأم، رحمها الله. وهو من حقنا. وأمامنا طريقان لا ثالث لهما... إما أن نستمتع بعودتنا لبعضنا البعض ونصافح بعضنا البعض وكل منا يذهب إلى حال سبيله ويستكمل حياته.. وإما أن نتكاتف للحصول على هذا الكنز، دون أي مساعدة من أحد. لنحصل عليه ونتقاسمه بما يرضي الله. وتتغير حياتنا ثلثمائة وستين درجة؟

صاح حسام: - لو تغيرت حياتنا ثلثمائة وستين درجة سنعود إلى ما كنا عليه أيتها الغبية، تسمى مئة وثمانين درجة.

صاح فيه جمال غاضبًا..: - لماذا يا حسام لم يبعك أبونا يوم مولدك بدلًا من إسحق؟! لماذا لم يبعك لتاجر أعضاء بشرية يقتلك ويريحنا جميعًا منك؟!

أشار بيديه معتذرًا ووضع يده على فمه مرة أخرى مشيرًا أنه لن يتفوه بكلمة...

سحبت سمر نفسًا أخيرًا من السيجارة ثم ألقتها في منتصفها قبل أن تدس يدها في حقيبتها وتخرج خريطة وتلوح بها أمام وجوههم وهي مبتسمة ابتسامة ظفر...: – هذه هي الخريطة يا أحبائي.. التقطها جمال ونظر لها بعينين توقدتا حين رآها رغم أنها ليست سوى خريطة أولا وأخيرًا... لكنه

اشتم رائحة الثراء حين أمسكها ونظر إليها حين وقف إسحق على يمينه وجمال على يساره ينظران إليها أيضًا...

- هل هذا هو مبنى حقوق المرأة؟ سألها جمال

- لا... مبنى بنك الإسكندرية. آآآآه.. آه لو تعلم يا جمال كم مرة جلست على الكورنيش أمام هذا البنك وأنا أنظر إليه، أود أن أحصل على طاقية الإخفاء واقتنص هذا الكنز.

قال حسام متندرًا: - حتى لو ارتديت طاقية الإخفاء... كيف ستحصلين عليه وهو تحت الأرض؟

- وكيف علمت أنه تحت الأرض يا حسام؟ سأله إسحق بتوجُّس

- كنز... اسمه كنز.. هل سمعت في حياتك عن كنز وضعه صاحبه فوق الأرفف في مكانٍ عام؟ من المؤكد أن يكون مدفونًا...

- ألست كاتبًا يا حسام؟ سألته سمر فهز رأسه لها مؤكدًا، فأكملت: - وقرأت كتبًا كثيرة؟! هز رأسه مرة أخرى مضيفًا وهو رافع سبابته بفخر: - وروايات أيضًا.

- جيد جدًا، قالتها قبل أن تلتفت إلى سيراميكة قائلة: - وأنت يا جمال ألست لديك خبرة في مجال السطو والسرقة ومراوغة الشرطة وفي مجال الجرائم بصفة عامة؟!

- نـ... نعم، ولكن... مما لا شك فيه أنني لست معتادًا على الحفر للحصول على كنزٍ كل ثلاثاء، ثم أنني لم أسط على بنك من قبل...! هذا بنك في أكبر ميادين الإسكندرية وليس بنك الحظ...!

التفتت سمر إلى إسحق الذي ابتعد عنهم خطوتين للوراء قائلًا: - لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟! ومن أدراكم أنني سأشترك معكم في هذا الهراء أصلًا؟! أنا رجل دين، وليس لديَّ خبرة في شيء سوى الترانيم وإدارة بعض أمور الكنيسة... ماذا أمتلك من الخبرة التي تمتلكونها أنتم كي أسرق بنكًا أو أخطط لعملية سطو أو أحمل نصف ما تحملينه أنت من دهاء يا سمر... ابتعد خطوة أخرى مندهشًا وهو يضرب كفًا بكف ثم استدار موليًا وجهه إلى الكنيسة، ناظرًا بفؤادٍ مُضطرب إلى المسيح المنتصب في منتصفها من الأعلى، شارعًا ذراعيه على امتدادهما: - يا يسوع، فلتشهد أنني يوم أن أكتشفت أن لديَّ إخوة، عرفت أنهم قاتلون وسارقون و...

- اسمع إذن يا سيادة القس الأعظم بابا الفاتيكان.. قالها جمال سيراميكة مُنفعِلًا، صرخت السماء وأصدرت برقًا ورعدًا حين اقترب منه وأمسك

بذراعه...: - من الواضح أننا كنا مُخطئين حين قررنا البحث عنك والاستعانة بك، ولو كنا نعرف من البداية أنك ستفعل ذلك لما بحثنا عنك أو بذلنا ذلك المجهود الشاق وسافرنا هنا وهناك لنجدك... لم نكن نعلم أنك هكذا قط...

أضاف حسام: - أنت حتى حين علمت أننا إخوة لم تركض إلينا وتأخذنا في حضنك أو ترتمي في حضننا بالتصوير البطيء فنسمع في الأرجاء موسيقى صارخة مُعذبة مثلما نرى في الأفلام الهندي.. رغم أنني من الأساس كنت سأفكر ألف مرة قبل أن أعانقك... ولكنه الحظ السيء الذي ألقى بك في سكتنا، أو العكس لا فارق...!

- شكرًا لكم جميعًا... شكرًا لكم يا إخوتي... شكرًا.. قالها قبل أن يلتفت مرة أخرى موليًا وجهه للكنيسة، فلمعت السماء مرة أخرى بالبرق تبعه هدير الرعد المخيف:

- يا يسوع؛ فلتشهد أنني لن أشترك معهم في ذلك الاثم، أعلم أن هذه الأمطار ليست إلا دموع انتحابك... لا تخف يا مُخلِّص، لن أقع في شراكهم. وهم إخوتي على أيه حال... فلتصفح عنهم..

قالها ثم رحل مُمسِكًا هاتفه ليرسل لدميانة رسالة «كلمني.. شكرًا»...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المطرية...

- يعلم الرب كم ارتحت إليكِ وإلى الحديث معك يا أماني... لقد ارتحت كثيرًا بعدما حكيت لكِ عن كل شيء كان يؤرقني..

- وأنا أيضًا يا حبيبتي... ارتحت إليكِ جدًا، ولم أشعر بأي حرج حين حكيت لك عن كل شيء... ومن الواضح أننا نحن الذين كنا نبحث عن بعضنا البعض، وليس هم.

- هاه هاها نعم.. أتفق معك في...

قطع حوارهما الحميميّ هاتف دميانة الذي استقبل رسالة، فأمسكته قائلة لأماني وهي تلوي شفتيها: - إنه المحروس...! اتصلت به:

- آلو.. نعم يا حبيبي... هل لحقت أن تجلس معهم أصلًا؟! حسن حسن... مع السلامة

أغلقت المكالمة وقد لوت شفتيها مرة أخرى قائلة لأماني..: - سأذهب الآن لأقابله عند الفندق... من الواضح أنهم تشاجروا مع بعضهم البعض، ولكن أيًا كان، فلن تنقطع اتصالاتنا...

- طبعًا يا حبيبتي...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد رحيل إسحق...

حاولت سمر الاتصال به لكنها وجدت هاتفه مشغول، وحتى بعد أن أغلق المكالمة مع زوجته رفض استقبال مكالمتها، فكرت قليلًا وطلبت من حسام رقم أماني، فأملاها الرقم واتصلت بها في الوقت الذي كانت فيه تصافح دميانة وتودعها...

- ألو.. أماني.. هل دميانة لا زالت معك؟!

- نعم... إنها ترتدي حذاءها لترحل... لماذا؟

- اعطيها الهاتف، أريد أن أتحدث معها... أعطت أماني الهاتف إلى دميانة فقالت لها سمر: - دميانة، حاولي أن تقنعي زوجك أن يشترك معنا فيما ننتوي فعله... لأنه إن لم يفعل سوف يندم ندمًا شديدًا... فهذا خير لك قبل أن يكون له، إنها ملايين وليست مئات أو آلاف الجنيهات.. هل فهمتيني؟

- نعم فهمتك... أنا أتوقع من هذا المنحوس البائس أي شيء.. عمومًا اتركي هذا الأمر لي... وسآخذ رقمك من أماني وسأرسل لكِ رسالة برقمي...

- حسنًا، انتظري، لقد تذكرت... رقمي ستجدينه عندك في قائمة المكالمات الواردة، لأنه اتصل بك منه حين قابلته عند الفندق... مع السلامة...

بعد أن أغلقت سمر المكالمة مع دميانة طلبت من جمال سيجارة، فأخرج واحدة وأشعلها وأعطاها لها، قالت له وهي تدسها بين شفتيها: - وأنت، ألم تشعل لنفسك سيجارة؟

لا، فقد أطفأتها للتو، المهم.. ماذا سنفعل تجاه هذا المخبول؟

أخذت نفسًا سرعان ما زفرته بانفعال وتوتر: - لا تقلق، حين تكون الأمور في يد امرأة، اعلم تمامًا أنها ستسير على ما يرام. وخصوصًا حين تكون زوجة قوية زنانة مثل دميانة...

- قوية زنانة مثل دميانة... يالها من قافية رائعة... أقترح عليكِ أن تكتبي شعرًا يا سمر.

نظرت له شزرًا قبل أن تمد يدها له بالسيجارة قائلة: - اقترح أنا عليك أن تضع هذه السيجارة في عضوك وتصمت... هيا اذهب إلى البيت الآن... ضربت جمال على مؤخرته ضربة خفيفة: - وأنت يا جمال... ماذا ستفعل؟

- لا شيء، سأذهب لأنام بعد أن أطمئن على وصول الشحنة الجديدة القادمة من الجزائر عبر ليبيا. وغدًا سنتحدث

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منتصف الليل...

كان الليل قد بدأ في بسط ظلّه الحالك بعد اختفاء القمر تمامًا بعدما حجبته السحب. لم ينم أحدٌ في هذه الليلة، سهروا جميعهم كل في مكانه يفكرون فيما سيحدث. وفيما سيفعلونه. بعدما تركتهم سمر ذهبت إلى شريف الكردي الذي اتصل بها عدة مرات طوال اليوم لكنها لم تجبه. ما إن سمع طرقها هرع إلى الباب ودخلت، أمسك ذراعيها بكفيه وأخذ ينظر لها بعينين مُلتاعتين باسمًا قبل أن يلفّها بحضنٍ عميم وضمها بقوةٍ واضطرام، حضن أزاح كل التعب الذي سكن جسدها، ليس اليوم فقط ولكن في الفترة الماضية.

- أين كنتِ يا حبيبتي، لقد كنت قلقًا جدًا عليكِ.

- لا تقلق عليَّ يا شريف فأنا بخير، كل ما في الأمر أنني كنت مشغولة.

- هل استطعت الوصول إلى أخيكم الثالث؟

- نعم، ولكن المحروس روح أمه لم يكن متجاوبًا ومتعاونًا معنا...

تجرع قليلًا من التكيلا والتقط ورقة «بفرة» ليفرش عليها تبغًا مختلطًا بقطعة حشيش: - سمر، هل أنتِ متأكدة من موضوع الصندوق هذا؟! أنا قلق جدًا عليكِ من هذا الموضوع.

- وماذا عليَّ أن أفعل؟ هل تعتقد أنه سيهدأ لي بال لو لم نقم بتلك المجازفة والمخاطرة؟ إنها ملايين يا شريف، من المحتمل أنك لا تشعر بما أشعر به لأنك لا تحتاج إلى أموال أكثر من التي معك. لكني ذقت طوال حياتي طعم المرّ والحرمان والذل. لن أترك هذه الفرصة تضيع من بين يديّ قط. لقد انتظرت تلك اللحظة سنين طويلة...! لحظة أن أكون ثرية.

بعدما لفّ السيجارة قرَّبها من لسانه ليبللها ويحكم إغلاقها: - وهل تعتقدين أن إخوتك سيعطونك حقك ويقتسمون معك هذا الكنز بما يرضي الله؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن انتهت أماني من أخذ حمامها خرجت عارية وجلست أمام حسام الذي كان سارحًا تمامًا في أمر هذا الصندوق، مدّت إليه يدها الممسكة بالمشط وأولته ظهرها طالِبة منه أن يصفف شعرها فأمسك المشط شاردًا وأخذ يصففه ببطيء وهو بَعْدُ يفكر في الأمر، سألته أماني عن تفاصيل هذا الموضوع لكنه لم يعرها أي اهتمام، لم يرد عليها من الأساس وكان عقله غائبًا عنها في تفكيره بأمر هذا الكنز اللعين، كررت عليه السؤال مرة أخرى

لكنه لم يرد عليها أيضًا. استدارت مُنفعِلة فلفتت انتباهه: - ألم تسمعني يا حسام؟! هل كنت أسأل أمي كل تلك الأسئلة؟

- ماذا بكِ يا أماني؟! أرجوكِ اتركيني في حالي الآن، فبالي مشغول بملايين الأمور...

ألقى بالمشط جانبًا فنهضت واضعة يديها على خصرها: - آها... طبعًا، فأقل رقم أصبحتم تستخدمونه الآن هو المليون.. انت وسمر وباقي إخوتك الذين انشقت عنهم الأرض فجأة.

- لا تقاطعين، وادعي الله عز وجل أن يعيننا فيما نحن مقبلون عليه ويتممه على خير، وأعدك أنني لن أخونك بعدها أبدًا.. نهض وأمسك يدها في حنوٍ، فظنّت أنه سيطلب مجامعتها لكنه سألها هل نقضت وضوءها فأجابته بالنفي، فأخبرها أنه سيدخل الحمام ليتوضأ حتى ترتدي ملابسها ويصلي بها العشاء جماعة. فأومأت رأسها بالإيجاب مُبتسِمة وفي نيّتها أنها ستدخل غرفة النوم وتتظاهر بالنوم كي لا يوقظها وتصلي معه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل انتهيت من صلاتك يا إسحق؟

لم يرد عليها، ليس لأنه واقفًا أمام مذبح الصلاة الذي صنعه في إحدى زوايا الغرفة، بل لأنه شرد في ديانته التي ليست ديانته، وأهله الذين عاش معهم كل تلك السنين وقد كذبوا عليه، وكل حياته التي ليست إلا كذبة كبيرة، كذبة تعاون الكل في حبكها تآمرًا عليه... شرد في إخوته الذين ظهروا من الخواء فجأة. كم كان يتمنى أن يكون له ولو أخٍ واحد، أو حتى أخت. وفجأة اكتشف دون سابق إنذار أن لديه أخين توأمين وأختًا. لا يدري هل يتهلل لأنه اكتشف ذلك. أم يحزن لأنهم حين جاؤوا وجد معهم مشاكل كثيرة وطرق شائكة ملتوية لا يعلم نهايتها سوى الرب. أخذ يلوم نفسه برفق، كيف نسى أن يسألهم عن أبويه الحقيقيين، أو حتى طلب صورة لهم على أقل تقدير. أطرق رأسه وقد أذرفت عينيه عن دمعتين كانتا عالقتين لأربع دقائق. مُحدِّثًا نفسه: - ملعون هذا المال الذي ينسيني شيئًا كهذا. ملعون هذا الكنز الذي جعلني يوم أن اكتشفت إخوة لي يكون نفس اليوم الذي أختلف فيه معهم. ملعون هذا المال الذي لم أملك منه سوى القليل طوال عمري. وجعلني محرومًا أقتات على مرتب صغير ومعونات الكنيسة. هل سأسافر غدًا أم سأبقى حتى أتأكد أنني لست بحاجة لإخوتي أو كنزهم. هل..

انتزعته دميانة من شروده حين كررت سؤالها بصوتٍ عالٍ: - هل انتهيت من الصلاة يا إسحق؟! فأجابها منفعلًا بصوت أعلى

- وماذا ترين؟!! هل تريننى أمامك أرقص أم أصلي؟!

- وهل هذه وضعية شخص يصلي؟! ولم أر شفتيك حتى تتمتم!! أين خشوعك يا نيافة الأنبا؟!

لم يرد على سخريتها مُكتفيًا بالنظر إليها بامتعاض قبل أن يدخل غرفة النوم، دخلت وراءه وقد ارتدت قميص نوم مثير وجلست أمام مرآة التسريحة التي يفتقدون مثلها في غرفتهم الضيقة، وضعت بعض مساحيق التجميل على وجهها ورشّت عطر قبل أن تقبل عليه مُتهادية فاتسعت عينيه رعبًا حين رآها قد أعدت نفسها على أكمل وجه. ودعا ربه ألا تحاول مداعبته أو طلب أي شيء خوفًا من الفشل كالمعتاد... غير أنها اقتربت منه ليس لشيء سوى لتسأله عما انتوى فعله تجاه إخوته... فأجابها مُنفعلًا: - لا تتحدثين معي في هذا الموضوع قط...

- لماذا؟! الرب أرسل إلينا هدية من ملكوته، هل نرفصها ونرفضها أم نستغلها لتتغير حياتنا يا رجل؟!

- هل تريدين مني أن أسرق يا دميانة؟! هل هذه هي تعاليم المسيح التي تعلمتيها في الكنيسة؟!

- مسيح؟ مسيح من وأنت أصلًا مسلم؟! قالتها وهي تضحك لتلطف الجو، فنهض من أمامها مزمجرًا وجلس في الخارج. لحقت به وأخذت تعبث في شعر صدره النحيل:

- يا حبيبي، أولًا لا يهم ديانتهم في شيء، ثانيًا هذه ليست سرقة، إنه حقكم جميعًا، ويجب عليك أن تشاركهم فيه. حتى نستطيع تغيير حياتنا للأفضل، ونحصل على علاج لحالتنا وأيضًا لننجب أطفالًا رائعين يخدمون الكنيسة التي تحبها وأحبها أنا أيضًا. ونعيش هنا في القاهرة في شقة كبيرة واسعة ونستريح من هذا الهم الذي نراه من عائلة سرجيوس القذرة... والمسيح الحي أن هذا الموضوع هبة مرسلة إلينا من سماوات الرب.

نظر لها محاولًا إقناع نفسه بما قالته دميانة، وبرغم أنه اقترب من الاقتناع لكنه لم يبيّن لها ذلك وخرج من الغرفة ليفكر في الأمر حتى توصّل إلى قرار حين غاب في سباته...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي – الساعة الحادية عشرة صباحًا

بينما كان شريف الكردي في الحمام يأخذ دش، نهضت سمر من النوم مُتثاقِلة وأمسكت هاتفها لتتصل بجمال الذي أخبرها أنه في الطريق الآن إلى

البنسيون الذي نزل فيه إسحق، وسيظل وراءه إلى أن يوافق على الاشتراك معهم. ويوفّق بينه وبين حسام.

حين أغلقت الهاتف نادى عليها شريف من داخل الحمام: - ألن تأتي يا سمر، ثمة كلام كثير لم ننته منه ونريد أن نستكمله...

قالت له ضاحكة: - معذرة يا حبيبي، لا أستطيع أن أبرح مكاني، فالأيام القادمة كثيرة، بالإضافة إلى أنني أنهكت من كلامك طوال الليل... أرجوك اتركني لأنام ساعتين حتى يتصل بي أحدهم...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بنسيون تيوليب الطابق الأرضي

حين فتح إسحق جرجس سرجيوس باب المصعد وخرج منه وجد أمامه جمال يسأل عنه موظف الاستقبال الذي دُهِش حين رآهما وأخذ يتنقل بعينيه بينهما، لم يعطياه فرصة الاندهاش وصافحا بعضهما البعض وخرجا. همَّ جمال ليتحدث إليه فقاطعه إسحق: - لا تتفوّه بأي كلمة يا أخي، أنا وافقت...!

كانتا مجرد كلمتين قالهما إسحق وفَّر بهما كلامًا كثيرًا كان سيقوله جمال، والذي نظر إليه مبتسمًا وفي قلبه فرحة عارمة، اتصل بسمر ليخبرها بما حدث قبل أن يأخذ إسحق في سيارة أجرة متوجهًا إلى حسام محاولًا تقريب وجهات النظر، وإزالة أي خلاف او اختلاف بينهما... انتهت جلستهم بالعناق والصفح والمصافحة. كان هذا حين جاءت سمر في حوالي الساعة الثانية ظهرًا...

دخلت أماني غرفة المعيشة حين نظرت لها سمر تستأذنها كالعادة أن تتركهم ليتكلموا على انفراد.. فتركتهم مزمجرة متأففة. أغلقت سمر باب الغرفة عليهم قبل أن تدس يدها في حقيبتها وتخرج الخريطة وورقة وقلم قبل أن تسحب منضدة موضوعة في الزاوية ثم تجمع الإخوة حولها كأنها ستعطيهم درس خصوصي. حتى أن حسام لم يترك موقف كهذا دون أن يضيف أي إضافة سخيفة قائلًا: - وهل لديكِ فرخ كربون أم سينزل أحدنا ليشتري؟!

جال بنظره عليهم فوجدوهم ينظرون إليه دون أن يضحك أحد، فشعر بالإحراج لوهلة، لكنه رغم ذلك أردف: - طيب، طالما لا يوجد كربون فسنضطر إلى تصوير ما ستكتبيه ثلاث نسخ وسآخذ أنا الأصل.

لم يضحك أحد أيضًا، فردت عليه سمر بحدة: - كما ترى، لم يضحك أحد.. هل انتهيت من دعاباتك وتأكدت أن دمك ليس خفيفًا أم مازال لديك المزيد؟!

تمتم على استحياء: - لا... تفضلي...

علّقت نظرها عليه لثوانً في حين كان كلا من إسحق وجمال يتبادلون نظرات قلقة فيما بينهم ثم استطردت سمر: - كما أخبرتكم من قبل؛ لطالما جلست على شاطيء البحر في محطة الرمل وأنا أنظر بالساعات إلى المبنى المدفون تحته الصندوق، ولطالما فكرت في كيفية اقتحام هذا المبنى... أو بالأحرى كيفية الحصول على حقنا الراكد بأسفله في سلام.

سألها إسحق: - وما الذي أدراكِ أن هذا الصندوق ما زال موجودًا؟! ومن الممكن جدًا أن يكون المبنى قد هُدِمَ وبني فوقه هذا المبنى الذي تريه.

- هذا المبنى في حد ذاته يعد من الآثار، ولم يُهدَم من قبل... بل كل ما حدث فيه هو بضعة تجديدات وترميمات من الداخل والخارج. ودعني لا أصارحك.. من الممكن جدًا أن يكون قد حصل عليه أحد إن حفر في هذه النقطة مسافة أربعة أو خمسة أمتار للأسفل. وهذا وارد بنسبة عشرة بالمئة.

- وما الذي جعلك متأكدة هكذا؟ ومن أين أتيتِ بهذه النسبة؟! سألها إسحق

- يقول الخطاب الذي أخبرني والدنا بفحواه أن الصندوق بداخله سيف الاسكندر الأكبر وبعض من متعلقاته، ولم أسمع عن هذا السيف قط.

أضاف حسام: - ومثلما قالت سمر من قبل وقد كانت محقة في ذلك، فلو حصلت عليه الدولة لكنا سمعنا أنه الآن في أحد المتاحف. وإن كان قد حصل عليه أي شخص آخر فعلى الأقل سيبيعه وكنا أيضًا في هذه الحالة سنسمع أنه في أحد المتاحف بالخارج.

أشارت إليه سمر بسبابةٍ مُتصلِّبة: - أرأيت كيف إن تحدثت بجد تظهر جاذبيتك في الحال؟! أرجوك لا تتحدث بعد ذلك إلا مثلما تحدثت الآن.. كن كذلك دائمًا.. أرجوك!

- جاذبيتي تظهر دائمًا في أي... قاطعته سمر بجدية وحزم وهي تبرق عينيها حين شعرت أنه سيستأنف سخافاته: - والآن سنستكمل كلامنا... هل عند أي منكم اقتراح فيما سنفعله؟

- ليس أمامنا حل سوى الحفر دون أن يكتشفنا أي شخص... قالها جمال وإسحق في آنٍ واحد، بينما أضاف حسام على كلامهما إضافة ليس لها أي لازمة: - دون أن يشعر بنا أي مخلوق...!

وضعت سمر القلم: - أعتقد أيضًا أننا نحتاج لدراسة المكان هناك دراسة مُتأنّية، ونتفحصه جيدًا.

قال إسحق: - هذا سيتطلب منا أن نسافر إلى الإسكندرية في القريب العاجل ونبدأ في التقصي والبحث والعمل.

أسندت سمر ظهرها إلى مسند الكرسي واضعة قدمًا فوق قدم قائلة وهي تلوّح بيديها: - حسنًا... أنا أحب الحركة... ما رأيكم؟!

نظروا إلى بعضهما البعض. لم تترك سمر لهم أيّ خيار، نهضت مقترحة أن يذهبوا الآن، وبالفعل استقلوا سيارة أجرة إلى محطة رمسيس ومن هناك أخذوا ميكروباص إلى الإسكندرية...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة السابعة وأربعة وثلاثون دقيقة

الإسكندرية - محطة الرمل

ما إن وطأت قدميهم موقف سيدي بشر شعر حسام أن بطنه تقرقر فأخبرهم أنه جائع فشعروا جميعًا أنهم أيضًا جائعين مثله وقد كانوا منشغلين عن جوعهم بالتفكير فيما سيفعلوه للحصول على منالهم. ركبوا تاكسي إلى محطة الرمل ودخلوا مطعم لوميتروبول ذو الطراز الكلاسيكي القديم، والذي يتصدر بوابة الدخول فيه أربعة أعمدة على النظام اليوناني يعلوها تيجان كورنثية، زاد بهاءهما الإضاءة المثبتة أسفلها لتلقي عليها ضوءًا مائلًا إلى الإصفرار.

استقبلتهم بابتسامة مُضيفة ممشوقة القوام ترتدي يونيفورم أحمر قاني في أبيض، أصطحبتهم بلباقة رفيعة إلى منضدة في منتصف الصالة لكن سمر أشارت لها إلى منضدة شاغرة بجوار نافذة مُطِلّة على الشارع، فأجلستهم المضيفة عليها وأخبرتهم بأدبٍ جم أن النادل سيأتي حالًا. لم تكد تمر دقيقتين حتى جاء النادل مُنحنيًا لهم تحيةً وهو يوزع عليهم قائمة الطعام. طلبت سمر روز بيف بالمشروم بينما طلب كل من حسام وسيراميكة كفتة مشويّة، أما إسحق طلب لحم خنزير بالمشروم وصوص الباربيكيو فرمقه حسام شزرًا بينما سمر وجمال لم يأبها لما طلبه.

نظرت سمر ولهى بعينين ممتلئتين بشوقٍ ولهفة إلى مبنى بنك الإسكندرية «آهٍ لو تعرف كم أحبك.. وكم أشتاق إليكً»... قالت في قرارة نفسها وهي مُعلّقة عينيها عليه حتى جاء النادل بعد عشر دقائق بالطعام، أكلوا في عجالة. وكالعادة، كانت سمر أول من انتهى من تناول طعامها قبل أن تنادي على النادل لتطلب بيرة هينكن تركيز كحول اثنتا عشرة بالمئة. فأشار لها جمال أن تطلب له مثلما طلبت لنفسها. بينما طلب كلا من إسحق وحسام قهوة...

لم تكد تمر خمس دقائق حتى أتى النادل بالمشروبات التي انتهوا منها بسرعة قبل أن تطلب سمر الشيك الذي كان يحمل همّه كلا من حسام وإسحق... حين أتى النادل بالشيك عرض عليها سيراميكة أن يدفع هو لأنه يعلم أن المبلغ سيكون باهظًا فأومأت بعينيها أن لا... ودفعت قيمته في هدوء وأعطته للنادل مُبتسِمة وهي تشير له أن يحتفظ بالباقي... ورحلا...!

عبروا الشارع قاصدين المبنى المقصود، مرورًا بكشك الترام القديم والمقام خلفه جدار كبير به لوحة مرسومة بالفسيفساء لا ملامح لها ولا شكل محدد بالنسبة إلى الواقف بالقرب منها، لكن من بعيد يتضح أنها لوحة رائعة تعرض

وجه سيد درويش. أكملا المسير حتى مروا بجوار أربعة رؤوس لتماثيل سقراط وأفلاطون وأثينا إلهة الحكمة وابن خلدون. أسفلهم يجلس اثنين من المتسولين الذين اتخذوا هذا المكان مسكنًا دائمًا لهم...! أكملوا المسير أربعين مترًا حتى وصلوا أمام المبنى فوقفوا أمام بوابته مباشرة. منذهلين من أن هذا المبنى كان من الممكن جدًا أن يكون ملكًا لهم اليوم إن لم يتم مصادرته للدولة. ولكن هذا لا يهم، فقيمته الحقيقية فيما يقبع أسفله وليس فيه.

أخذوا بجمال المبنى المطل بفخرٍ وزهوٍ على البحر الأبيض المتوسط وأعمدته أيونية البدن وكورنثية التيجان. كان قائمًا بشموخ كمعبدٍ يوناني فوق سفح هضبة الأكروبوليس. أخرجت سمر هاتفها الآيفون ذو الكاميرا عالية الجودة، والذي أخذته من شريف. صوّرت المبنى عدة صور. كان يمين المبنى حديقة مُلحقة به مساحتها عشرة أمتار عرض وأربعون مترًا طولًا تقريبًا.. يسار المبنى عمارة قديمة تفصلها عن المبنى شارع عرضه خمسة أمتار مثبت على ناصيته لافته زرقاء مكتوبًا عليها شارع فخري، بجوار هذه اللافتة العمارة القديمة المطلة على البحر وقد تم تجديد واجهتها وترميمها من قبل محافظة الإسكندرية كي يضيفوا جمالًا إلى كورنيش الإسكندرية. وقفوا عند هذه العمارة فوجدوا أنه من المستحيل استخدامها لوجود مطعمين مشهورين في الطابق الأرضي. التفوا خلف المبنى فوجدوا أنه يجاوره من الخلف عمارة أخرى مكونة من أربعة طوابق لكنها لم تحظ بنفس ما حظيت به من ترميم كالعمارة المطلة على البحر. أسفل هذه العمارة يوجد محل مغلق، معلق فوقه يافطة عمرها أكثر من ثمانون عامًا تقريبًا، مطموس معظم ما كان مكتوب فوقها. لكن سمر استبطت أن هذا المحل كان قديمًا يبيع الخمور، وكان اسمه أورفانيدس، أرمانيوس، أورفانيس... أو شيء من هذا القبيل...!

أشارت لهم سمر أن يبتعدوا عن العمارة ليستطيعوا التحدث بأريحية وكي لا يلفتوا انتباه أحد، فوقفوا بجوار جدارية فسيفاء سيد درويش حين ابتدرت بالتحدث:

- الكلام في القاهرة داخل منزل حسام كان سهلًا، لكن أعتقد أنكم الآن لمستم جيدًا أن الأمر غاية في الصعوبة... أليس كذلك؟

لم يجيبوا، نظروا فقط إلى بعضهم البعض وهم يزدردون لعابهم وقد بدا القلق على ملامحهم... أردفت سمر: - حسنًا، أنا أحب الكلام... هل لدى أحد منكم ما يريد قوله؟!

تنحنح إسحق قائلًا: - يوجد عطلة بعد ثلاثة أيام، وبذلك سيكون البنك مغلق جمعة وسبت وأحد.. أعتقد أننا نستطيع دخول البنك غدًا الخميس لنعاينه جيدًا، ونحاول أن نحدد النقطة التي يقبع تحتها الصندوق.. نحددها تمامًا.. ثم نتواجد بشكلٍ أو بآخر في هذه الأيام ونبدأ الحفر و...

قاطعه حسام: - كيف سنتواجد؟ هذا بنك، وبه أفراد أمن طوال أيام الأسبوع..

- حتى في الأعياد؟! سأله إسحق مندهشًا

- حتى لو حلّ يوم القيامة نفسه، ستجد به أمن... اسمعوا... قالها حسام وهو ينظر إليهم جميعًا بعينين شاخصتين.. سنحاول تأجير هذا المحل المغلق من صاحب هذه العمارة التي بجوار البنك وكما ترون فيفصلها عن البنك هذا الشارع الذي يدعى فخري، ولو حفرنا تحته سيزيد طول النفق عن خمسة عشر مترًا على ما أعتقد... سنحدد المسافة بالضبط حين نعاين البنك من الداخل ونحسب المسافة بالكامل... وحين نؤجر المحل نبدأ الحفر في الحال.

أشارت له سمر: - نعم... هذا ما كنت سأقوله بالضبط... هل لدى أحدكم ما يضيفه؟!... أومأ كلا من إسحق وحسام أن لا ليس لديهم شيئًا ليضيفوه... استطردت: - حسنًا، سندخل غدًا البنك أنا وسيراميكة فقط، ونجلس كأننا عملاء عاديّين جدًا، ونحدد النقطة بالتحديد ونحاول احتساب المسافة بالضبط. وادعوا معي أن يوافق صاحب العقار أن يؤجر لنا هذا المحل البائس.

- ونحن؟! سأل حسام وإسحق في آنٍ واحد... فأجابتهم: - أنتم ستقابلون المالك وتقنعونه أن يؤجر لنا هذا المحل.

- وأين سنبيت هذه الليلة؟! سأل حسام فأجاب إسحق: - سنبيت في إحدى الشقق المطلة على البحر بمنطقة ميامي. فأنا أريد الذهاب هناك منذ أكثر من عشرون عامًا، وكنت أسمع كثيرًا من جيراني يذهبون هناك حين يريدون أن يصيّفوا في الإسكندرية..

قاطعته سمر بانفعال: - هؤلاء ذهبوا ليصيّفوا لا من أجل الحصول على صندوق به مئات الملايين قابعًا تحت الأرض...؟! اسمعوا، سنحجز في هذا الفندق... قالتها وهي تشير إلى فندق شتايجنبيرج ألمانيّ الطراز. شهق حسام قائلًا: - ومن أين سنأتي بالمال للحجز في هذا الفندق الفخم؟!

أجابته بابتسامة سمجة: - سأدفع لكم ثم ردوا لي المبلغ بعدما نحصل على الملايين..

دخلوا الفندق ألمانيّ الطراز في الواجهة، والذي يعلوه لافتة مكونة من حروف اسمه المضاءة باللون الأحمر لتتجلى سحرها في السماء بالليل. شهقوا واتسعت أعينهم حين دخلوا ولم يجدوا إلا الكمال والجمال مبثوثًا في كل الأنحاء، زوايا رخامية مزخرفة تزين سقف بديع مزخرف أيضًا ويتدلى من مركزه نجفة ضخمة لتزيد البهو سحرًا فوق سحره، وقد شعروا لوهلة أنهم قد انتقلوا إلى أحد فنادق أوروبا المهيبة، عالم آخر غير هذا العالم الذي بالخارج. ساروا على الأرضية اللامعة المكسوة ببساطٍ أحمر طويل يؤدي إلى مكتب استقبال يقف فيه أربعة موظفين. طلبت سمر من أحدهم حين استقبلهم بابتسامة أكثر سماجة من تلك المعتادة أن تبتسمها، طالبة منه أن يحجز لهم غرفتين، واحدة ثلاثية لهما والأخرى مفردة لها... ثم دفعت قيمة حجز أسبوع قائلة للموظف أنهما ربما يمدّون هذا الأسبوع، فأخبرها مبتسمًا نفس الابتسامة أنه يجب عليها أن تخبرهم إن كانت ستمد المدة قبلها بيومين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي

كما اتفقوا جميعًا؛ ذهب كل من إسحق وحسام إلى العمارة كي يتفقا مع مالكها على تأجير المحل لهما، أكّدت عليهما سمر أنه في حالة رفض المالك أو كان له أي وجه اعتراض أن يبذلا معه كل مجهودهما ويسلكا معه كل الطرق الممكنة وغير الممكنة كي يجعلاه يوافق.

بينما ذهب كل من سمر وجمال إلى البنك الذي كان مُزدحمًا جدًا، وهكذا يكون الحال عادة في الأيام القليلة التي تسبق عطلة، خصوصًا إن كانت طويلة. لم يحتاجا إلى استخراج الخريطة والاستعانة بها، فهي محفورة في رأسهما. وحسب الرسمة الموضحة فيها فسيتطلب ذلك المشي حوالي عشرة أمتار من الباب إلى الداخل جنوب غربًا عكس اتجاه البحر. أي نحو نوافذ موظفي خدمة العملاء. نظر كل منهما إلى نفس المكان في وقتٍ واحد. شعرا بشعور غريب انتابهما حين وجدا أنهما على بعد خطواتٍ من الصندوق الذي ينتظرهما. لكن للأسف. فهذه الخطوات رأسية للأسفل..

وليست أفقية...!

ابتعدا خطوتين للوراء وجلسا بجوار بعضهما البعض على كراسي انتظار العملاء، مالت سمر نحوه هامسة وهي موليّة نظرها تجاه نوافذ موظفي خدمة العملاء: - الصندوق أسفل...

قاطعها: - تلك العاهرة ذات الشعر الذهبيّ...

- نعم... آه لو تعلم أنها جالسة فوق كل هذه الملايين... قالتها وأطرقت رأسها متعجبة. همَّ جمال ليتكلم لكن رنَّ هاتفه وكان المتصل حسام ليخبره أن مالك العقار مات منذ زمن وحين كان على قيد الحياة كان رافضًا أن يؤجر المحل لأي شخص، فسأله إن كان يوجد بديل له أو ورثة، فقال له أنه بالفعل زوجته موجودة، فأصدر صوتًا رخيمًا من مؤخرة أنفه قبل أن يأمره منفعلًا بمقابلتها والتحدث معها. فوافق حسام وأغلق المكالمة.

سألته سمر عما دار بينهما في المكالمة فأخبرها. فاقترحت أن يغادرا البنك ويذهبا إليهما خصوصًا أنهما ليسا متأكدين من أن إسحق وحسام سيقومان بما عليهما القيام به على أكمل وجه. فهز جمال رأسه اقتناعًا باقتراحها. ورحلا بعد أن ألقى كل منهما نظرة على الموظفة ذات الشعر الذهبي...

وعلى ما هو راكد أسفلها بأربعة أمتار في سلام...!

وصلا إلى العمارة بعد دقيقتين فوجداهما لا يزالان عند مدخل العمارة يتحدثان إلى حارس العقار الذي ظل يماطلهما ويلاوعهما بالكلام، رافضًا أن

يوصلهما بمالكة المنزل. كانت نظرة واحدة من جمال في أعين حارس العقار أدرك منها على الفور ماذا يريد. دسَّ يده في جيبه وأخرج ورقة فئة مائتي جنيه وكوّرها بقبضته ودسها في يده وهو يسأله بأدبٍ جم أن يقابل مالكة العقار في أمرٍ مهم سيدر عليه مبلغًا آخر من المال...

ثمة أناس لديهم داخل جمجمتهم جزء صغير بحجم حبة العدس، تتوقف تمامًا عن العمل حين ترى ورقة مالية...!

أخذ حارس العقار الورقة ووضعها في سيّالة جلبابه وهو يطلب منهما الانتظار حتى يصعد لها ويخبرها. فانتظرا... صعد أول درجتين ونزل مرة أخرى ليسألهما مُنبهرًا إن كانا كما يظن تواءم.. فأجابته سمر بابتسامة متصنعة بذلت مجهودًا جبّارًا لإظهارها أن نعم.. تواءم. فهز رأسه ضاحكًا ببلاهة وصعد ليخبر مالكة العقار، لم يغب عنهما سوى عشر دقائق ليقول لهما أنها تنتظرهما بالأعلى.!

السيدة ماريا باسيليوس مردخاي

ما إن دخلا لم يشعر أيًا منهما بأي شيء، فهي أولًا وأخيرًا مجرد شقة لسيدة جفول قد انتهك الزمن عمرها ودهس بسنابكه على رقبتها. غير أن حسام شعر أنه يريد التقيؤ حين رأى كم الصلبان المعلقة على الجدران، وتماثيل العذراء وهي تحتصن المسيح في حنان. وصورًا كثيرة لشهداء وقديسين. في حين أن إسحق ابتسم وشعر بحميمية مبالغ فيها بعض الشيء لدرجة أنه كاد أن يجهش بالبكاء حتى تبتل لحيته. كلا الشعورين لاحظهما جمال الذي شعر أنه يريد جلب سيف يطير به رقبتهما.

استقبلتهما السيدة العجوز المقبلة عليهما مستندة على عكاز ذي أربعة أرجل. همَّ جمال ليتكلم..: - كيف حالك يا حاجـ..

قاطعته سمر: - كيف حالك يا مقدسة ماريا، فليبارك في صحتك الرب ببركة العذراء المقدسة المباركة ويسوع المُخَلِّص.

- أهلا بكِ يا بنيتي... من أنتم؟! وماذا تريدون؟!

- نشكر الله يا أمنا الرؤوم...

ردت عليها سمر وهي تميل برأسها نحو إسحق تسأله إن كان معه بطاقة.. فأومأ رأسه بالإيجاب حين أضاءت في عقلها فكرة بعد أن ترجمت تلقائيًا أن هذه السيدة متديّنة جدًاـ وببعض المجهود ستوافق حين تعلم أنهم جميعهم مسيحيّون. عدّلت قامتها وهي تمد يدها وتصافح العجوز، فشعرت أنها أمسكت كيسا جلديا يكسو عظام كعظام دجاجة مشوية، وعروق زرقاء

وخضراء واهنة. صافحتها قائلة وهي تنظر إلى الجدران متصنعة الاندهاش والانبهار:

- نحن جئنا لكِ من طرف أبونا ماركوس بكنيسة القديسين...

- لا أعرفه... من هذا؟! ذكريني به يا حبيبتي

- ليس مهمًا الآن، المهم أننا إخوة. أنا مريم، وهذا جورج وهذا إسحق... وأشارت إلى حسام قائلة: وهذا المعتوه الآخر يوحنا.. فاتسعت عينا حسام يريد أن يعترض فحدجته سمر بنظرة أوقفته..! ثم أكملت كلامها..

- نحن أولاد المقدس جرجس سرجيوس، أحد مؤسسي الكنيسة هناك، وطالما خدم المسيحية وعلّم وأوعظ الكثير من أقباط الإسكندرية... المهم أننا كنا نريد أن نستأجر هذا المحل. ونحن نعرف أن نياحة عمنا باسيليوس كان معترضًا على تأجيره.

- نعم... هذا صحيح - قالت بأسى - لأن مالكه كان يستغله في بيع الخمور..

- نعم نعم... ونحن نعلم أنها حرام.. قالت سمر وهي تهز رأسها بأسى هي الأخرى.. فردت عليها العجوز معترضة:

- لا ليس هذا هو السبب بالضبط، فهو كان خائفًا على العقار من أنه ربما يسبب الكحول أي حرائق بالمبنى. وأمر المستأجر أن يغادر في نهاية الشهر، ولكن للأسف، حدث بعدها بيومين ما كان خائفًا منه وشبت نيران كبيرة في المحل وتضرر المبنى على أثره. ورحل المستأجر تاركًا بضاعة محترقة. ولم يدفع لنا مستحاقاتنا حتى...!

تدخل جمال: - ولكننا يا أمي لن نضع فيه أي مواد قابلة للاحتراق، نحن سنستخدمه كمخزن، نضع فيه شكائر مواد غذائية خاصتنا نأتي بها من الشونة. ونغلق عليها ونرحل. ونعدك ألا نتسبب في مضايقة أحد و...

ظلوا هكذا يحاولون إقناعها حتى اقتنعت بعد ساعة ونصف أن تؤجر لهم المحل ولكن بسعر مبالغ فيه جدًا. وافقوا على مضض واتفقت معهم أن يأتوا غدًا ليكتبوا العقد، فطلبوا منها مفتاح المحل كي يعاينوه ويبدأوا في تجهيزه، فأعطتهم المفتاح وهي توصّيهم ألا يفعلوا أي شيء يسبب إزعاجًا للجيران. وذكرتهم أن إزعاج الجار أمر نهى عنه السيد المسيح. فأومأوا رأسهم موافقين على كلامها ثم رحلوا بوجوهٍ تملؤها السعادة والحبور..

حين نزلوا إلى الشارع سألهم حسام: - ألم يكن من الأجدر بنا أن نتسلل إلى البنك في أيام الإجازة القادمة ونحفر في نفس المكان المحدد بدلا من أن نفعل كل هذا ونمضي عقد مع هذه العجوز النصرانية الشمطاء؟

في حين رمقه إسحق بنظرة غيظ عنّفه جمال وهو يضع مفتاح المحل في ميدالية مفاتيحه:

- هل تريد أن نفعل ذلك بمفردنا أم نطلب مساعدة الداخلية بالمرّة؟! ما هذا الهراء الذي تقوله يا أبله؟ هل تظن أنها حفرة في عمق عشرة سم؟! بلاطة سنخلعها ونأخذ ما تحتها ونرحل؟! أم تظن أننا سنحفر بملعقة؟! أفِق يا معتوه؛ فالحفرة قطرها على الأقل يجب أن يكون مترًا، وعمق أكثر من خمسة أمتار...! ثم مالنا وما لكونها مسيحية أو حتى بوذية بنت كلب... هذا من المفترض أنه لا يهمنا!

لم يجب عليه حسام واكتفى بالنظر بعيدًا في حين وضع جمال المفتاح في القفل محاولًا فتحه فلم يُفتَح، حاول تحريكه وهو يديره يمينًا ويسارًا فلم يفلح الأمر. فاجأهم رجل خمسيني، بدين وأصلع رآهم في الناحية الأخرى من الشارع وسألهم بفضول وعينيه معلقتين على مؤخرة سمر: - ماذا تفعلون...؟

رمقته سمر باندهاش وهي تسأله بانفعال وهي مُستعدة لتوبيخه بعدما يجيب: - من أنت؟! فأجابها أنه صاحب محل الألبان بالناحية الأخرى، وأشار لها إلى المحل. فتراجعت عن توبيخه وأجابته مُبتسِمة إنها وإخوتها أجّروا هذا المحل من مالكة العقار، واستغلت الفرصة لتطلب منه المساعدة في فتح هذا القفل، فضحك ضحكة بلهاء قائلًا أن هذا منطقيًا لأن هذا القفل لم يفتح منذ سنوات، مضيفًا:

- ولكنني لديَّ الحل السحريَّ... قالها وهو يعبر الشارع متدحرجًا ككرة سلة ليدخل محله ويحضر لهم عبوة صغيرة أعطاها لهم:

- هذا السائل أستخدمه لتليين القفل في حال أغلق المحل أيام الإجازات الطويلة... ضعوا قليلًا منه داخل القفل وانتظروا نصف ساعة، سيجعله لينًا.. جربوه فهو ساحر.

أخذ جمال العبوة منه وشكره، عاد الرجل مرة أخرى ليجلس أمام محله في حين وضعوا قليلًا من السائل داخل القفل كما أخبرهم الرجل ثم مضوا...

واصلوا المسير إلى أن وصلوا الناحية الأخرى عند واجهة المبنى... ألقوا نظرة عليه قبل أن يعبروا الشارع ويجلسوا على سور كورنيش البحر. بينما جلست سمر وإسحق على السور، وقف كل من جمال وحسام أمامهما وعلّقا نظريهما على البحر. استدارت سمر لتلقي نظرة إلى البحر هي الأخرى فمسَّت وجهها نسمة باردة تخلّلت مسام وجهها الصبوح مارة بخصلات شعرها الذهبي الذي طار في الهواء حينها ورفَّ دون جماح

فاستحت أمواج البحر منها وغارت. راحت تتأمل النوارس المحلقة فوق الصيادين الهواة الذين يجلسون في هدوء بطول الشاطيء على غير ترتيب ولا انتظام، لا يقلون في هدوئهم واستكانتهم عن تلك الصخور والأحجار المُكَعَّبة المتناثرة التي يجلسون عليها. يجلس كل منهم بالساعات بجوار صنارته المثبّتة ليصطاد في النهاية سمكة صغيرة، أصغر من الطُعْمِ الذي علّقه لها بالخُطَّافِ...!

نظرت إلى أبعد من ذلك، المركب الصغير الواقف على بعد حوالي عشرين مترًا من الشاطيء... مدَّت بصرها أكثر إلى حيث السفينة الواقفة على بُعدِ بضعة كيلومترات... شردت محدثة نفسها: - ترى، من الذي على متن هذه السفينة الآن؟ وماذا يفعلون؟! أين سيتجهون ومتى سيعودون؟ هكذا فكرت...! حينما كانت صغيرة وترى مثل هذه السفن، كانت تظن أن من عليها ليسوا أشخاصًا حقيقيين مثلها، ومثلنا. بل هم مجرد مخلوقات مختلفة عنَّا. وحتى لو كانوا أشخاصًا مثلنا، فحتمًا لا يتصرفون كما نتصرف. من المؤكد أن لهم حياة أخرى غير حياتنا وبعيدة تمامًا عنها... كانت تحسدهم على كل حال! بعدما كبرت قليلًا، أدركت أن من على مثل هذه السفن التي تخوض عرض البحر لا يجب بالضرورة أن يكونوا سعداء. تذكرت حين كانت في رحلة على متن إحدى السفن يومًا ما، مع ذلك الشاب الذي أحبّها لفترة طويلة. كان أول شخص يدخل حياتها ويلج قلبها. وعدها بالزواج، عاشت معه حياة سعيدة حتى جاءت اللحظة التي كان يجب الاعتراف له فيها أنها ليست عذراء، كم حذرتها صديقتها من ألا تخبره أو تخبر أي عريس محتمل بذلك. وحينما تأتي ساعة الجد ويقترب موعد الزفاف تجري عملية ترقيع وتمرر هذه الليلة. لكنها أصرّت أن تخبره بكل الحقيقة دون أي خداع. ظنًا منها أنه سيتفهَّم ذلك، هكذا كان يكتب ليل نهار على صفحته في الفيس بوك. وهكذا كان دومًا ينادي بحقوق المرأة وينحاز لها في كل المواقف حتى اتشهر بذلك وكان أغلب أصدقائه ومتابعيه على الفيس بوك – والذي اقترب عددهم إلى مائتين وخمسون ألفًا – يعتبرونه من أشهر الرجال الـ «فيمنست» على الفيس بوك. وكانت تظن أنه حينما يعلم بأنها ليست عذراء وتحكي له بصراحة عن الحادثة التي حدثت لها حينما كانت صغيرة سوف يتفهّم الأمر ويتخطاه حبًا لها... لكن الحقيقة كانت غير ذلك. لم يتحدث معها طيلة رحلتهم على هذه السفينة التي أخذت يومين في عرض البحر ذهابًا وإيابًا فمرت عليها الساعات ثقالًا وهي تبكي في صمت.. حتى أنها فكرت في الانتحار بأن تلقي بنفسها في البحر. لكن حال دون ذلك شيئًا ما بداخلها وحثها على عدم الإقدام على هذه الخطوة. شيئًا ما في أعماقها رفض أن تصبح وردة آيلة للذبول. رفضت الانتحار واكتفت بالجلوس على حافة

السفينة بعينين مغرورقتين تنظران إلى الشاطيء الذي يبعد عنها بضعة كيلومترات.

عادت إلى واقعها مرة أخرى ومسحت دمعة طفرت من عينيها مُستحية على خدها الأسيل وهي تسأل نفسها: هل يوجد فتاة تبكي على هذه السفينة الآن بعدما أخبرت حبيبها بالحقيقة وانخدعت فيه، هل ستقدم على الانتحار أم ستفعل مثلها وتقاوم تلك الرغبة...؟! نفضت رأسها من هذه الأفكار الفوضويّة التي طالما تعيث في رأسها حين طرق جمال على كتفها وأعطاها سيجارة مشتعلة. فأمالت له رأسها ليضعها بين شفتيها...!

أخرج سيجارة أخرى من علبته وأشعلها ثم أخذ نفسًا عميقًا تركه داخل صدره لثوانٍ رفع فيها رأسه ناظرًا إلى السماء وأخرج بقوة النفس المكتوم بداخله. كانَ ذلك حين مرَّ بجانبه شاب ضاحك مقبل على الحياة وفتاة تتأبطه ويسيران بجوار بعضهما البعض وهما ينظران سويًا إلى البحر. فكّر في حياته غير المستقرة والتي هي دومًا على المحك، ويحيط به الخطر كل يوم وكل ثانية. رجل محاط بأكبر تجار مخدرات في مصر ومهدد بالقتل في أي لحظة...! شرد بتفكيره محدثًا نفسه، ماذا كان سيحدث لو كنت رجل عادي وحياتي عادية رتيبة كأغلب الناس؟ أعمل في وظيفة بشركة خاصة براتبٍ شهريّ.. أبتاع بعض الحلوى لأولادي وأنا عائد إلى البيت فتتصل بي زوجتي لتطلب مني بغنجٍ ودلالٍ أن أشتري لها آيس كريم بالمانجو لأنها تحبه كثيرًا...! شرد أكثر في خياله وهو يفكر في أخويه، فكل واحد منهم له زوجته وحياته الخاصة. واندهش حين رأى أن كل منهما لديه شقاق في بيته وفجوة كبيرة بينه وبين شريكته، ما الذي يجعل مثل هذا الشقاق يحدث بين اثنين يعيشان في نفس البيت، يقتسمان كل شيء؟!ما الذي جعل طريقة الكلام جافة هكذا بين إسحق ودميانة جافة أمامهما هكذا؟! وما الذي يجعل حسام يهجر زوجته هكذا ويخونها مع نساءٍ كثيرات؟! ما هي الديناميكية التي تدار بها الحياة الزوجية.. أهي مُعقّدة إلى هذه الدرجة؟! في يدهم حياة يستطيعون تطويعها لخلق فرحتهم وهدوئهم وسلامهم النفسيّ... ويضيعونها هكذا.. كيف؟!...

حانت منه التفاتة إلى أخيه إسحق؛ الواقف أمامه الآن، سارحًا. تفرَّس جمال ملامح وجهه التي كانت تحمل كلامًا كثيرًا حين رأى على الشاطيء بعيدًا رجل مفتول العضلات، يحمل زوجته ويلف بها عدة مرات قبل أن يلقيها في الماء فتقف على قدميها مرة أخرى وتعانقه، شرد بتفكيره إلى طبيعة العلاقة بينه وبين زوجته دميانة. ترى، هل هي السبب فيما أعانيه في كل مرة أمارس معها علاقتنا؟! لماذا أكون مُصابًا بسرعة القذف معها؟! أنا الذي لم تطأ قدماي وحل الخطية قط. من السبب في ذلك؟ هل رهبتي من دميانة

هي السبب؟! هل كما قال الطبيب أن الموضوع نفسيّ إلى حدٍ كبير؟! ربما. أضاءت في عقله – لوهلة – فكرة أن يعتنق الدين الإسلامي فيستطيع أن يتزوج من أربعة، أربع زوجات غير دميانة التي سيتركها ويترك جسدها الذي اعتاده كثيرًا وملّ منه ومن النظر إليه...

ظل يفكر ماذا سيفعل بعدما يحصل على نصيبه في هذا الكنز... هل سأترك دميانة لأنني سأكون مسلمًا؟! ولكني لا أريد أن أعتنق الإسلام. وفي نفس الوقت رأيت داخل الكنيسة ما يجعلني أنقم عليها وأحقد. لكن ما ذنب الكنيسة والديانة المسيحية فيما رأيت؟ فالدين يظل كما هو كالثوب الأبيض، ثم يأتي من يدّعون أنهم يمثلونه كي يسلبوه طهارته ويدنسوه. حانت منه التفاتة إلى أخيه حسام؛ الواقف بجواره. نظر إسحق إليه مُتفرّسًا ملامح وجهه فوجده ناظرًا إلى طائرة في السماء، كان حسام في تلك اللحظة يتذكر أماني حين رأى تلك الطائرة. تذكر حين سافر معها في شهر العسل إلى تركيا، بعدما تزوجا بعد قصة حب دامت لعقود توجاها بعد ذلك بالزواج. سأل نفسه لماذا أخونها رغم أنني أدرك جيدًا كم هي جميلة، وجمالها هذا هو الذي سلب قلبي مني حين بدأت أشتهيها، وأشتهي جسدها الممشوق وشعرها الناعم الطويل... لماذا سئمت سريعًا من كل ذلك وفضَّلت عليها نساء كثيرات ليسوا أجمل منها. هل لأنني متأكد أنها تعرف كل علاقاتي ومع ذلك ستسامحني في نهاية المطاف؟! ربما. هل لأنها تحبني وأنا أعلم ذلك فوضعتها على الرف طيلة كل هذه السنوات؟! ربما. هل لأنني واثق ومتيقن تمام التيقُّن أنها لم ولن تخونني ولو بنظرة عين لأيّ شخصٍ كان ولن تمد بصرها لأي رجل آخر، ولن تستطيع مجرد التفكير في غيري؟! ربما.

لا يهم متى سأكف عما أفعله مع غيرها، طالما أعرف جيدًا أنني كلما سأعود إليها سأجدها... وسأملّ من كل ذلك يومًا ما بالتأكيد. وربما سأعود لأشتهيها وأشتهي جسدها وكلامي معها كما كنت قبل الزواج. ربما.. ولما لا؟!

استفاق من شروده ليجد سمر تنظر إليه مليًّا فتبادلا الابتسام وهو يهز رأسه. فربتت على كتفه كي تشد من عزيمته...

- هيا بنا لنرى هل سيفتح القفل أم سنكسره ونريّح أنفسنا.. قالها جمال وذهبوا متوجهين إلى المحل، وضع المفتاح داخل القفل وأداره ففتح معه...!

- ألم أقل لكم أنه ساحر؟! قالها الرجل البدين الواقف خلفهم فانتفضوا جميعًا من مكانهما، مما أثار غضب سمر التي أخرجت من جيبها عشرة جنيهات وأعطتها له قائلة: - أستميحك عذرًا، نحن لا نحب اقتحام الخصوصية هكذا...! ولا نحب الاختلاط بالناس لدرجة العشم القاتل. فأرجوك لا تفكر قط في التدخل في حياتنا وإقحام نفسك بيننا بهذا الشكل...!

اشتعل وجه الرجل خجلًا وعبر الشارع بهدوء دون أن ينبس بكلمة درءًا للحرج أكثر من ذلك أو سماع كلمة هو في غنى عنها...

- لماذا أحرجتيه هكذا يا سمر؟! فالرجل احمرّ وجهه واصفرّ. حرامٌ عليكِ... قالها إسحق لائمًا، حدجته سمر بجانب عينيها فابتلع باقي كلامه. نزع جمال القفل من مكانه ورفع الباب بسهولة فخرجت منه عِرسة بسرعة البرق وعبرت من بين أرجلهم مما جعل سمر تنتفض من مكانها وهي تصرخ ممسكة بذراع حسام الذي انفجر في الضحك وقال لها ساخرًا: - الذي يراك الآن وأنت تصرخين هكذا بسبب عِرسة لن يصدق أنك نفس الشخص الذي كنته منذ قليل حين وبختِ الرجل...!

لم ترد عليه منشغلة بمعاينة المحل الذي يحتوي على مكتب قديم وعدة أرفف موضوعة فوق بعضها البعض.

- سنحتاج إلى ترتيب المحل وتنظيمه. ماذا سنفعل؟! سأل جمال فأجابته سمر:

- سنطلب ذلك من البواب الذي أعطيته مئتي جنيه بالأمس... لن يرفض أكيد.

دخلت العمارة ونادت عليه، فأتاها مُهرولًا وهو يعدل عمامته، أعطته مئة جنيه أخرى وطلبت منه أن ينظِّم المحل ويرتبه وينظفه، فأومأ لها موافقًا وهو يسألهم هل سيحتاجون هذه الأغراض فأجابته:

- نعم... كل ما نريدك أن تفعله هو أن تخرج هذه الأغراض خارج المحل لتنظفه ثم تعيد كل شيء للداخل مرة أخرى. سنذهب الآن وسنأتي غدًا في الصباح الباكر.

- حسنًا، ولكن أخبريني في ماذا ستستخدموا هذا المحل؟

تلعثمت سمر بالإجابة فأجاب جمال سيراميكة بدلًا منها بلسانٍ واثق: - سنجعله مخزن لنا، سنخزن فيه أوعية دقيق وسكر وما شابه ذلك. نحن لدينا مصنع تعبئة مواد غذائية بالقباري..

أعطى جمال له القفل ومفتاحه مستطردًا وهو يضع يده على كتفه: - إن وجدناك شخصًا مُطيعًا وقليل الكلام والأسئلة ستلقى منا كل خير... اتفقنا؟

- اتفقنا... ستحضرون هنا غدًا وستجدون هذا المحل شيئًا آخر.. أعدكم.

ذهبوا إلى الفندق واتفقوا أن يستريحوا بضع ساعات ثم تأتي لهم في غرفتهم في تمام الساعة السادسة مساءً ليتفقوا عما سيفعلونه بعد ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان منظر الشمس وقت الغروب وهي تستعد لمغيبها وتختفي - كأن ساحل الضفة الأخرى يبتلعها - مهيبًا، وقف حسام في الشرفة مُراقبًا ذلك المنظر في صمت. بينما كان إسحق داخل الحمام جالسًا في البانيو كطفلٍ صغير رافضًا أن يغادره. أما جمال فجلس في الصالة أمام التلفاز بعد أنْ طلب زجاجتين بيرة وزجاجة ويسكي، احتساهما مع سيجارة حشيش كان يخبئها معه في محفظته. طرقت سمر الباب ففتح لها حسام، التفتت حولها قبل أن تدخل بسرعة، فهي فعلت ذلك من قبل عدة مرات:

- لماذا تدخلين هكذا كأنك تسرقين؟

- ألم تعلم أن وجودي هنا ليس مسموحًا به؟! من منا يعلم أننا الأربعة إخوة وكل واحد منا له اسم أب في بطاقته غير الآخر.. قالتها وهي تجلس على أحد الكراسي أمام المنضدة والتمعت عيناها حين رأت زجاجة الويسكي، أمسكت الكوب المجاور لها لتصب قليلًا منه لكنها لمحت في قاعها سيجارة مطفأة، وغالبًا من فعل ذلك هو جمال! لم تأبه للأمر ووضعت الكوب على المنضدة مرة أخرى وشربت من الزجاجة مباشرة قبل أن تسأل حسام عن إسحق فسمعت حينها صوته وهو يغني داخل الحمام أغنية تسعيناتية سخيفة فطلبت من حسام أن ينادي عليه ويحضر دفترا وقلمًا موضوعين داخل درج الكومود من قِبَلِ إدارة الفندق لكل النزلاء. ففعل وأشارت له أن يجلس حين سمع طرق البابَ، فذهب ليفتح فأشار له جمال أن يجلس ليفتح هو، لأنه يعلم من الطارق، وكان أحد العاملين بالفندق يحضر له زجاجة ويسكي أخرى. في نفس الوقت الذي خرج فيه إسحق من الحمام واضعًا على جسده بشكيرًا ومازال يغني، فانتفض حين رأى سمر وعاد مهرولًا إلى الحمام فنادت عليه سمر:

- هذا ليس وقت للخجل يا إسحق، وأعتقد أنني أختك، ثم أن ماذا لديك لتخاف أن أراه أيها البائس؟! تعال واجلس لنتكلم في المهم.

رمش بعينيه سريعًا وأحكم البشكير على جسده وجلس على المنضدة الدائرية أمامها مباشرة، بين حسام وجمال. أخرجت الخريطة ووضعتها أمامهما ووضعت بجوارها الورقة البيضاء، جالت بعينيها عليهم وهي ممسكة بالقلم:

- نستطيع القول بأننا الآن قد دخلنا مرحلة الجد. ولا سبيل لدينا سوى العودة إلى القاهرة بالصندوق...! والآن. هل لدى أحدكم اقتراح فيما سنفعله؟!

قال حسام وهو يفتح كيس شيبسي حجم عائلي: - نريد أن نعلم مبدئيًا اتجاه حفرنا بالضبط. والنقطة التي سنبدأ منها وننتهي عندها. مد يده ليأخذ منها

القلم الذي معها وسحب من أمامها الورقة، لم يكتب القلم في البداية فشخبط بعصبية على طرف الورقة حتى بدأ يكتب. فكتب أولًا "بسم الله الرحمن الرحيم توكلنا على الله" قبل أن يرسم مربعًا كتب فوقه بخطٍ قبيح "المحل" وبجواره مربع آخر وكتب فوقه "البنك" وبينهما شارع فخري والذي عرضه خمسة أمتار...! قائلًا:

- المطلوب منا أن نحفر نفقًا بدايته المحل، ونهايته الصندوق كما توضح مكانه الخريطة... هذا النفق بالطبع سيمر من تحت شارع فخري والبنك.. أليس كذلك؟!

- نعم - قالها جمال وهو ينظر إلى سمر – المسافة حوالي عشرين إلى اثنين وعشرين مترًا.. أخذ إسحق القلم من حسام ووضع سنه على نقطة البداية المفترض داخل المحل قائلًا:

- بما أن هذه هي نقطة البداية فسنحتاج أولا معرفة عمق الحفرة التي سنحفرها داخل المحل، والتي بعد ذلك نبدأ منها الحفر أفقيًا متجهين نحو هدفنا... الصندوق. التفت لسمر وسألها: - أي عمق من مستوى الأرض يوجد الصندوق؟

- كما هو موضح بالخريطة أن الصندوق في عمق أربعة أمتار...

قال إسحق: - إذن فسنحتاج لأن يكون عمق الحفرة من نقطة البداية داخل المحل خمسة أمتار تقريبًا، لسببين؛ الأول هو أن نترك مترًا تحت العجز والزيادة وحينما نصل إلى الصندوق في نقطة النهاية نجده في مستوى وقوفنا فيسهل علينا إيجاده. الأمر الثاني هو أن الحفر في هذا العمق لن يؤثر على أثاثات المبنى فوقنا فينهار على رؤوسنا مثلًا.. هذا غير أننا سنتفادى أيضًا أي بنية تحتية في شارع فخري!

- نعم... أنا أوافقك فيما قلته تمامًا يا إسحق، ومستمتعة جدًا بحديثكما الجاد هذا... قالتها سمر وأخذت منه القلم ورسمت اتجاه الحفر بالضبط قائلة: - سنحتاج إلى بوصلة... والمفترض أن الشمال سيكون البحر المتوسط. نظرت مليًا إلى الخريطة ثم استطردت:

- الصندوق في هذا الاتجاه... سنجعل النفق هكذا... رسمت سهمًا يوضح اتجاه حفر النفق وفي نهايته رسمت مربعًا كتبت فوقه كلمة "الكنز" ورسمت حوله قلوبًا، نهض جمال سيراميكة وقال بعد أن صب جرعة من الويسكي وتجرعها دفعة واحدة..

- علاوة على كلام إسحق، لكنني برغم كل ذلك مازلت قلقًا من أن ينهار المبنى فوقنا أثناء الحفر. ولذلك أقترح أن ندعم كل متر نحفره بأخشاب

يمينًا ويسارًا كأعمدة، ونضع فوقهما لوح خشب يصل بينهما كدعم...

- يالها من فكرة جهنميّة.. من أين أتيت بتلك الفكرة؟! سأله حسام

- لقد بنيت مع مجموعة من الأصدقاء نفقًا من قبل، لنُهَرّب من خلاله الكوكايين من ليبيا، لأن المنافذ كلها أصبحت صعبة بعد الثورة، وبعض الضباط المشرفين على المعابر والذين كانوا يتعاملون معنا أصبحوا جشعين.. لذلك لجأنا لبناء نفق هناك عبر الحدود. لكن هذا النفق كان طوله أكثر من سبعمائة متر. وقطره مترين... حفرنا النفق آنذاك بمعدات حفر ومولد كهرباء وتجهيزات ضخمة. لكن هنا الموضوع برغم صعوبته فهو سهل... عشرون مترًا لن يحتاجوا إلى معدات ثقيلة.

- فكرتك رائعة بالفعل، ولكن من وجهة نظرك كم سنجعل قطر هذا النفق؟!

- متر واحد كافيًا جدًا. أو متر ونصف مثلًا.

- وماذا سنفعل بالطين والوحل الذي سنستخرجه؟! سأل إسحق

- حين نبدأ في الحفر أفقيًا تجاه الصندوق. سنضع قضيبين على الأرض، ونضع فوقهما قاعدة بعجلات تسير على هذين القضيبين. فوق هذه القاعدة سنضع وعاء به الطين الذي سأستخرجه. أملأه ثم أدفعه تجاه نقط البداية... فتلتقطه يا إسحق أنت أو حسام وترفعه عن طريق خطاف. وتعبئوه في أشولة أولًا بأول.. وهكذا.. إلى أن نجمع في اليوم عشرين إلى ثلاثين شُوالًا نخرجها في صباح اليوم التالي في سيارة نقل على أنها أوعية دقيق أو أي حبوب غذائية، فالطبيعي أنه مخزن حبوب غذائية كما قالت سمر للبواب. وبهذا لن يشك أحد فينا..

- وهذا سيتطلب منا غلق المحل علينا بالطبع، والعمل بهدوء كي لا يسمعنا أو يشعر بنا أحد. قالت سمر، وضع جمال يده في جيبه بحثًا عن سجائر فأعطته سيجارة، أشعلها قائلًا:

- نعم بالفعل، ولكن.. هل تعلمون ما هي أصعب مرحلة هنا؟!

قال حسام رافعًا يده: - أصعب مرحلة هنا هو حفر نقطة البداية التي ستكون داخل المحل.

- بالضبط.. أحسنت يا حسام - قال جمال - وإن أستطعنا أن نحفرها وننتهي منها في يوم واحد سنكون بهذا قد انتهينا من جزء كبير مهم، ونبدأ في الأيام التالية بالحفر أفقيًا تجاه الهدف.. وبحسب ما أرى، فإنكما لا تمتلكان القوة الكافية لمساعدتي في حفر ثلاثة أو أربعة أمتار في اليوم، وأعتقد أننا كل ما سنستطيع فعله هو حفر متر إلى مترين كل يوم.

- ببركة البتول العذراء سنحاول الحفر أكثر... فالتربة في هذه المنطقة هشّة، وتعتبر رمليّة إلى حدٍ ما. كل المشكلة بالفعل ستكون في حفر نقطة البداية على عمق خمسة أمتار للأسفل.. وأخشى أن يسمعنا أو يشعر بنا أي شخص أثناء الحفر رأسيًا. لأننا حتمًا سنصدر صوتًا.. نحن لن نحفر حفرة صغيرة.!

صاحت سمر: - أنا لديَّ الحل... سنفعل ذلك يوم الافتتاح، وسنحضر "دي جي" وسأطلب منه أن يجعل الأغاني بصوتٍ عال... فلا يستطيع أحد أن يسمعنا.

- إذن فهيا بنا نكتب ما سنريد...

أمسكت سمر القلم لتكتب ما يريدون في حين أملاها حسام: - أخشاب لتنفيذ فكرة جمال... وقضبان حديدية، وثلاثون شوالًا مبدئيًا...

- وسُلّم... أضاف جمال، السلم لاستخدمه في الصعود والهبوط عند نقطة البداية.! بالمناسبة. القضبان الحديدية طولها حوالي مترين، بعدما ننتهي من حفر مترين نضع القضيبين، وحين نحفر مترين آخرين نوصل بهما قضيبين آخرين.. وهكذا.

نهضت سمر شارعة ذراعيها وقد شاعت ابتسامة ارتياح وانتشاء في وجهها ثم صبّت كأسًا لنفسها وأشعلت سيجارة ووقفت تنظر عبر النافذة إلى البحر، والسماء النائمة فوقه وقد جمح خيالها قائلة: - أخيرًا سيتحقق حلم حياتي و...

قاطعها إسحق مُصححًا: حياتنا... حلم حياتنا... لا تكوني أنانية... وقدمي المشيئة أولًا.

ضحك جمال سيراميكة قائلًا لحسام: - أبشر يا حسام. فإسحق بينه وبين اعتناق الإسلام خطوة واحدة.. همّتك ليخطوها وتكسب فيه ثواب وتجعله يستمتع معك بحور العين في الجنة التي ستدخلها.

- من قال لك أنني كافر؟! ومن قال لك أنني سأقدم على خطوة كهذه؟! ثم أن في المسيحية أيضًا يجب علينا تقديم مشيئة الرب قبل أن ننوي فعل أي شيء. وأن نسلم ذاتنا وكل ما نملك لمشيئته.

قاطعه حسام - ولكنك بالفعل كافر يا إسحق.. وأريد أن يهديك المولى عز و....

صرخت سمر فيهما: - هذا ليس وقتًا لمثل هذا الكلام يا عمرو خالد... نحن لسنا في مشيخة الأزهر. لا تنكدوا عليَّ أرجوكم أو تعكروا عليَّ صفو حياتي

الجديدة المُقبِلة عليها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي...

الساعة الواحدة ظهرًا...

كانت سمر تنتظرهم في الأسفل بالكافيه الملحق بالفندق وأمامها عصير تفاح بالقرفة ومطفأة بها ستة سجائر، مرتدية سُترة خفيفة وبنطال جينز وحذاء رياضي كانت قد اشترتهم بالأمس من متجر مجاور للفندق. ذهبوا أولًا إلى المحل فوجدوا حارس العقار أمامه مُنحنيًا وقد ظهر لباسه الداخلي وجزء من مؤخرته السّمينة المُشعِرة. وأمامه ابنه ممسكًا بزجاجة مياه يصبّها على يديه ليغسلها. فأدركوا أنه انتهى للتو من نظافة المحل. حين رآهم قابلهم بوجه يملئه الزهو والفخر لما فعله في المحل وتحويله من مكانٍ خرب إلى مكانٍ مُنظّمٍ نظيف. بعد أن أزال فاترينة ومكتب وبعض الأغراض الأخرى التي أخذها لنفسه عنوة كحقٍ مكتسب...!

لم يأبهوا لذلك وأعطاه جمال ورقة نقدية فئة مائة جنيه مُتبعًا مبدأ «اطعم الفم تستحي العين» ويعي جيدًا أنه لكي يشتري طاعته العمياء ويمنع فضوله لهم واقتحامه خصوصيّتهم فيجب عليه فعل ذلك.. شكره الحارس بحرارة وأخبرهم أن ينادوا عليه إذا طلبوا أي شيء حتى لو احتاجوا لاغتصابه فلن يمانع في سبيل المال. فشكروه وسألوه متى ستستيقظ صاحبة العقار ليكتبوا العقد فقال لهم أن يأتوا بعد ساعتين. ورحلوا.

حين تدخل هذا الشارع الكائن بالأزاريطة ستظن من الوهلة الأولى أنه هادئًا جدًا، ولن يخطر ببالك أنك حين تنعطف يسارًا ستجده مليئًا بالناس، ستظن أنها مشاجرة كبيرة قبل أن تدرك أنها ليست كذلك، وإنما هؤلاء أتوا هنا ليأكلوا سمكًا عند حودة جندل، أحد أشهر مطاعم السمك بالإسكندرية. لم يفقدوا الأمل في الحصول على منضدة فارغة بعد وقوفهم منتظرين ربع ساعة تقريبًا. طلب كل منهم شوربة فواكه بحر وجمبري وسبيط، باستثناء حسام الذي طلب سمك بلطي مشوي.

- بعدما ننتهي سأذهب أنا وحسام لشراء الأخشاب من أبو قير، وسنتفق أيضًا مع أحد الخطاطين ليكتب لنا يافطة نضعها فوق المحل. بينما أنتِ ستذهبين مع إسحق لهذه السيدة الخرقاء لكتابة العقد، مُستخدِمة بطاقة إسحق... قال سيراميكة بفمٍ ممتليء بالسلطات التي وضعها أمامهم أحد العاملين بالمطعم. فأومأت سمر بالموافقة بينما سأل إسحق: - وكيف سنحفر نقطة البداية دون أن يشعر بنا أحد؟!

أبرم جمال فمه يفكر في حيلة فأجاب حسام بدلًا منه: - مثلما قالت سمر بالأمس؛ سنتفق مع دي جي ونشغل القرآن الكريم كإفتتاح، ونضعه أمام المحل بينما نحن بالداخل نعمل.

قاطعته سمر مستنكرة: - نشغل القرآن الكريم بينما نحن المفترض أننا مسيحيون، وصاحبة العقار والحارس أيضًا.. أليس كذلك؟!

- أو أغاني.. أو أي بلاء أزرق عمومًا، المهم أن يكون صوته عالي.

أضاف جمال: - ونشتري كرافان خشبي أيضًا ونضعه بحيث يخفي الركن أقصى اليسار الذي سنعمل خلفه...! المهم أن نجتاز أصعب جزء وهو حفر أول متر الذي يعتبر به الخرسانة والبلاط، بعد ذلك الأمر سيكون ليس إلا رمالًا وطين ووحل.

كان ذلك حين أقبل عليهم أحد العاملين بالمطعم مُنتشيًا، حاملًا صينية دائرية كبيرة بها كل طلباتهم.. ورحل. هزت سمر رأسها موافقًا على كلام جمال... كان الأكل شهيًا جدًا، وكانت هذه المرة الأولى التي يأكل فيها إسحق جمبري، لم يكن يعرف كيف يؤكل، فكل علاقته به أنه رآه كثيرًا في التلفاز. شعر بالإحراج أن يسألهم كيف يؤكل وانتظر سمر حين قشرته ففعل مثلما فعلت تمامًا، كان جمال يراقبه مُبتسِمًا دون أن يلفت انتباهه لذلك. بعد أن انتهى جمال نهض ليغسل يديه ويدفع قيمة الطعام قبل أن يخبرهم أنه سينتظرهم بالأسفل ليشرب سيجارة. سأل أحد العاملين عن أفضل مكان يشتري منه أخشاب، فدلّه صبيٌّ صغير على مخزن ضخم لبيع الأخشاب بالقرب منهم، ولحسن حظه لمح خطاط واقفًا على ناصية الشارع، مُعلّقًا على حائط أمامه لافتة قماش يكتب عليها وكأنه يرسم. أعطاه مئة جنيه طالبًا منه صنع يافطة خشبية مكتوبًا عليها بخطٍ كبير «مخزن البطل الروماني للمواد الغذائية» وافق الخطاط وأخبره أن يأتي في الغد ليأخذها، فأعطاه مئة جنيه أخرى طالبًا منه أن يستلمها بعد ساعتين ويرسلها مع عامل لتركيبها. فتعطلت جميع حواس الخطاط ووافق على الفور، ولو أعطاه جمال ورقة ثالثة كان من المؤكد أنه سيلقي باليافطة التي يعمل عليها في الأرض ويسحب يافطة خشبية ويبدأ في طلبه...!

رنَّ هاتفه فوجد المتصل سمر التي سألته أين هو، مد بصره فوجدها قد نزلت هي وأخويه، رفع يديه لها ملوحًا فرأته وأقبلوا عليه، أخذ حسام ليذهب معه ويشتريا الأخشاب. وطلب من سمر أن تذهب لصاحبة العقار مع إسحق... كان ذلك في الساعة الثالثة وسبعة وعشرين دقيقة عصرًا...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة السادسة والربع مساء

وقفت سيارة نصف نقل أمام المحل مباشرةً لينزل منها شابان أخرقان مُتهدلان وأنزلا عدة «الدي جي» وطلب منهما جمال أن يضعاه أمام المحل مباشرة، بحيث لا يتركا مجال لأي شخص يدخل سوى نصف متر...! وأخبرهم ألا يشغلوا قرآن في بداية التشغيل كما يفعل معظمهم. فسأله الشاب مستهجنًا: - ولا حتى في بداية التشغيل؟!!!

- نعممم... حتى في بداية التشغيل...

ففعلوا ما طلبه منهما. كان ذلك حين وضعت سمر الكارافان الخشبي في ركن أقصى اليسار كما اتفقا.

بمجرد أن شغل الشاب الأغاني، ارتدوا زيًا برتقالي اللون خاص بعمال البناء قد اشتروه مع الأخشاب وباقي المعدات، جلس جمال خلف الكارافان على الأرض وألقى نظرة إلى توءميه الذين تبادلوا معه النظر.

- بسم الله توكلنا على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن حسبي الله ونعم الوكيل. استعنا على الشقاء بالله... دعى حسام وأخذ يتمتم باقي دعاءه في سره بينما رشم إسحق الصليب على صدره وأخذ يتمتم هو الآخر خاتمًا: - لتكن مشيئة الرّب.. أطرق جمال رأسه ناظرًا إلى البقعة التي سيبدأ حفرها. بينما وقفت سمر في الخارج مُحاوِلة سماع الطرق فأشارت إلى الشاب الأخرق بيديها أن يرفع درجة الصوت لأعلى قليلًا.... ففعل!

في الداخل...

حدد أربع بلاطات سيخلعهم ورسم سهمًا بطبشورٍ أبيض في بلاطة خامسة لن يخلعها، هذا السهم رأسه تشير إلى اتجاه الحفرِ الذي سيسلكونه.، أمسك جمال «الأجنة والشاكوش» وبدأ في الدق، خلع البلاطات بسهولة. واتفقوا فيما بينهم أن يقسَّموا العمل بحيث يكون كل منهم مسئولًا عن فعلٍ شيء بما يناسب قوته وبنيته الجسمانية على إتمامه؛ فكان جمال مسئولًا عن الحفر، بينما حسام يقف فوق الفتحة وينتظر جمال ليناوله الوعاء الممتليء بالطين الذي يستخرجه من الحفر، يرفع بحبلٍ الوعاء الممتليء ويلقي لجمال آخر فارغًا. ويناول الممتليء إلى إسحق الذي يعبيء الطين الذي بداخله في شوال. حتى يمتليء ويزحزحه كي يركنه بجوار الحائط. بينما سمر كانت واقفة بالخارج بجوار «الدي جي»، تراقب الموقف كي لا يدخل أحد. وبين آنٍ وآخر يأتيها شخص مُتطفل فضوليّ يسألها ماذا سيكون هذا المحل فتشير

له إلى اليافطة المعلقة وتخبره أنه كما هو موضح سيكون مخزنًا للمواد الغذائية.

على الجانب الآخر يجلس الرجل البدين صاحب محل الألبان على كرسي أوشك أن يسبّه ويسبّ مؤخرته. يسترق النظر إلى سمر الواقفة أمام المحل تهز رأسها تفاعلًا وتناغمًا مع الموسيقى، أراد أن يلوّح لها بيده لكنه تردد. حانت منها التفاتة إليه وقد شعرت بذلك، خشيت أن تصنع معه عداءً ليست في حاجة إليه الآن، فربما تحتاج لهذا الرجل يومًا ما. وليس من الحكمة أن تعاديه، بل يجب أن تصنع معه علاقة ود. عبرت له الشارع واعتذرت له عما بدر منها فنهض مُرحبًا بها وأخبرها أنه قد نسي تمامًا ما حدث وطلب منها أن تخبره بأي شيء قد تحتاجه، وأنه على أتم استعداد لتنفيذ أي خدمة لهم. فشكرته بحرارة مجبرة عليها وعادت مرة أخرى أمام المحل بسرعة لتمنع أي شخص قد يدخل لأي سبب.

مرت ثلاث ساعات وقد انتهى جمال من حفر عمق أربعة أمتار. وثبّت السلم على جدار الحفرة. دخلت سمر لترى ما تم إنجازه فانشرح قلبها مما رأته، كان إسحق قد بدا عليه التعب والإرهاق وكأنه قد نقل جبلًا من مكانه، ولم يكن حال حسام أفضل من حاله، بمجرد أن رأى سمر تقبل عليهم سألها بأنفاسٍ لاهثة:

- متى سنذهب إلى الفندق؟! فأنا متعب جدًا وأوشكت على لفظ أنفاسي الأخيرة و...

قاطعه إسحق: - وأنا أيضًا... وعلاوة على تعبي فأنا جائع جدًا وبطني تقرقر منذ ساعتين...!

ربتت على كتفهما ووقفت على حافة الحفرة تنادي على جمال الذي كان مُنهمكًا ويعمل بكدٍ واضح. لم يسمعها فحركت السلم كي تلفت انتباهه فاستوقف العمل ونظر لأعلى. أشارت له بيدها إشارات فهم منها أنها تسأله متى سينتهي، فأشار لها بيده أنه سينتهي بعد نصف ساعة سيكون انتهى فيها من حفر الخمسة أمتار كاملة. وأمرها بنظرات حادة أن تخرج بسرعة لتقف أمام المحل كما كانت. فاعتذرت له وابتعدت عن الحفرة لتخبرهم بما فهمته من جمال فتأففا وكادا يبكيان، لكنها شجعتهم قائلة:

- أحبائي، نحن نتحدث عن ملايين، فلنتعب قليلًا، فهذا التعب لا يساوي شيئًا أمام ما تعبناه طوال حياتنا. وحتمًا لن يساوي شيئًا أمام هذه الملايين التي تنتظرنا بالأسفل... أليس كذلك؟!

نظرا إلى بعضهما البعض في نفس الوقت الذي هزَّ فيه جمال السلم بالأسفل، فنظر له حسام ليرفع الوعاء الذي امتلأ..

وقفت سمر مرة أخرى بالخارج لمدة ساعة حتى انتهى جمال من حفر الخمسة أمتار كاملة. وزاد عليها نصف مترًا آخر. استخرج حسام آخر وعاء من الطين وارتمى بعدها على ظهره قبل أن يناوله إلى إسحق الذي أفرغه في الشُوال الأخير وزحزحه بصعوبة وقد استلقى هو الآخر على الأرض وقال صارخًا أنه لا يستطيع حمل ريشة أخرى.

صعد جمال على السلم، تنفس الصعداء وشعر هو الآخر رغم قوته الجسمانية أنه تعب كثيرًا، فعلاوة على المجهود البدني الذي بذله، كان التنفس في الأسفل صعبًا. رفع الشُوال الأخير الذي لم يستطع إسحق رفعه. كان هذا حين لمحته سمر فأشار له بيديه أنه انتهى. فطلبت من الشابين المتهدلين أن يوقفا «الدي جي» قبل أن تدفع لهم ما طلبوه منها... فتنحنح الشاب واستأذنها أن يبتعدا قليلًا ليخبرها بشيء، عبرت معه الناحية الأخرى بجوار محل الألبان وسألته ماذا يريد. فقال لها وهو يغمز بعينيه:

- لم أرفع عيني من عليكِ منذ أن بدأت التشغيل... ولن أخفي عليكِ، أنتِ أجمل فتاة رأيتها في حياتي، لا أريد مالًا. بل أريدكِ أنتِ... هل لديكِ مانع في أن نتقابل اليوم في كافيه سانتوس بالليل؟!

- كافيه؟! أليست لديك شقة؟

التمعت عينا الشاب وقال لها ولعابه يسيل من فمه: - من قال ذلك؟! بالطبع لديَّ شقة في بيطاش وشقة أخرى في سموحة.

- هل تريد أن تنام معي.. قل لي بصراحة؟! سألته مُبتسِمة

ارتبك الشاب وأجابها وهو بالكاد يزدرد لعابه والعرق يقطر على جبهته وقد شعر بحرارة تحرق كامل جسده:

- بصراحة.. نعم.. أريد ذلك جدًا.

حسنًا، اكتب لي العنوان، وسآتي لك في تمام الساعة الثانية عشرة، ولكن لا تنس أن تحضر أمك معك، لأنني سأنكحكما معًا.

تلعثم الشاب: ماذا؟! ماذا تقولين؟ ماذا..

قاطعته بصوتٍ عالٍ خشن من مؤخرة أنفها لدرجة أن الرجل البدين سمعها. ارتبك الشاب أكثر، وضعت مائتي جنيه في جيبه الخلفي وهي معلقة عينيها على عينيه قائلة له «اختف من هنا»، كاد الشاب يبول على نفسه. وزادت دقات قلبه حتى كاد يخرج من صدره.

- حسنًا.. حسنًا...

أخذ صديقه الذي انتهى من وضع المعدات في السيارة... وغادرا.. كان إخوتها قد خلعوا ملابس العمل وأغلقوا المحل. سألها جمال ضاحكًا عما دار بينها وبين الشاب الأخرق، فأجابته وهي تضحك أيضًا: - لا شيء، كان يريدني أن أخصيه فقط.

كانت المسافة بين المحل والفندق حوالي مئتين متر لم يستطع كلا من إسحق وحسام أن يقطعاها سيرًا على الأقدام واقترحا أن يستقلا سيارة أجرة. لكن جمال كان له رأيًا آخر.

- لا مشكلة لديَّ في أن نستقل سيارة أجرة على هذه المسافة القصيرة. ولكننا نريد ملابس جديدة، ليس فقط لأن هذه الملابس التي علينا قد بُلِيَت وتهدّلت، ولكن أيضًا لأننا لا نملك غيرها هنا. لهذا يجب أن نشتري على الأقل طقمًا آخر لكلا منا.. تحملوا قليلًا فالمسافة ليست كبيرة بالشكل الذي تتخيلونه.. وها هو الفندق... قالها وهو يشير إليه. فقالت لهم سمر أنها ستتركهم إذن وستذهب هي إلى الفندق، على أن يتقابلا بعد ساعتين أو ثلاث ساعات، ستذهب فيها إلى الساونا الملحقة بالفندق وتستمتع بالبخار والحرارة والتدليك...

ركبت سمر التاكسي بينما تمشوا حوالي خمسين مترًا حتى وصلوا إلى أحد المحلات التي تعرض ملابس رجالي وشبابية، اشترى كل منهما طقمين جديدين، كل منهما تعجب حينما رأى ذوق الآخر مخالفًا لذوقه تمامًا. دفع جمال في النهاية قيمة الفاتورة بالكامل قبل أن يدلف محل إكسسوارات هواتف محمولة ليشتري شاحنًا جديدًا لهاتفه. طلب حسام منه على استحياء أن يعطيه خمسين جنيهًا ليشتري زجاجة عطر. ضحك جمال وأعطاه مئة جنيه وأخبره مبتسمًا أنه لا يريد الباقي. فارتسمت بهجة على وجهه ودلف محل العطور.

كانت نظرات جمال لحسام. ولإسحق أيضًا تجمع بين الشفقة والحب. ذلك الشعور الذي يجعل الإنسان على استعداد أن يفعل أي شيء للذي أمامه. فكرة أنه كان داخل رحم واحد بجوارهما لمدة تسعة أشهر، يتقاسمون فيها كل شيء... بالعدل وبالتساوي. لهي فكرة تستحق التأمل. فأين هم الآن. في الدنيا...! التي فرّقتهم وجعلت كل واحد فيهم في عالمٍ مختلفٍ تمامًا عن الآخر. لكل واحد قدره، حياته، ديانته، عالمه... متأثرًا بماً يحب ويكره. بما عاشه وتعايش معه. بما عاناه وعاينه. فتكون ذلك المشهد؛ رجل معه أموال ويستطيع تحمل مصاريف نفسه، والثاني شماس في كنيسة جيبه يكاد يكون خاليًا. والثالث عائش لا يعرف ماذا يريد. وليس معه ثمن زجاجة عطر...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاث ساعات ونصف

أخذ كل منهم حمامًا ساخنًا أزال فيه كل تعب اليوم، وبينما يرتدي حسام ملابسه الجديدة وينظر لنفسه في المرآة بزهوٍ وتباهٍ وهو يرش العطر على جسده. كان إسحق ممسكًا بقصافة يقص بها أظافره ويتطاير بعضها على الأرض فصاح جمال الجالس على الأريكة يشاهد التلفاز وممسكًا بكوب البيرة: - أيها القس المبجل، أرجوك ارحمني من أظافرك التي تتطاير في كل الأنحاء وكادت تدخل فمي...!

فاعتذر له إسحق، ووجه جمال كلامه إلى حسام ساخرًا: - لم أشاهدك مرة واحدة تصلي يا حسام. ألم تقل إنك أزهري ومؤمن بالله وتحاول دومًا أن تُصدِّر لنا هذه الفكرة؟ لماذا إذن لم أرك ولو مرة واحدة تُصلي؟!

- ومن قال لك أنني لا أُصلي؟ هل مفروض عليَّ أن أستئذنك أولًا؟

- أنت معنا طوال الوقت... أليس كذلك يا إسحق؟ استحلفك بمسيحك.. هل رأيته صلى من قبل؟!

- لا تدخلني معكما في هذا الحوار لأنه ينفعل. وإن تحدثت معه في هذا الشأن سيعتبرها إهانة.. أو ازدراء أديان..

كان ذلك حين رنَّ هاتف جمال الموضوع على المنضدة يشحن... رد جمال على الهاتف وكان المتصل سمر التي سألته هل انتهوا فأخبرها أن نعم وسينزلوا بعد عشر دقائق.. فقالت له أنها تنتظرهم عند كورنيش البحر أمام المبنى...

أغلقت الهاتف واتصلت بشريف الكردي الذي اتصل بها كثيرًا جدًا طوال اليومين الماضيين لكنها لم تجبه. رد عليها مُنفعِلًا حين اتصلت به: - يا عاهرة يا بنت الكلب.. أين كنتِ طوال اليومين الماضيين، كاد قلبي ينخلع من صدري قلقًا عليكِ.. هل هذا ما اتفقنا عليه يا سمر؟! لماذا تفجعيني عليكي هكذا...؟ هل هذا هو الوعد الذي...

قاطعته..: - مهلًا مهلًا.. أنا أعلم أنني مخطئة يا حبيبي، ولكن أقسم لك أنني معذورة، فقد حدثت لي أشياء كثيرة، وأحداث أكثر. الحدث وراء الحدث لم ألاحق على شيء. هذا غير...

سكتت لهنيهة وهي مُبتسِمة فسألها: - هذا غير ماذا.. أجيبيني...!

كان البدر فضيّ اللون ينتصف السماء تمامًا، مُرسِلًا ضوءه إلى البحر، راسمًا لوحة تضاهي لوحات دافنشي... أجابته مردفة ولازالت ابتسامتها تعلو صفحة

وجهها الذي لا يقل سحره عن سحر ذلك القمر فوقها:

- هذا غير أنني لست مصدقة أن في هذه الدنيا يوجد شخص ما يقلق عليَّ بحق، فأنا معتادة دومًا أن أغيب دون أن يسأل عليَّ أحد أو يقلق. كل الذين عرفتهم تنتهي معرفتي بهم بعد أن ينالوا مني ما يحتاجوه..

- أعرف.. أعرف كل ذلك. ولكنني أقسمت لكِ من قبل أنني لست مثل هؤلاء المنحطّين. أنا أحبك فعلًا يا سمر. لن أحب أي امرأة غيرك وهذا وعد. أنا أعبدك يا سمر، أنت ملجأي وموئل روحي، عيناك هي محرابي، وقلبك قبلتي أُوَلّي كياني شطره...!

خفق قلبها بشدة، لم تستطع الرد على كلامه هذا الذي مسَّ فؤادها للمرة الأولى في حياتها ليفجّر بداخله براكين حب خامدة وقد ظنت أنها ستظل هكذا للأبد، وأن قلبها قد نضب وجفت بحيرات العشق بداخله، اكتفت بالصمت. ومازالت مرتسمة على شفتيها انفراجة ساحرة أخَّاذة قد أشرق بها وجهها المنسدلة حوله خصلات شعرها الذهبيّ الغجريّ المموّج، والذي لا يقل تموّجه جموحًا عن تلك الأمواج المتلاطمة وراءها...! اكتفت بالصمت.. لجمال كلامه؟! ربما. طمعًا في سماع المزيد؟! ربما. لأنها لم تستطع إيجاد الرد المناسب لمثل هذا الكلام الذي لم تعتد على سماعه من قبل؟! ربما.

الشيء الوحيد الذي أدركته حينئذٍ أن كل ما عانته طوال حياتها، سوف تجد له مُقابِلًا، وستبتسم لها الدنيا أخيرًا، بل وتضحك وتقهقه.. ستحصل على ثروة طالما فكرت في الحصول عليها. ستتزوج من رجل يحبها بصدق. أرسلته لها السماء أخيرًا. رجل استطاع دون عناء أن تمتزج روحه بروحها، أن يرى كل ما بداخل قلبها حتى تلك المناطق شديدة الظلمة. ودّعته ووعدته أن تتصل به قريبًا جدًا... ثم أغلقت الهاتف في الوقت الذي لمحت فيه الإخوة يعبرون الشارع إليها. سألتهم هل أكلوا فأخبروها لا..

- أنا أيضًا لم آكل حتى الآن. لكنني رغم ذلك لست جوعانة، بل سعيدة جدًا ولم تسع قلبي سعادة الدنيا بأكملها.

- لماذا؟! سألها إسحق فأجابته مرتجلة بعينين زائغتين وهي تحرك يديها مُراوِغة:

- ليس لسببٍ معين. أو ربما لأن الله جمع شملنا بعد شتات عقود. المهم. أنا – كالعادة – سأعزمكم على الغداء. أين تحبون أن نذهب؟!

اقترح إسحق أن يذهبوا إلى كبابجي أبو شقرة، وحسام اقترح أن يذهبوا مرة أخرى إلى جندل بينما اقترح جمال أن يذهبوا إلى كبدة الفلاح، فوافقت سمر على الاقتراح الأخير. وكانوا هناك بعد ربع ساعة. جلسوا على منضدة خارج

المحل فوضع لهم أحد العاملين كيس شيبسي كبير وزجاجتين من المياه المعدنية وطبقين بهما مخلل وليمون. وهو يسألهم ماذا سيطلبون. طلبت سمر سندوتشين بينما كل من الإخوة طلب ثمانية. دوّن الرجل ما طلبوه في ذاكرته الحديدية وذهب ليحضره لهم حين سأل إسحق.

- ما رأيكم فيما فعلناه اليوم؟! هل يعتبر مُبشّرًا أم ماذا؟

أجابه جمال.: - أنا أرى أنه مُبشّر. نحن اليوم حفرنا خمسة أمتار. لو عملنا على هذا النحو سننتهي بعد أربعة أيام. وهذا خبر لو تعلمون عظيم.

سكت لثانيتين وهو يزمّ شفتيه ثم أضاف: - ولكن أريد منكما. ومنك أنت على وجه الخصوص يا إسحق. أن تتحلّى بالقوة قليلًا. فأنا أقوم بأكثر الأدوار مشقّة. وهو الحفر. وهذا شيء صعب جدًا وأنتم تعلمون ذلك جيدًا، وسيكون أصعب حينما أبدأ غدًا في الحفر إفقيًا تجاه الصندوق. فأرجوكما أن تتحمّلا قليلًا. لو عملنا «برجولة» خمس ساعات يوميًا سننتهي كما قلت لكم بعد أربعة أيام...

- أنا أتفق معك يا أخي، قال حسام. كل الموضوع أن اليوم كان البداية، ودائمًا ما تكون البداية وخصوصًا في مثل هذه الأعمال الشاقة صعبًا للغاية. لا تنس أننا لسنا معتادين على ذلك.

- أعرف.. عمومًا كما قلت لكما أننا اليوم أبلينا بلاءً حسنًا...

تدخلت سمر وهي تفتح كيس الشيبسي وتأخذ منه شريحة: - هل تحتاجون إلى أشياء إضافية أشتريها لكم غدًا في الصباح؟!

- نعم.. أجابها جمال سيراميكة وهو يدس كفه داخل كيس الشيبسي ليخرج في قبضته ثلثي الكيس تقريبًا وهو يردف:

- سنحتاج لأنابيب أكسجين لأنني حين وصلت في الحفر لأسفل شعرت أنني أتنفس بصعوبة. يكفينا أنبوبين ونستبدلهما كل يوم...

- حسنًا، هذا سهل. أي شيء آخر؟!

أضاف إسحق: - سنحتاج للاتصال بالسيارة النقل التي ستأخذ أشوِلة الرمل والطين غدًا. قبل أن نبدأ.

- لا تضيع وقتًا يا إسحق. هيا اتصل بهم الآن على الفور طالما معك رقمهم... قالها حسام فأخرج إسحق الهاتف من جيبه واتصل بالسائق مؤكدًا عليه أن يأتي في تمام الساعة الواحدة ظهرًا. أغلق المكالمة وقال محدثًا نفسه بصوتٍ منخفض: - سأتصل بحبيبتي دميانة لأطمئن عليها لأنني أفتقدها جدًا...

في نفس الوقت الذي تحسس حسام جيبه ليخرج الهاتف ليتصل بزوجته هو الآخر، لكنه لم يجد هاتفه.. وقف واضعًا يديه في جيوبه يبحث عن الهاتف فلم يجده، انتصب شاردًا مضيقًا عينيه، محاولًا تذكر أين تركه آخر مرة. سأله إسحق: عما تبحث؟!

- لا شيء، من الواضح أنني نسيت هاتفي في الفندق. كنت أريد أن أتصل بأماني لأطمئن عليها.

أخرج جمال هاتفه من جيبه وأعطاه إياه ليتصل بها، فأخذ منه الهاتف واتصل بها فوجد هاتفها مغلقًا.

كان هذا حين جاء الرجل بطبقين كبيرين بهما ستة وعشرين سندوتش كبدة وطبق آخر مليء بالليمون.. أكلوا ثم قضوا باقي وقتهم في مقهى فاخر بجوار الفندق قبل أن يصعدوا إلى غرفهم. لينالوا قسطًا من الراحة تمهيدًا ليوم جديد...

وحفر أمتار أخرى متجهة إلى هدفهم...!

الصندوق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي

ركنت السيارة النقل تاركة وراءها غبارًا كثيفًا، نزل من ظهرها ثلاثة عمال دخلوا المحل، كانوا قد أخفوا فتحة الحفرة بواسطة المكتب. فلم يلاحظ العمال شيئًا حين أخذوا الأشولة الموضوعة فوق بعضها بعضًا وكان عددها تقريبًا خمسة عشر شُوالًا. وذهبوا بعد أن أعطوا لإسحق عشرين شوالًا فارغًا. دخل الإخوة المحل وأغلقت عليهم سمر من الخارج بعد أن وقفت لأكثر من عشرين دقيقة تراقب الموقف إلى أن اطمأنت أن كل شيء هادئ، مستقر...

وعلى ما يرام.

بينما ارتدوا ملابس العمل وبدأ جمال في الحفر أفقيًا بواسطة أدوات الحفر اليدوية، ووقف حسام فوق الفتحة كالعادة ليأخذ منه الرمال والوحل فيرفعها إلى السطح ويناولها إلى إسحق الذي يعبئه في أشولة. كان ذلك حين ذهبت سمر إلى محل بجوار كلية الطب جامعة الإسكندرية، متخصص في بيع الأدوات الطبيّة. ابتاعت أنبوبتين أكسجين، ثم عرجت بعدها إلى محل معدات بناء لتشتري قضيبين حديديين وقاعدة ذات عجلات دائرية تسير عليها بسهولة. بالإضافة إلى وعائين حديديين. وعادت إليهما بعد ساعة تقريبًا، ولم تنس أن تشتري لجمال زجاجتي بيرة تعرف أنهما ستساعداه على إنجاز

العمل بشهيّة مفتوحة. فكرت ماذا يمكنها أن تشتري لحسام وإسحاق لتحفيزهما على العمل فلم تجد. لم تفكر في الأمر كثيرًا واكتفت بشراء البيرة وفتحت المحل وأعطتهم كل ما اشترته. وأغلقت عليهم من الخارج مرة أخرى. جلست تنتظرهم في مقهى بجوار المحل واتصلت بالمستشفى لتسأل عن حالة والدها الصحية وإن كانت تستطيع التحدث إليه. فأخبرتها الممرضة أنه نائم الآن. وأن حالته الصحية تتحسن. فشكرتها وأغلقت الخط..

كان الإخوة بالداخل يعملون على قدمٍ وساق. رغم كل ما عاناه إسحق وحسام بالأمس، في مهام ليسا معتادين عليها لكنهما اليوم بدا وكأنهما قد تعوّدا نوعًا ما على بذل ذلك المجهود الشاق. لكن جمال الذي يعتبر أقواهم بأسًا لاحظ أنهما يحتاجان راحة كل ساعة كي يستطيعا استكمال مهامهما. وهو أيضًا يحتاج إلى أن يشرب سيجارة ويرتاح قليلًا. فاقترح عليهما أن العمل سيكون لمدة ساعة بعدها راحة لربع ساعة. وقد رحبا بهذه الفكرة.

كانت طبيعة الأرض في الأسفل رمليّة، مما ساعد جمال سيراميكة على الحفر بسهولة وسرعة ويسر. بعد حفر ثلاثة أمتار في النفق وضع القضيبين وثبّتهم جيدًا، ووضع فوقه القاعدة ذات العجل، وفوقه الوعاء الحديدي. كلما يحفر قليلًا يضع الوحل داخل الوعاء ويرفعه على القاعدة ويدفعها لتصل إلى نقطة البداية، فيلتقطها حسام بالحبل المربوط بحبل في نهايته خُطّاف يلتقط به الوعاء ويرفعه لأعلى ويناولها لإسحاق الذي بدأ يقوم بدوره على أكمل وجه. بعد ذلك يلقي حسام الوعاء الفارغ لجمال. مرت ثلاث ساعات على هذا المنوال ثم صعد جمال ليستريح قليلًا فتوقف أخويه عن العمل وجلسا بجواره وبالكاد يلتقطان أنفاسهما. لمعت عيني جمال حين رأى عبوات البيرة، شكر سمر في سرّه وراح يفتح واحدة منها وأخذ يحتسيها مع سيجارة حشيش كان قد جهزها بالأمس. ضحك حسام قائلًا:

- هيئتك يا جمال وأنت جالس هكذا مستندًا ظهرك إلى الحائط وممددًا إحدى قدميك، وممسكًا بسيجارة وبيرة. ذكرتني بمورجان فريمان في فيلم شاوشانك...

نظر له جمال مبتسمًا ابتسامة خفيفة سرعان ما تحولت إلى ضحكة بصوتٍ منخفض. بينما حاول إسحق فهم ما يتحدثان عنه لكن بلا جدوى. لأنه ببساطة لم يرَ هذا الفيلم. علّق نظره إلى زجاجة البيرة فلاحظ جمال أن لعابه يسيل عليها وسأله إن كان يريد أن يجربها. فهز رأسه بالسلب مُترددًا. شعر جمال أنه إذا مد إليه يده بها لن يرفض. وبالفعل. وضع العبوة على الأرض ودفعها تجاهه حتى استقرت أمام ركبتيه. نظر لها إسحق وهو يفكر خائفًا أن يجرب رشفة منها. وكان حسام متربصًا لما سيفعله. حتى قطع جمال تفكيره.

- هل ستجربها أم آخذها مرة أخرى... أجب الآن.

هزَّ رأسه منفعلًا مرة أخرى بالسلب، مدَّ جمال يده ليأخذها فخطفها من أمامهما حسام وظل ينظر لها وهو يفكر أن يجربها. صاح إسحق: - ما هذا الذي تفعله؟ أعطني إياها.

- لا سأجرب رشفة منها أولًا ثم أعطيك الباقي.

أطلق جمال ابتسامة خفيفة قائلًا لحسام: - ألم تدرس في الأزهر طوال تلك السنوات أن البيرة حرام؟!

- نعم درست، ولكنني أريد معرفة تأثيرها. فإن أذهبت عقلي ستكون حرامًا، وإن لم تفعل فهي حلال... والله أعلم.

- حقًا؟! قال جمال متعجبًا ثم التفت إلى إسحق: - وأنت أيها القس المُبجَل المبارك. ألم تنهك المسيحية عن احتساء الخمور وتعتبرها خطية؟

- الرب راعي يا جمال. ويعرف جيدًا أن النفس ضعيفة، ثم أنني كنت سأجربها فقط.

- ومن قال لك أنك إن جربتها لن تعتاد عليها وتدمنها؟!

لم يأبه إسحق لكلامه مُنتبهًا إلى حسام الذي أخذ رشفة منها فنهض وخطفها من يده وارتشف الباقي بينما كان جمال لم يستطع تمالك نفسه من الضحك... رغم أنه كان يضحك بصوتٍ خافت.

بين الحين والآخر كانت سمر تمر بجوار المحل لترى إن كان هناك أي صوت من الداخل من الممكن أن يتسلّل للخارج، لكنها لم تسمع أي شيء. وساعد على ذلك أيضًا الزحام في الشارع وأصوات أبواق السيارات.

أحس جمال أن هذه اللعبة مُسلّية، استخرج سيجارة من علبته ولوّح بها أمامهما قائلًا: - سأعد من واحد لثلاثة. إن لم ينهض أحدكما ويأخذها فسآخذها أنا... واحد.. اثنان..

نظر حسام وإسحق كل منهما إلى الآخر وقبل أن يعد جمال الثالثة، نهضا في نفس الوقت ومدا أيديهما لالتقاط السيجارة فسحبها جمال بسرعة وأخذ يضحك مرة أخرى قائلًا: - لا أدري كيف ستكون حياتي بدونكما فعلًا... استخرج سيجارتين وأشعلهما وأعطى كل واحد منهما سيجارة. وهو يحذرهما أن يسعلا أو يصدرا أي صوت.

في البداية أخذا ينفثون دخانًا دون أن يسحبوه على صدرهما، ثم علّمهما جمال كيف يدخنان حتى صارا يدخنان بالطريقة الصحيحة قبل أن ينهض مرة

أخرى مُلتقِطَا أنبوب الأكسجين ونزل بها في الحفرة ليُكمِل الحفر...

لم تكد تمر ساعة أخرى حتى بلغ إجمالي ما حفره خلال اليوم حوالي خمسة أمتار، حين دفع الوعاء المليء بالطين إلى حسام وقف أسفل الحفرة ليسأل حسام إن كان هو وإسحق يستطيعان العمل لساعة إضافية إنجازًا للوقت؟ تشاورا بعينيهما لهنيهة كأنهما يتأملان الأمر ثم أخبراه أنهما موافقان. فاستمر جمال في الحفر حتى انتهى من متر آخر حين كاد إسحق يغشى عليه من التعب. ونفس الشيء بالنسبة لحسام الذي نضب وصاح فيه مُنفعِلًا: - قل لي ماذا تأكل.. وماذا تشرب؟! ألم تتعب قط؟! أقسم لك أننا لو لم نمت هكذا أمامك لمدة أسبوع لكنت استمريت في الحفر دون كلل...! ألم تنظر لنا أي نظرة شفقة؟! هل أنت كافر؟!

رفع جمال رأسه ناظرًا لأعلى: - نعم.. أنا كافر.

أزاح إسحق حسام بيديه ووقف مكانه قائلًا لجمال: - نحن نتحدث الآن بجدية أيها الكافر. لقد تعبنا. وأنا شخصيًا لن أعبئ شيكارة أخرى... التفت إلى حسام: - ماذا عنك يا حسام؟!

- وأنا كذلك.

فقال لهما جمال وهو يغلق أنبوب الأكسجين ثم وضع الفأس بجواره ومسح العرق الذي يقطر على جبهته:

- حسن حسن... فلنكتف اليوم بهذا القدر.. أنا سألتكم هل نكمل أم لا فأجبتموني أن أكمل.. أليس كذلك؟!

- نعم هو كذلك. ولكن نكمل نصف ساعة إضافية أو ساعة على أكثر تقدير.. وليس طوال اليوم. نحن بشر يا أخي!!

صعد جمال عبر السلم وخلع ملابس العمل فخلع كلا من حسام وإسحق ملابسهما وهما ينظران إلى زجاجة البيرة الأخرى ثم نظرا إلى بعضهما البعض وهرعا إليها فسبقهم جمال ضاحكًا: - هذه لي.

احتساها على دفعة واحدة قبل أن يشعل سيجارة واتصل بسمر التي جاءت إليهما بعد عشر دقائق، نظرت حولها وتأكدت أن لا أحدًا ينتبه لها وفتحت الباب ليخرجوا منه وأغلقوه مرة أخرى. أخبرتهم أنها اتصلت بأحد المطاعم وطلبت لكل واحد منهم دجاجة مشوية وكباب وكفتة. استوقف حسام تاكسي واتجهوا مباشرة إلى الفندق...!

كانت أستار المساء قد انسدلت وانتصف القمر في قبة السماء حين دخلوا غرفتهم وتسلّلت سمر وراءهم ومعها الطعام، بمجرد أن رأوا الطعام أجهزوا

عليه وأخذوا يأكلون في نهم. لم تأكل سمر سوى قطعة لحم ثم جلست على أحد الكراسي ومددت قدميها على آخر لتحتسي زجاجة نبيذ أبيض وتدخن سيجارة وهي تنظر إلى أفق البحر مُلتقيًا مع السماء عبر زجاج الشرفة، كان ذلك حين سألها حسام بفمٍ ممتلئ بالطعام:

- هل صافحتي عني يا سمر عما بدر مني حينما كنا أطفال؟!

وقف الطعام حينها في حلق جمال بينما نظرت له سمر بطرف عينيها قائلة بعد تفكير: - حسام، أنس هذا الأمر ولا ترهق نفسك بالتفكير فيه، ومثلما قلت «كُنَّا أطفالًا»... وإن كنت تطلب السماح فعلًا فاطلبه من جمال...

نظر حسام إلى جمال محاولًا البحث عن كلمات يتفوّه له بها، فقال له جمال بعد أن أبعد عن فمه قطعة خبز كان سيأكلها:

- منذ قليل يا حسام، حين كنا في المحل أنت نعتّني بالكفر، أليس كذلك؟! هز حسام رأسه بالإيجاب، فسأله جمال: - وماذا أجبتك؟!... قال حسام: - أجبتني مؤكِدًا أن نعم...

أطرق جمال لهنيهة توقّف فيها إسحق عن الأكل مُترقبًا. كان هذا حين هبَّت نسائم خفيفة حركت ستائر الشرفة، أردف جمال: - نعم يا حسام أنا كفرت بكل شيء، كفرت بالحياة التي لم تبتسم لي قط ولم تقف في صفي يومًا ما. كفرت بالناس الذين عملت لديهم ككبش فداء. وكنت دائمًا أول شخص يحتمل أن يسجن. كنت في وجه المدفع طول الوقت. ماذا تعرف عن السجن الذي قضيت فيه خمسة أعوام، أنت جربته أسبوعين... تستطيع تخيُّل أسوء الأشياء التي يمكن أن تحدث... أشار لسمر ولازال موجهًا كلامه له: - اسأل سمر عن طبيعة المكان الذي أعيش وأعمل فيه... هل تعلم أن أبو شهد السمنودي يظن الآن أنني هارب منهم؟! وأن حياتي في خطر وربما هناك من يبحث عني الآن، وربما أيضًا يكون قد بلغ عني أحدهم للداخلية ولا سيما اللواء عماد أبو العزم الذي على استعداد أن يدفع نصف عمره مقابل أن يجدني.. ماذا تعرف عن ليالٍ كثيرة قضيتها في خطر؟ ماذا تعرف عن صحراء رُميت فيها عاريًا...

نهض وأنزل بنطاله مُستكمِلًا وهو يشير إلى جرحٍ قديم: - ماذا تعرف عن رصاصة تخترق فخذك مثل هذه؟!

أشاحت سمر وجهها ناحية الشرفة وقد انقبضت ملامح وجهها بينما نهض حسام الذي أخذ يبكي وأمسك يده ليقبّلها:

- سامحني يا أخي.. أرجوك سامحني.

بينما كان إسحق يراقب الموقف بطرف عينيه، سحب جمال يده بسرعة: - اسمع يا حسام، أنا لم أكن أتمنى أن يُفتَح هذا الحوار بيننا يومًا ما. ربما لأن الذي في قلبي ليس بالهيّن. أرجوك يا حسام لا تطلب مني المسامحة. أنا لست الله الذي تؤمن به أنت وتقول عنه التوّاب الغفور... الموضوع الآن أكبر من مسامحة وكلام رومانسي من هذا القبيل. فقد مات قلبي وجسدي وكل حواسي منذ أكثر من عشرين عامًا. وكل ما بيننا الآن شيئان: الأول هو تسعة أشهر قضيناها أنا وأنت وهذا القس البائس في مساحة لا تتعدى نصف متر....

الأمر الثاني هو الكنز...

وصدقني... أنا كبرت الآن ولن تفيدك في شيء مسامحتي من عدمِها. فأنت لن تستطيع أن تعطني العمر الذي سُلِبَ مني، لن تستطيع أن تُعيد لي أي شيء فقدته... وافتقدته. سكت لثوانٍ ثم أردف مبتسمًا ابتسامة منكسرة: - وعمومًا أترك الأيام تصلح ما أفسدته النفوس. من يعلم؟!

نهض بسرعة محاولًا إخفاء دمعتين حارتين طفرتا من عينيه وتركهم ليدخل الشرفة، قالت سمر لحسام لائمة: - هل ارتحت الآن؟! لماذا فتحت هذا الموضوع السخيف؟! لماذا أنت مُصِرّ على الضغط على جرحٍ نحاول جاهدين أن نشفيه؟! أتمنى أن تكون قد شعرت بالراحة الآن...!

أطرق حسام وقد شعر بالندم فيما فعل. بينما تدخل إسحق قائلًا له بصوت مليء بالخشوع:

- يا حسام، لا تذكر الماضي ولا تنبش فيه؟

- وماذا نحن فاعلين الآن؟ ألم ننبش فيما تركه الماضي لنا؟

تدخلت سمر لترد عليه منفعلة بدلًا من إسحق: - لا، لا ليس الأمر كذلك. نحن ننبش لنستخرج كنز لا لنستدعي جروح تطفو فوق السطح وقد جاهدنا لنجعلها راكدة.

فأردف إسحق: - يا أخي حسام، يجب عليك أن تكون إناء لله ليستخدمك، وتأكد أنه يصفح بسهولة لأنه يحبك ولا يريد ايذائك. وطالما ندمت على ما فعلت لا تحاول أن تفتح مواضيع قد تجرح اخوتك..

- هل تستطيع أن تسكت؟ فأنا لست مرقص يجلس أمامك في الكنيسة طالبًا منك الموعظة...!

- دعك إذن من هذا الهراء وادخل قبِّل رأس جمال. ولا تفتح هذه المواضيع مرة ثانية

دخل حسام الشرفة يجُرّ قدميه فوجد جمال ينظر إلى التقاء البحر مع السماء وهو يمسح عينيه بباطن كفه، وقف وراءه ثم وضع يده على كتفه مُترددًا:

- لم أكن أعرف أن قاتلًا مأجورًا وتاجر مخدرات من الممكن أن يبكي مثلنا.

استدار له جمال قائلًا: - لم أكن أريد أن أسلك هذا الطريق. أحيانًا نكون مجبرين على السير قدمًا في طريق ليس مناسبًا لنا. نحن الثلاثة كنا في بطنٍ واحدة. ومن الممكن جدًا أن أكون أنا الآن شماس في كنيسة وتكن أنتَ القاتل بائع المخدرات.

- وأنت تكون كاتبًا؟! سأله متصنعًا التقزز فأجابه سيراميكة وهو يمسح عينيه مما تبقى من دموعه..

- نعم.. ولكني كاتب ناجح ولديَّ قراء بالملايين.

- أقسم لك أنك سخيف... قالها حسام وهو يلكزه في كتفه فتفادى لكزته بخفة وضحكا حين دخل عليهما إسحق ومن بعده سمر التي ناولته زجاجة بيرة:

- هكذا تكون الأخوّة الحق. عشت طوال عمري مفتقدة هذا الجو الجميل.. وكنت أتمنى أن تكتمل هذه الجلسة مع أبي وأمي... وأمكم.

- فلينيحهم الرب ويسكنهم عليائه. قالها إسحق في حين أخذ جمال علبة البيرة من سمر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي

بالكاد استيقظ الإخوة الساعة الثانية ظهرًا، بعد أن ناموا في الليلة السابقة الساعة الثالثة فجرًا...!

كانوا قد سهروا – كالعادة على حساب سمر بعد أن نفد المال الذي كان مع جمال هو الآخر – في كافيه السلسلة أمام مكتبة الإسكندرية والمطل على البحر تمامًا. ظلوا يتسامرون ويحكون عن تفاصيل حياتهم في السنين السابقة. عادوا بعد ذلك إلى الفندق قبل الفجر بقليل. وارتموا على أسرّتهم غائبين عن الوعي. بينما استكملت سمر سهرتها بمفردها في بار الفندق. جلست حوالي نصف ساعة احتست فيها كأسين من البراندي. رآها أحد النزلاء وافتتن بجمالها وقوامها، اقترب منها وجلس على الكرسي المجاور لها مُحاولًا فتح حوار معها لكنه لم يلق منها سوى معاملةٍ جافة ورفضٍ تام. هل لأن بالها مشغول بما هو أهم منه ومن أهله؟! ربما. هل لأنها أخذت عهد

على نفسها ألا تخون شريف الكردي؟ ربما. هل لأنه لا يروق لها بشاربه هذا الذي تكرهه في جميع الرجال. ولو كان أوسم قليلًا وبدون هذا الشارب لكانت تجاوبت معه؟! ربما.

هي نفسها لا تدري، شعرت أن شيئًا ما بداخلها يحثها على الاستعداد لتغيير تلك الحياة واستبدالها بحياةٍ جديدة بعيدة عن التعب والمشقة التي كانت فيها. بعيدة عن بضعة مئات من الجنيهات مقابل ليلة مع غريب. بعيدة عن محاولة للإتجار في المخدرات وكادت تودي بحياتها خلال تلك المحاولة لولا أن الله أرسل لها جمال بالصدفة، ووضعه في طريقها. كثيرًا ما تسأل نفسها، ماذا لو لم تقابله في ذلك اليوم. ماذا لو قتلوها هي وشريف وألقوا بهما في عرض الصحراء بعدما يأخذون المبلغ الذي كان معهما؟!

هزت رأسها وهي تفكر في هذا الموضوع وشكرت الله وحمدته في سرها. قبل أن تصعد إلى غرفتها تاركة صاحب الشارب جالسًا وهو معلق عينيه الشاخصتين على مؤخرتها ناعيًا حظه على ضياع هذه الفرصة من بين يديه.

بعدما استيقظ الإخوة اتصل إسحق بسمر لكنها لم تسمع الهاتف إلا بعد الاتصال العاشر، ردت عليه بصوتٍ كسول وقالت له أن يذهبوا هم وأخبرته أنها ستلحق بهم بعد ساعتين، فأخذ حسام الهاتف من إسحق وهبَّ فيها قائلًا: - ومن الذي سيغلق علينا الباب من الخارج؟! ومن الذي سيراقب الجو العام في أول نصف ساعة في العمل بالداخل؟! ومن الذي سيشتري لنا أي شيء قد نحتاجه؟! ومن الذ...

قاطعته وهي تنهض من الفراش: - اسكت... اسكت... كف عن نوحك هذا لا تفعل هكذا مثل العاهرة التي نصب عليها رجل في المال المتفق عليه... انتظروني في الأسفل وسأكون أمامكم بعد نصف ساعة.

نهضت من السرير خائرة القوى وتشعر بأن رأسها غير متزن، جلست على حافته وهي تتحسس بيديها على الكومود لالتقاط علبة سجائرها وأشعلت واحدة، نفثت منها عدة أنفاس على الريق فشعرت برئتيها تعتصران صارخة فأطفأتها قبل أن ترتدي ملابسها ثم دخلت إلى الحمام لتغسل وجهها وتربط شعرها عشوائيًا وتنزل لهم.

كان النهار في هذا اليوم عليل والسماء زرقاء صافية، تهبّ من الشمال جهة البحر نسائم خفيفة مُحمَّلة برائحة اليود، وجدتهم واقفين ينتظرونها عند لوحة الفسيفساء. ذهبوا إلى المحل ولم تكد تفتح الباب حتى جاء الرجل البدين صاحب المحل بالناحية الأخرى، ألقى عليهم السلام بتوجُّس خشية بطش سمر. لكنها على عكس ما توقع، صافحته بوجهٍ مبتسمٍ بشوش كعدو يريد إحلال السلام. انتظرت حتى صافح اخوتها وتحدث معهم لدقيقتين ثم عاد

إلى محله مرة أخرى. أعطت المفاتيح لإسحق في نفس الوقت الذي جاءت فيه السيارة النقل وعلى ظهرها اثنين من العمال. فتح إسحق المحل ودخل العمال ليأخذوا الأشولة الممتلئة وأعطوهم بدلًا منها عشرون شوالًا فارغًا. طلب منها جمال أن تشتري لهم أخشاب أخرى واسطوانتي أكسجين وستة قضبان لدمجها مع القضيبين اللذين ثبتهما بالأمس في المساحة التي حفرها. كي يسهل عليه نقل الطين إلى فوهة الحفرة. راعى أن يكون القضيب مائلًا قليلًا ناحية الفوّهة كي لا يبذل أي مجهود في دفع الوعاء الممتلئ.

لكن جمال كلما توغل أكثر كان يشعر باختناق أكبر، رغم أنبوب الأكسجين الذي كان يثبته بجواره ويفتحه بحيث يسرب له ما يجعله يستطيع التنفس. مرت ساعة وقد انتهى من حفر مترًا ونصف قبل أن يصعد مرة أخرى على السطح ليشعل سيجارة ويرتاح قليلًا. جلس على الأرض واسند ظهره إلى الجدار وهو يتنفس الصعداء. ما جعل حسام يشعر به.

- ماذا بك يا جمال؟!

- لم أعد أستطيع تحمل ضيق التنفس بالأسفل كما كنت من قبل، فكلما توغلت شعرت أنني داخل قبر. وطالما يساورني هاجس أن هذا النفق سينهار عليَّ وأنا تحته.

سأله إسحق: - ألم تثبت الأخشاب يمينًا ويسارًا وأفقيًا بقوة؟!

- نعم أثبتهم بقوة ولكن هذا لا يمنع ذلك الشعور من التسلل إليَّ... دائمًا ما أفكر ماذا لو انهار عليَّ هذا النفق ودفنت حيًا فجأة...!

هز حسام رأسه مُتأسيًا: - فكرة الدفن أصلا فكرة مُرعِبة، ولهذا يجب علينا دائمًا أن نفكر فيها. أدعو الله أن ينجينا حين ندخل القبر ويثبتنا عند السؤال ويهوّن علينا ضيقه حين يضغط علينا.

سحب جمال النفس الأخير من سيجارته ثم ألقاها عليه مُنفعلًا: - ما هذا الهراء الذي تقوله؟ هل تخوّفني أكثر؟! وماذا عن عذاب القبر هذا؟ أفق يا حسام لا يوجد أي شيء مما تقوله. لا يوجد عذاب قبر.

لم يرد عليه حسام مكتفيًا بزمّ شفتيه بينما كان إسحق يراقب حديثهم ولم يعجبه كلام حسام أيضًا، استطرد جمال: - وثعبان أقرع وملائكة يهبطون من السماء ويحاسبونك وبلاء أزرق فوق رأسك ورأس كل من زرعوا هذا الخرف بداخلك.!

- أنا مثله تمامًا يا حسام... قالها إسحق فالتفت له حسام قاطبًا جبينه لكنه صحح ما قاله: - لست ملحدًا مثل جمال بالتأكيد، ولكنني لا أعرف ما هذه الأفكار البشعة السوداء التي تروجونها دائمًا؟ كلامكم هذا يجعل المسلمين

خائفين من لحظة الموت وما سيحدث بعده. بدلا من أن تطمئنوهم أن الرب راعي ويحبنا ونحن جميعًا أبناؤه ولن يفعل فينا أيًا من هذا إطلاقًا.

- ومن قال إن هذه الأفكار تجعلنا نكره الموت ونخشاه؟! المؤمن الحق أو المسلم الحق بمعنى أدق. لن يخاف من سكرات الموت ولا عذاب القبر. بل بالعكس سينتظر بشغف مقابلة الله. أما من كفر أو مات على غير الإسلام – قالها وهو يشير إليهما بسبابته – فسوف يلاقي عذابًا أليمًا ولن يشم رائحة الجنة وسيخلد في النار إلى الأبد.

- معنى ذلك أنني لن أشم ريح الجنة؟! سأله إسحق متعجبًا وهو يضحك. أنت موهوم يا حسام. أنت وأمثالك أجهل من أن تتحدثون عمن سيدخل الجنة ومن سيدخل النار، أنتم لا تملكون صكوك الغفران... أنتم...

انتفض عرق في جبهة حسام ولم يدعه يكمل ما يقوله، هجم عليه وأمسكه من تلابيبه ولكمه على وجهه في حين بصق إسحق على وجهه وتخلّص من قبضته وركله بقوة في بطنه حتى خرَّ على ركبتيه واضعًا يديه على بطنه ويتألم قبل أن يلاحقه إسحق بالقدم الأخرى ليركله فأمسك حسام قدمه بسرعة حين نهض جمال وحاول أن يفصل بينهما بالقوة. في نفس الوقت الذي سمعوا فيه الباب يطرق فتوقفا. أشار لهما جمال بيديه ألا يصدرا أي صوت في حين اقترب من الباب ليستطيع معرفة من الطارق. مُستبعدًا أن يكون سمر. لأنها لو كانت هي فستتصل على هاتفه أولًا كما اتفقوا. أرهف السمع مقتربًا من الباب حتى أدرك أن الذي يطرق الباب كان البواب. طرق مرة أخرى: - يا أستاذ إسحق... يا أستاذ إسحق.

أشار جمال لإسحق الذي يمسح نقطة دم سالت من أنفه أن يقترب ويتحدث إلى البواب. سأله إسحق: - ماذا تريد؟!

- لا أريد شيئًا، كنت قد أعددت لكما ثلاث أكواب شاي.

- باركك الرب.. أشربهم أنت... لا نستطيع فتح الباب الآن... اتسعت عيني جمال وهو يقترب منه ويهمس في أذنه أن يقول له إن السبب وجوده اثنان طن سكر يتم تعبئته وخائفين عليه من أن يختلط به رمال من الشارع أو أي شوائب. ففعل إسحق وقال للبواب مثلما أمره جمال بالضبط. فرحل الرجل وأعطى كوبًا من الثلاث أكواب إلى الرجل البدين، وجلس مع زوجته ليشربا الكوبين الآخرين...!

ساد الصمت مرة أخرى قبل أن يتحدث جمال الواقف بين حسام وإسحق ينظر لهما نظرات معاتبة قائلًا:

- لن أسمح لكما بأن تتحدثا في الدين مرة أخرى، كما أنني لن أسمح لكما بتكرار ما حدث وأن تتشاجرا هكذا ونحن في هذا الموقف. ضرب حسام في كتفه ضربة خفيفة: - ماذا سنفعل إذن حين نقسم الكنز بيننا نحن الأربعة؟!... ضرب إسحق نفس الضربة على كتفه: - وماذا ستفعلان إن أصاب أحدنا مكروه... هل ستساعدون بعضكما البعض أم ماذا؟! قبل أي دين نحن إخوة... أفهمتم؟!

ابتعد عنهما وأشعل سيجارة أخرى واستطرد بعصبية: - ها هو ما يفعله الدين.. يجعل الإخوة يتشاجرون وإن لم أكن موجودًا الآن بينكما لكان من الممكن جدًا أن تقتلوا بعضكما البعض...! لقد قلتها وسأقولها... لن ننعم نحن الثلاثة في سلام سوى في فترة التسعة أشهر التي قضيناها داخل رحم أمنا - رحمها الله – بدون أي دين أو ميول أو توجه...!

انحنى ليشمر بنطاله من الأسفل ويخلع شبشبه وينزل، وقف على الدرجة الثالثة من السلم ونظر لهما فوجدهما ينظران لبعضهما البعض بحقد وغل.. قال: - أقسم لكما بما تؤمنون به أنتم.. إن لم تزيلوا الحقد والكراهية من صدوركم لنهلك جميعًا.. لم يلتفت إليه أي منهما...

أكثر شيئين يمكنك اختبار إيمان أي شخص بهما هما الشهوات والمال...

أردف جمال محاولًا تلطيف الجو: - إن انتهيت من حفر جزء كبير اليوم، وصعدت لكما ووجدتكما قد أزلتما ما في صدوركما تجاه بعضكما البعض، سأعطي كل واحد منكما علبتين بيرة.. ما رأيكم؟

نظروا له وقد انفلتت من بين شفتيهم ضحكة على استحياء، مما جعل جمال يشعر ببعض الراحة قائلًا: - أي دين هذا الذي لا يستطيع منعكم من ارتكاب الفواحش يا كفار... فضحكوا جميعًا قبل أن ينزل مرة أخرى ويفتح اسطوانة الأكسجين ويعمل في كدٍ وصمت...

وقوة.

كلما توغل أكثر كلما شعر بأن قلبه يخفق بقوة أكبر، كان يشعر أن ثمة شيء يربط بينه وبين شيء مُبهَم مدفون تحت الأرض. لم يكف عقله عن التفكير فيما سيفعله لحظة إيجاد الصندوق. لحظة فتح الغطاء. النظرة الأولى لما بداخله...! وكلما يفكر أكثر كلما يضرب بفأسه أسرع وبقوة أكبر. للمال قوة غريبة، نفاذة. في ضخ الأدرينالين في العروق. في شحذ الهِمّة، تحفيز النفس. وتطويعها.

وهذا لم يكن حاله وحده، فكلا من إسحق وحسام أيضًا، يعملان منهمكين في تفكيرهم، غارقين فيه حتى آذانهم. يعلمون جميعًا إنها مهمة صعبة، الفشل

فيها ليس خيارًا متاحًا، لا مجال للخطأ. كان الثلاثة كلما غرقوا أكثر في تفكيرهم كلما ضخ الأدرينالين في عروقهم أيضًا فيشعرون بالحماسة ويعملون بكدٍ أكبر ويبذلون مجهود أعظم... أنتهوا من إنجاز سبعة أمتار أخرى في نفس الوقت الذي انتهت فيه أنابيب الأكسجين من الضخ. فبدأ جمال يشعر بضيق في التنفس وبالكاد عبأ آخر وعاء بالطين ودفعه ليرفعه حسام... وصعد جمال بعد ذلك ليتنفس الصعداء. وبشعل سيجارة وهو يبشرهم أنهم على وشك الحصول على حلمهم.

خلع كل من حسام وجمال ملابس العمل في حين كان إسحق يعبئ آخر شيكارتين ولم يكن قد شعر بالتعب الذي كان يشعر به خلال اليومين الآخرين... نظرًا لأنه اعتاد عليه. بعد عشرة دقائق تقريبًا انتهى أخيرًا من إغلاق آخر شيكارة قبل أن يخلع ملابس العمل. في حين اتصل جمال بسمر التي كانت تنتظرهم في مقهى بالقرب منهم. فتحت لهم في حين انخلع قلبهم حين رأوا من خلف ظهرها السيدة العجوز الشمطاء صاحبة العقار واقفة تشبّ على أطراف قدميها محاوِلة اختلاس النظر بالداخل. ارتبكوا قليلًا في حين تعامل إسحق مع الموقف بشيئٍ من الحكمة. أقبل عليها محنيًا مقبلًا يدها: - مساء الخير يا أمنا الرؤوم. كيفَ حالك ببركة السيدة العذراء الممتلئة بالنعمة؟ والمسيح الحي افتقدتك اليومين الماضيين يا....

بينما كان إسحق واقفًا أمامها ليلفت انتباهها عنهم هرع جمال بسرعة واضعًا المكتب فوق فوهة الحفرة ليداريها تمامًا... سألتهم إن كانوا يريدون شيئًا فأخبرها إسحق بالنيابة عنهم أنهم لا يحتاجون سوى أن تصلي من أجلهم. استفسرت بفضول وهي تشرأب بعنقها عما تحتويه هذه الشكائر فأجابها حسام بأدبٍ أنها تحتوي على غلة وحبوب ودقيق. سألته إن كان من الممكن أن يعطوها فاصوليا بيضاء وبعض من الدقيق بسعر الجملة. فأخبرها جمال بارتياح أنه سوف يرسل لها غدًا عشرة كيلو هدية من كل ما يعملون على تعبئته. فظهر حارس العقار من بينهم وكأن الأرض قد انشقت عنه، وطلب منهم أن يعطوه ولو ربع ما ستأخذه العجوز، فأومأت سمر له رأسها بالإيجاب وقد ارتسم على وجهها ابتسامة عذبة، وفي داخلها كانت تريد أن تبصق عليهما. لكن آثرت مجاراتهما حتى يغادرا في ألف سلامة..

أو في ستمائة داهية...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مطعم وكافيه سانتوس

يستطيع الجالس في أي مكان داخل هذا المطعم أن يرى البحر المتوسط بكامل درجات زرقته، علاوة على رؤية قلعة قايتباي الواقفة بشموخ على بُعد ثلاثة كيلومترات تقريبًا. جلسوا جميعًا على منضدة فجاء النادل يعرض عليهم قائمة الطعام والمشروبات، فطلب كل منهم نصف دجاجة مشوية ومياة غازية.. أضافت سمر للنادل مشيرة بسبابتها: - البيبسي دايت من فضلك. ضحك حسام فنظرت له سمر بعينين باهتتين وابتسامة مصطنعة. ذهب النادل فطرق جمال مُنفعلًا على المنضدة بقبضته لائمًا سمر:

- ألم أقل لكِ ألا تفتحي باب المحل دون أن تنظري حولك جيدًا وتتأكدي أن لا أحد بجوارك يا سمر؟! كنا على وشك أن ننكشف بواسطة هذه العجوز المخبولة.

- آسفة جدًا.. أعترف أنني أخطأت. سامحوني. أخذتني الحماسة فقط ففتحت مُسرِعة ولم أكن أتوقع أنها ستنبت من باطن الأرض هكذا كما رأيت.

- حسنًا... لا مشكلة... المهم أن الموضوع قد مرَّ بسلام.

- قل لي إذن... إلى ماذا وصلتم؟

- تستطيعين القول أننا غدًا مثل الآن سيكون معنا الصندوق... فقد اجتزنا تقريبًا ثلاثة عشر مترًا... وغدًا إن عملنا بجهد أكبر وساعتين أو ثلاثة أضافيتين سوف ننتهي من ذلك.

أرجعت ظهرها للخلف مستندة إلى ظهر الأريكة الجلدية الناعمة ورفعت رأسها لأعلى مُشرِعة ذراعيها، أغمضت عينيها قائلة:

- آآآآآه.. أخيرًا ستتحقق أحلامنا. صفقت بيديها وهي تنظر لهم مردفة: - يجب أن نفكر من الآن ماذا سنفعل بمحتويات الصندوق.

- قدمي المشيئة أولًا يا حبيبتي... قال حسام

قالت قاطبة وجهها: - إن شاء الله يا حبيب أمك، أهذا يريحك؟... قل لي إذن ماذا ستفعل بنصيبك؟

- بصراحة، وبدون زعل.. أنا أشعر أننا لن نجد هذا الصندوق وسيكون هذا الخطاب ليس إلا مجرد ورقة بائسة كتبها رجل سكير مجنون.

- وبالنسبة للخريطة المرفقة معه؟! سأله إسحق مُستنكرًا، محاولا عدم الانجراف وراء هواجسه

- والخريطة كذلك... ولو حتى ثبت صحة الخطاب والخريطة، من الممكن جدًا أنه قد أخذ الصندوق بعدما كتب هذا الخطاب ورسم تلك الخريطة. لما لا؟!

لاح الانزعاج على وجه كل من جمال الذي قطب جبينه وسمر التي قالت: - أووووه... أنت غيرت مزاجي بكلامك هذا يا حسام... لماذا أنت هكذا دائمًا مثل البومة؟! أتمنى أن تكون ارتحت حين أخرجتني من مزاجي الجيد.

- هذا لو حدث حقًا سأتمنى حينها أن ينطبق النفق فوق رأسي على أن أعود للفقر مرة أخرى بخفي حنين خائب الرجاء، طوال الحفر أفكر في تلك الحياة التي سأحياها بعيدًا عن أبو شهد السمنودي ورجاله الذين سئمتهم. وبعيدًا عن تلك الحياة السوداء المليئة بالمخاطر.

أطرقوا جميعًا لثوانً إلى أن عاد حسام قائلًا ببرود: - لذا قدموا المشيئة.. وبإذن الله تعالى عز وجل سنجد الصندوق. والآن أخبروني ماذا ستفعلون بنصيبكم؟!

ردت عليه سمر الذي اعتراها الفزع فجأة وامتلأ صدرها بالقلق والتوجُّس - بعد أن جعلت الظنون تتلاعب بنا يا بومة؟!... لدرجة أنني أريد الآن العودة للمحل ونحفر حتى نكتشف الحقيقة. فأنا الآن لا أستطيع الانتظار حتى غد.

- طبعًا، فأنت لست التي ستحفرين... قالها جمال مستنكرًا

استطرد حسام: - أو ترفعين... بينما قال إسحق بطبيعة الأمر: - أو تعبئين وتحملين وتغلقين...!

- حسنًا، سننتظر حتى الغد بفارغ الصبر.. وأنا متأكدة مليون بالمئة أن الصندوق موجود... وسنحصل عليه ونبيع محتوياته.

جاء نادل آخر بصينية كبيرة عليها الطعام الذي وضعه أمامهم وهو يسأل لمن البيبسي الدايت، لم ترد عليه سمر المطرقة تحدق في الطعام أمامها كأنها لا تراه، وقد ساورها شكٌ مؤرق، بدت ساهمة تمامًا تفكر في احتمالية عدم وجود الصندوق، أخذ جمال علبة المياه الغازية من النادل ووضعها أمامها فانتزعها من تفكيرها، وضعت يدها على العلبة وأخذت تحركها أمامها بذهنٍ مُشوّش وهي تتمتم بصوتٍ منخفض: - نعم.. أنا متأكدة مليون بالمئة أنّ الصندوق موجود...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الصباح التالي...

بعدما استيقظوا ظنوا أنهم إذا اتصلوا بسمر الآن سيجدونها مازالت نائمة، لكن العكس تمامًا هو ما حدث. أمسك إسحق هاتفه ليتصل بها فوجدها مشغولة لأنها كانت تتصل في نفس الوقت بجمال الذي أجابها فأخبرته أنها تنتظرهم بالأسفل.

أخذ كل منهم حمامًا وارتدوا ملابسهم التي أحضرتها لهم عاملة التنظيف منذ نصف ساعة، ونزلوا ليجدوا سمر تنتظرهم في مطعم الفندق، جلسوا فطلبت لهم فطور خفيف.

- ماذا سنفعل اليوم؟! ألقت السؤال أمامهم على المنضدة بينما مرت فوق رءوسهم سحابة القلق، الرهبة والتوجس. نظر الإخوة إلى بعضهم البعض حتى أجاب حسام الذي كان قلبه يخفق بقوة وقد بدا على وجهه إرهاق تفكير الليلة الماضية في حقيقة وجود صندوق من عدمه، أجابها بمزاج مشوّش ملوحًا بيده: - لا شيء، سنفعل كما فعلنا الأيام السابقة.. وسنتركَ الباقي على الله.

قال لها جمال وهو يشعل سيجارة: - نريدك أن تأتي بأخشاب أخرى كي ندعم النفق، لأن كلما يزيد طوله يصبح هشًا فيزيد خوفي وقلقي، نحتاج أيضًا إلى أنابيب أكسجين أخرى وستة قضبان أو ثمانية.

- حسنًا، سأحضرهم لكم في أسرع وقت... لن يتوقف عملكم عليَّ لا تقلقوا.

ساد الصمت بينهما للحظات قبل أن تستطرد ملوّحة بيديها في كل الاتجاهات: - لا تقلقوا.. الموضوع بسيط، نحن سنذهب الآن لنحصل على الصندوق. الموضوع بسيط. أليس كذلك؟! سألتهم طمعًا في إجابة تُصبّرها على مرور الساعات المقبلة. فهز إسحق رأسه موافِقًا حين جاء النادل بالطعام في حين أطفأ جمال السيجارة وأخذ قضمة سريعة من شطيرة البيض المقلي ونهض.

- إلى أين ذاهب...؟! نحن لن نتناول فطورنا بعد..

- لقد انتابتني نغصة في بطني، سأدخل الحمام.

بينما تناولوا فطورهم وضع حسام يده على ركبة إسحق قائلًا له بصوتٍ منخفضٍ وهو يبتسم: - آسف يا أخي، لم أكن أقصد ما فعلته بالأمس.

- أنت لست بحاجة لأن تقول ذلك يا حبيبي، فمصارين البطن تتشاجر مع بعضها البعض. لا عليك. وفكر فيما سنفعله بعد ذلك بالملايين.

- أخبرني إذن... ماذا ستفعل؟

- أول شيء سأفعله هو أن أخصص مبلغًا لإخوتي المسيحيين المتضررين من الأحداث الأخيرة. وأن أنشئ عيادة ملحقة بكنيسة مارجرجس في أسيوط لخدمة الأهالي هناك... ثم بعد ذلك أنتقل إلى العيش في القاهرة أنا ودميانة حبيبتي التي أوحشتني...

قالها حين عاد جمال وقد تنامى لمسامعه آخر جملة قالها إسحق وهو يجلس: - ماذا بدميانة يا إسحق؟! فأجابه إسحق.

- كنت أحكي لحسام ما سوف أفعله بنصيبي، وأنني أود أن أعوض دميانة عن كل تلك السنوات التي قضيناها فقراء محتاجين والكنيسة كانت دائمة الإحسان علينا. فهي طيبة المعشر ومخلصة. ولن أجد زوجة في إخلاصها مرة أخرى.

في حين رد عليه حسام: - لا يا شقيقي، يوجد زوجات أخريات مخلصات، من بينهن زوجتي أماني. وأنا مثلك لن أجد في إخلاصها. وتحمّلها... فقد تحمّلت حماقاتي وخياناتي لها لسنوات كثيرة، وقد حان الوقت لأن أعوضها أيضًا عن كل تلك السنوات...

- هل ستخلص لها إذن ولن تنشئ علاقات مع أي امرأة غيرها؟! سألته سمر فأجابها مغمغمًا:

- لا ليس بالضبط، ليس لهذه الدرجة. سأشتري لها شقة جديدة واسعة، وسأكتبها باسمها. وسأسافر في بلدانٍ كثيرة.

- معها؟!

- لا بالتأكيد... هل يوجد رجل في هذا الكوكب لديه إمكانية مرافقة أي امرأة يريدها لتسافر معه ويختار في النهاية زوجته؟! لا بالطبع، سأسافر مع إيمان.. قالها مبتسمًا حين تذكر جمالها ورقتها رغم كل ما حدث. سأل جمال: - وأنتِ يا سمر ماذا ستفعلين؟!

ابتسمت وأشاحت بوجهها لثانيتين ثم عادت إليه بنظرها: - سأجمع شملنا مرة أخرى، واشتري بيتًا يجمعنا كلنا. سأبتعد عن كل ما كنت أفعله في الأيام السوداء التي عشتها. ثم أنشئ شركة إنتاج فني وسينمائي. لن أنتظر ابن الحلال الذي سيخطفني على حصان أبيض وكل هذا الهراء الذي تحلم به الفتيات. سأصنع إمبراطوريتي بنفسي.

- وماذا عن هذا الشاب الأخرق الذي يدعى شريف الكردي؟! سألها جمال

- لا شيء، ولكنني لا أعتقد أنني سأكمل معه. فأفكارنا ليست متوافقة. بعد عصر هذا اليوم سأكون أغنى منه بكثير، وتطلعاتي ستكون أعلى. أنا أريد

الحرية، أريد أن أكون حرة نفسي.. ارتشفت آخر رشفة من فنجان القهوة مستطردة: - هيا بنا؟

- هيا بنا..

قالوها في وقتٍ واحد ونهضوا ليرحلوا قاصدين المحل الذي فتحته في نفس الوقت الذي جاءت فيه السيارة النقل وعلى ظهرها الرجال الذين نزلوا ليأخذوا الأشولة الممتلئة ويعطونهم أخرى فارغة وذهبوا في غضون ربع ساعة.. دخل الإخوة بعد ذلك وأغلقت عليهم مرة أخرى وذهبت لتشتري ما طلبه منها حسام. وعادت بعد ساعة تقريبًا، راقبت المكان فرأته هادئًا نوعًا ما. فتحت المحل لتدخل الأشياء التي اشترتها وأغلقته من الخارج مرة أخرى.. وجدت حسام يرفع وعاء مملوءًا بالطين ويلقي بآخر فارغًا. بينما كان إسحق ممسك بشيكارة يعبئها ويضعها جانبًا. سألت حسام: - ما الأخبار؟! إلى أين وصل جمال بالأسفل؟ فأجابها أنه بحسب الأوعية التي أخرجها فهو حفر حوالي مترين تقريبًا، سألته إن كان من الممكن أن تنزل له، وهل هناك ما يمكن أن يؤذيها إن فعلت ذلك.

- لا أعتقد، فأنت فاجرة بنت كلب لا يهمك شيء... قالها ساخرًا فمدت يدها إليه بازدراء وطلبت منه أن يسندها كي تثبت قدميها على أول درجة سلم. فأمسك يدها إلى أن وازنت جسدها ونزلت، فوجدت جمال بنهاية النفق الذي قدَّرت طوله بحوالي ستة عشر مترًا... ذهبت إليه مُحاولة تفادي الأخشاب الموضوعة والقضبان المثبتة على الأرض حتى وصلت إلَى جمال الذي كان مُنهمِكًا في الحفر. وكاد قلبه ينتزع من مكانه حين وضعت يدها على كتفه... وانتفض فجأة فانتفضت هي الأخرى

- ما هذا الهراء الذي تفعلينه يا سمر. كاد قلبي يتوقف. حرامٌ عليكِ

- آسفة والله لم أكن أقصد ذلك. كنت أريد أن أرى الإنجاز الضخم الذي فعلته. كم مترًا قد أنجزته؟

- نحن الآن أسفل البنك، في المنتصف تقريبًا، ستة عشر مترًا وربما سبعة عشر... باقي أمتار قليلة.

- هذا خبر جيد...

- الخبر الجيد أكثر هو أن تخرجي من هنا فالهواء لن يكفينا نحن الاثنين يا حبيبتي، أخبريني هل اشتريتي أنابيب الأكسجين؟

- نعم، إنها بالأعلى.

- حسنًا، اصعدي الآن واطلبي من حسام أن ينزلهم لي مع أول وعاء فارغ.

- حسنًا، سأنتظر منك أن تتصل بي فور إيجادك الصندوق. قالتها بوجهٍ تملؤه السعادة وهي تقفز فرحًا.

هز رأسه لها بالإيجاب مبتسمًا، مقدرًا قلقها. ورحلت. خرجت من المحل وأغلقت عليهم مرة أخرى لتنتظرهم في المقهى القريب منهم وهي تفكر في آلاف الاحتمالات...

مرت ساعة..

مرت ساعتان...

مرت ثلاث ساعات....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الساعة الخامسة وأربعة وعشرين دقيقة

كلما تمرّ عليها ساعة تلو الأخرى تقلق أكثر، ترمق هاتفها كل خمس دقائق علّه ليس لاقطًا إشارة. لكنها تجد أن الإشارة قوية في المكان ولم يتصل بها أحد منهم إلى الآن. مر أكثر من ثلاث ساعات وكان المفترض أن يتصل بها أحدهم الآن. لم تستطع الجلوس أكثر من ذلك، بدأت الظنون تتلاعب بها في أنهم من الممكن أنهم قد وجدوا الصندوق بالفعل وهربوا به دون أن يتصلوا بها... ربما، ولما لا؟! قالت في قرارة نفسها.

ربما أيضًا يكونون قد اكتشفوا أن الصندوق ليس موجودًا، ومترددين في الاتصال بي خشية تأثير الصدمة عليَّ... ربما أيضًا ولما لا؟!

ربما اكتشفوا أن الصندوق ليس موجودًا لأنهم المفترض أن يحفروا مترًا إضافيًا نتيجة لزحزحته مثلًا بسبب عوامل التعرية والزمن... لالالا اللعنة على التفكير حين يتحرش بالعقل والقلب وكل الحواس... يجب أن أذهب لهم... أمسكت هاتفها ونهضت...!

وقفت أمام الباب لدقيقتين فوجدت أن حارس العقار جالسًا أمام باب العمارة، مُمسِكًا بكوبٍ من الشاي. أقبلت عليه لتصافحه وتعطيه ورقتين فئة مائتين جنيه وطلبت منه أن يذهب إلى مطعم الشمندورة بأبي قير ليشتري كيلو جمبري وكيلو بوري ويأخذ الباقي لنفسه، لم يكمل الرجل كوب الشاب والتمعت عينيه وغادر مسرعًا، نادت عليه فتوقف، خطت نحوه عدة خطوات لتقول له إنها ليست متعجلة، ويستطيع الذهاب والعودة على مهل. ففعل...!

بمجرد أن غاب عن بصرها التفتت حولها فوجدت أن الجو هادئ، فتحت المحل عليهم ووجدت حسام جالسًا على الوعاء الفارغ منتظرًا جمال بالأسفل أن يدفع الوعاء الممتلئ تجاهه. بينما كان إسحق يحاول رفع

الشيكارة التي انتهى للتو من تعبئتها. سألت حسام لماذا هو جالسٌ هكذا؟ ما إن حرك شفتيه ليجيبها حتى سمعوا صراخ جمال بالأسفل.

- وجدته... وجدت الصندوق... وجدته يا رفاق...!

انتفضوا جميعًا نحوه، كان حسام أول من نزل له عبر السلم، بينما قفز وراءه إسحق ونزلت سمر بعد ذلك. حين وجدوا جمال يحاول استخراج الصندوق من مكانه حيث كان مغمورًا في الطين. وبالكاد استطاع إزاحة البعض من حوله حتى انتزعه من مكانه أخيرًا، كانتزاع ضرس العقل.

صاح كلا من إسحق وحسام وأخذوا يعانقون بعضهم البعض وقبّلوا جمال الذي حاول فتح الصندوق لكن حال القفل الصدئ القديم دون ذلك. أخذوا يعانقون الصندوق ويتلمسونه في نفس الوقت الذي سمعوا فيه صوت طقطقة تعمير مسدس ملحق به كاتم للصوت.. تمسكه سمر الواقفة على بُعد أربعة أمتار وتوجهه صوبهم، فوقفوا جميعًا ينظرون إليها مشدوهين مُتسمّرين وقد تجمّد الدم في عروقهم. ساد الصمت بينهم لثوانٍ فرفعت حاجبيها وأمالت رأسها إلى اليسار وهي مبتسمة ابتسامة ماكرة...

- ماذا تنتظرون؟! واقفة أمامكم بمسدس موجّه إلى رؤوسكم. ألم يعني ذلك أي شيء بالنسبة إليكم؟! ألم تشاهدوا أفلامًا بوليسية قط؟!

سألها إسحق مُتعجبًا: - ما الذي تفعلينه هذا يا سمـ...

قاطعته بصوتٍ أعلى ممزوجًا بنبرة تبجُّح فاحش: - لا تتحدث معي، فنحن لسنا في كنيسة أمك يا ابن حسناء العاهرة.

صاح فيها حسام الذي كاد يبكي: - أجننتي يا سمر؟ أهذا الذي كنا نتحدث فيه صباح هذا اليوم؟!

- ماذا تريد يابن الوسخة أنت الآخر؟ أي كلب فيكم سيتفوّه بكلمةٍ أخرى سيتفاجأ برصاصة مستقرة داخل جمجمته... قالتها وعيناها تقدحان شررًا، كل هذا ولم يشيح جمال بعينيه الثاقبتين عنها... ركّز عينيه في عينيها لنصف دقيقة تقريبًا، ثم انتقل ببصره على يدها المرتعشة الممسكة بالمسدس مُستنتجًا أنها غشيمة، ومن الممكن جدًا أن تطلق منه رصاصة. ركز مرة أخرى في عينيها. في نفس الوقت الذي سمعوا فيه باب المحل يُفتح بالأعلى.. رجعت خطوتين للوراء وما زالت مُمسِكة بالمسدس نحوهم قائلة:

- هيا.. هيا يا أولاد حسناء العاهرة فلن نقضي طوال النهار هنا. أعطوني الصندوق.

ما زال جمال مُعلّقًا نظره عليها لا ترفّان فقالت له سمر: - ماذا بك يا جمال؟! النهاية لا تعجبك أليس كذلك؟! لا تتعجب فهذه هي الحياة دائمًا.. ليست عادلة للأسف! تقدم ثم ضع الصندوق هنا فوق هذه الخشبة... قالتها وهي تشير برأسها إلى المكان الذي تريد الصندوق فيه وأكملت كلامها... ثم أرجع بجانب إخوتك كما كنت..

لم يزل جمال لازمًا صمته ولم تصدر منه نأمة. فأردفت: - هل تظن أنني لا أستطيع فعلها؟! وجهت المسدس إلى الأرض وأطلقت رصاصة فارتعد كل من حسام وإسحق، بينما جمال هز رأسه مُتأسيًا وانحنى في صمتٍ مُطبق، حمل الصندوق وسار نحوها ووضعه أمامها... ابتعدت سمر خطوتين للمحافظة على مسافتها بينها وبينهم، وطلبت منه أن يولّيها ظهره ويرفع يديه ويتقدم نحو إخوته مرة أخرى.. ففعل. انحنت وحملت الصندوق الذي كان يزن حوالي عشرة كيلوجرامات. وما إن انحنت حتى استدار جمال ليهجم عليها فأطلقت رصاصة أخرى استقرت في فخذه وأردته على الأرض فأقبل عليه إخوته يسندوه كي لا يسقط.

- حرام عليك، ما هذا الذي تفعلينه يا ابنة الشيطان؟ قال حسام صارخًا والرذاذ يتطاير من فمه واستطرد إسحق باكيًا:

- هل جننت يا سمر؟ فليحرق الرب هذا المال الذي يجعلك تفعلين ذلك في إخوتك...

- لا تتحدثون بكلمة أخرى... وإن تحرك أحد فيكم سأقتله برصاصة مباشرة في القلب. وأعتقد أنكم أدركتم الآن جيدًا أنني لا أمزح... قالت لهم سمر بينما تحدث صوتٌ من أعلى فتحة النفق...

- لا تقتلي أحدًا يا سمر، ستكوني المتهمة الأولى، علاوة على أن الرائد شهاب نور الدين سيأتي بعد قليل؟!

كان الصوت قد ميزاه جمال وحسام جيدًا، كان صوت..

شريف الكردي...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ ٤٢ ساعة...

في الليلة التي سهرت فيها في بار الفندق وقابلت الرجل ذا الشارب، والذي عرض عليها قضاء الليلة معها ورفضت وتركته..

صعدت سمر إلى غرفتها، أمسكت هاتفها واتصلت بشريف الكردي الذي كان نائمًا فاستيقظ ورد على الهاتف بسرعة:

- ألو.. ماذا بكِ يا سمر؟!

- أنا بخير يا حبيبي.. كنت أريد التحدث معك بشأن الصندوق..

- هل وجدتموه أم مازال هؤلاء الكلاب يحفرون

- ما زالوا يحفرون، ولكننا على وشك الحصول عليه... المهم، هل تتذكر ما حدثتك بشأن هؤلاء الكلاب قبل أن آتي إلى الإسكندرية بيومين؟!

- نعم... أتذكر... لقد قلت لي أنك تبحثين عن خطة للغدر بهم والحصول على الصندوق وحدك دونهم. ولكنك لم تخبريني ماذا ستفعلين بالتحديد.

- هل لديك مانع في أن تساعدني في ذلك؟ وبدلًا من أن نقسم ما بداخل الصندوق على أربعة أشخاص، وربما أصلًا لا يعطونني سوى الفتات، أنا خائفة من كبيرهم... الكلب الذي يدعى جمال سيراميكة... فقد يقول لي أن هذا الصندوق خاص بأمهم وجدهم. ولا حق لي فيما بداخله. باعتباري من أم أخرى.

- نعم... نعم أفهمك، وأنا أيضًا لا أشعر بالارتياح تجاه هذا الكلب... ماذا تريدين مني أن أفعله يا حبيبتي؟

- سأجاريهم خطوة بخطوة وأجعلهم يحفرون ويحفرون إلى أن تأتي لحظة الصفر... لحظة إيجاد الصندوق. ونحصل عليه منهم تحت تهديد السلاح...

- ومتى ستكون لحظة الصفر تلك؟!

- على الأغلب غدًا أو بعد غدٍ... المهم أن تأتي في صباح اليوم التالي وتحجز غرفة بنفس الفندق... لحظة الصفر ستكون حوالي الساعة الخامسة تقريبًا..

- حسنًا حسنًا.. سأحجز غدًا غرفة بجوارك... وسنقضي الليل غدًا وأنت في حضني... في مثل هذه الساعة. أتريدين شيئًا آخر يا حبيبة قلبي؟!

- لا... شكرًا يا حبيبي... مع السلامة.... كانت ستقفل الخط لكنها تذكرت شيئًا مهمًا: - لا لا لا... أريد شيئًا آخر...اذهب في الصباح الباكر إلى نقطة شرطة طريق مصر إسماعيلية الصحراوي.. ستجد هناك رائدًا يدعى شهاب نور الدين، مستعد لدفع نصف عمره للقبض على جمال سيراميكة، لأنه كان سببًا في قتل خطيبته.

- نعم نعم، فقد سمعته يقول ذلك حين كنّا معًا في السيارة

- اذهب لهذا الضابط وأخبره أن جمال سيراميكة سيكون داخل العقار رقم ١١٠٨ شارع محطة الرمل بجوار بنك الإسكندرية. ما بين الساعة الخامسة

والسابعة...

- حاضر... سأنفذ ما أمرتني به بالحرف. إلى اللقاء غدًا لألتهمك على مهل.

أرسلت له قبلة عبر الهاتف وأغلقت المكالمة قبل أن تسلم نفسها للنوم.

في الليلة التالية... بنفس الوقت

كانت الغرفة مظلمة تمامًا إلا من ضوء الأباجورة الموضوعة على الكومود بجوار سرير نائمة عليه سمر وهي في حضن شريف الكردي الذي حجز بالفعل غرفة بجوارها وتسلل إليها منذ ساعتين..

- أعتقد أنهما بذلك سيحصلون على الصندوق غدًا على الأرجح...

- نعم... اعتدلت ونامت ممدة جسدها بجواره على بطنها...: - سأترقب اللحظة المنتظرة، وسأهددهم بالمسدس الذي أعطتني إياه. وسأتصل بك قبلها حتى تلحق بي إلى هناك... نهضت وجلست على حافة السرير لتسأله بجدية: - قل لي، هل ذهبت إلى الرائد شهاب نور الدين كما أخبرتك؟!

- نعم، بالطبع. والتمعت عينيه حين أخبرته بمكانه. أعطاني رقم هاتفه واتفقت معه أنني سأحضره له في العقار رقم ١١٠٨ شارع محطة الرمل، وعليه أن يكون بالقرب من هناك حتى أتصل به ليقتحم المحل ويأخذه.

قبلته عند منبت عنقه ثم احتضنت شفته السفلى بشفتيها المكتنزتين: - عظيييم جدًا... أنا أحبك وأحب كل شيء فيك... خصوصًا دماغك.

- دماغي فقط؟! قالها ثم أمسكها من ذراعيها وأحكم سيطرته عليها ليعتليها...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- لا تقتلي أحدًا يا سمر، ستكوني المتهمة الأولى، علاوة على أن الرائد شهاب نور الدين سيأتي بعد قليل؟! قالها شريف الكردي صارخًا

- حسنًا يا حبيبي... تعالى، انزل لتأخذ مني الصندوق لأنه ثقيل.. وسأحمي ظهرك حتى تصعد.

بالفعل نزل شريف الكردي عبر السلم وأخذ منها الصندوق، بينما ما زالت موجهة إليهم المسدس حتى صعد مرة أخرى ثم تراجعت خطوة بخطوة إلى أن اصطدم ظهرها بالسلم.. كان جمال يصرخ متألمًا من الرصاصة التي اخترقت فخذه، ظل يئنّ بينما لم يجدا حسام وإسحق ما يفعلانه، وفي نفس الوقت خائفين حتى أن ينظرا إلى سمر التي بدت فاقدة صوابها تمامًا وعلى استعداد أن تفعل أي شيء. صعدت مسرعة درجتين على السلم، هرع

حسام نحوها فسمعت صوت أقدامه. نزلت مرة أخرى وأطلقت رصاصة نحوه فتراجع مرة أخرى وانكسر المصباح تاركًا سدفات الظلام في النفق. في نفس الوقت الذي صعدت فيه سمر لتجد شريف الكردي مادًا يده إليها فأمسكت به وخرجت... سحبت شيكارة وراء الأخرى طالبة من شريف مساعدتها وألقونها داخل الحفرة حتى سدوها تقريبًا... وهربوا بعد أن أغلقت سمر الباب عليهم من الخارج. ثم ركبت سيارة شريف الذي انطلق بأقصى سرعة ليأخذ أول منحنى يسارًا سالكًا طريق البحر مُتّخذًا أول ملف على طريق الكورنيش. أخرجت سمر مفتاح المحل من جيبها وقبّلته قبلة رومانسية قبل أن تلقي به بعيدًا نحو البحر ليستقر في القاع...!

أمسكت الصندوق ذهبي اللون وعانقته أمام ابتسامة شريف، وعينيه التي التمعتا حين رأى الصندوق. ثم أمسك هاتفه:

- سعادة الباشا شهاب بيه نور الدين... كل شيء على ما يرام... يمكنك التحرك لاتخاذ اجراءاتك. ويمكنك استلام الأمانة. فكل شيء جاهز.

- لا تنس أن تخبره أن معه نسختين أخريين... وكي لا يحتار فيمن قتل خطيبته عليه أن يشنق من يجد منهما حي ليتأكد أنه أخذ بثأر خطيبته العاهرة رحمها الله.. قالتها ثم دخلت في نوبة ضحك، بينما قال شريف ما قالته سمر بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المحل...

داخل النفق المظلم الذي لا يوجد به صوت سوى صراخ جمال وتألمه وهو ممسك فخذه، ظل الدم يسيل والألم يزداد حتى بلغ ذروته وكاد أن يغشى عليه، حاول الاستمساك بقوته وتحمله ورباطة جأشه المعتاد عليها. طلب منهما أن يدس أحدهما يده في جيبه ليخرج هاتفه ففعل إسحق ذلك، طلب جمال منه أن يفعّل الكشاف الملحق بالهاتف ليستطيعوا الرؤية، فيما طلب من حسام - الذي كان يرتعش وبدا مرتبكًا - أن يفتح أنبوب الأكسجين كي يستطيعوا التنفس. ففتح حسام أنبوب الأكسجين حتى شعروا ببعض الراحة.

نهض إسحق وسلك طريقه نحو أول النفق مُستعينًا بضوء الهاتف فوجد أن حوالي عشر شكائر ملقاة فوق بعضها البعض لتسد عليهم فتحة الخروج. شعر بالاختناق فعاد لهم بسرعة ليكون بجوار أنبوب الأكسجين. سألهم حسام. ماذا سنفعل الآن؟ فأجابه جمال رغم تألمه...: - ساعداني على النهوض للوقف على قدمي، والوصول بالقرب من فتحة النفق.

حاولوا رفعه بصعوبة حتى استطاعوا أخيرًا مساعدته على الوقوف والسير بضع خطوات. طلب جمال من إسحق أن يتركه ليستند بيمينه على الحائط ويعود ليحضر أنبوب الأكسجين. ففعل إسحق ما طُلِب منه بالحرف. طلب من حسام أن يترك يده ويساعد إسحق على سحب شكائر الرمل واحدة تلو الأخرى. وجرّها إلى الخلف حتى يفسحون طريقًا يستطيعون سلكه للسلم للخروج من هذا النفق. ففعلوا ما أمرهم به جمال حتى انتهوا من سحب ثمانية أشولة. رفعوا جمال حتى استطاع الإمساك بأول درجتين في السلم ووضع قدمه عليه. أسندوه من ظهره حتى استطاع الوصول إلى الأعلى وأجلسوه فوق شيكارة رمل وأسندوا ظهره إلى أخرى. ثم مددوا قدميه ولا زال يئنّ مُتألمًا، أمسك إسحق بنطاله المتلطخ بالدماء التي يثعب بها الجرح مكان الرصاصة، همَّ ليقطعه ويتسنى له تقدير حجم الإصابة، فصاح جمال بأعلى صوته: - لا... لا تظهر الجرح الآن. لا تجعلني أراه يا إسحق.

قال له إسحق مُرتبِكًا: - لا تخف، لقد تعلّمت في الكنيسة الإسعافات الأولية.

- لا.. ليس الآن. فقط أحضروا مطرقة أو أي شيء لنستطيع فتح الباب بسرعة..

سأله حسام بفضول ليس وقته: - من هذا الذي يدعى شهاب نور الدين الذي سيأتي يا جمال؟ لقد سمعت ابن الحرام شريف الكردي صديق هذه العاهرة يقول لها ذلك..

- نعم... لقد سمعت.. آآآآآه.... صاح به مُتألمًا مُستصرخًا.. ولذلك أسرع وابحث عن أي شيء لتفتح به الباب قلت.. لا تدعني أكرر كلامي.

أحضر حسام الفأس الذي يستخدمه إسحق في تعبئة الرمال والطين وركزه في منتصف الباب وحاول كسر القفل أو قطعة الحديد المثبته بينه وبين الأرض. لكنه فشل. حاول إسحق مساعدته مستخدمين كل قوتهما لكنهما فشلا أيضًا. سمع جارهم البدين صوت الطرق فأقبل عليهم واقترب من أسفل الباب قائلًا: - هل تريدون أي مساعدة يا أبنائي؟!

تنحنح حسام محاولًا إخفاء توتره: - نعم يا عمي، نريد أي آلة من عندك لتكسر لنا قفل الباب، لأن سمر أختنا أغلقت علينا من الخارج وقد نسيت أن تجعله مفتوحًا لكي نخرج بعدما ننتهي من عملنا... ونتصل بها لكن هاتفها مغلق.

- حسنا حسنا.. قالها الرجل وهرع مسرعًا إلى محله وأحضر «شاكوش وأجنة» وثبتها على القفل ثم ضرب ثلاث ضربات قوية متتالية حتى انكسر القفل وفتح عليهم الباب فوجد إسحق وحسام واقفين حاجبين الرؤية عن البدين كي لا يرى أخاهما المصاب أو الدم الذي ينثعب من فخذه. شكروه بحرارة فعرض عليهم أي مساعدة أخرى فأخبروه أن لا. رغم تعجب الرجل من نبرتهما لكنه عبر الشارع وجلس أمام محله. استوقف إسحق تاكسي وحملوه ليدخلوه في المقعد الخلفي، رأى سائق التاكسي الرجل مُصابًا وينزف فانزعج واعتذر عن أخذهما وانطلق. حاولا استيقاف سيارة أجرة أخرى، مرت واحدة واثنين ووقفت لهما الثالثة. رأى الرجل المصاب أيضًا لكنه لم يعتذر، بل عرض عليهم أن ينقله مقابل مضاعفة الأجرة، فوافقوا وحملوه ليجلسوه على المقعد الخلفيّ وجلس بجواره إسحق. سألهم السائق إلى أين يريدون الذهاب فأخبره إسحق مرتبكًا:

- مستشفى القبطي من فضلك.. أطرق حسام رأسه حينها وزمّ شفتيه. هل لأن إسحق اختار أن يعالج أخاهم في مستشفى قبطي؟ ربما.. هل لأنه تذكر ما فعلته به سمر وتذكر كيف ضاع من بين أيديه كنز لا يقدر بثمن.. ربما أيضًا.. المهم أن السيارة الأجرة كانت هناك بعد ربع ساعة ولم يكن مع إسحق سوى خمسة جنيهات، وبالطبع إن أعطاها للسائق سوف يسمعهم سيمفونية سُباب متواصلة، فخلع له الساعة قائلًا له: - هذه ساعة باهظة الثمن قد أخذتها من بطريرك الإسكندرية حين جاء نيافته في زيارة إلى كنيسة الـ...

رأى السائق الساعة فالتمعت عيناه وارتأى له أنها فعلًا باهظة الثمن فقاطعه قائلًا: لا يهم لا يهم مِن مَنْ... هاتها.

وانطلق دون أن يعلم أن ثمنها لا يزيد عن خمسة عشر جنيهًا..!

أنزلاه من السيارة أمام بوابة المستشفى فهرع فرد الأمن هناك لإحضار كرسي متحرك بالقرب منه ووضعه أمامه ليدخلوه إلى قسم الطوارىء بالدور الأرضي. كان هذا حين أخرج جمال هاتفه من جيبه مُكتشفًا أن بطاريته فرغت، فأعطاه إلى حسام مشيرًا له بيديه أن يبحث عن أي شاحن ليشحنه، فأعطاه إلى ممرضة بجواره وهو يسألها عن شاحن فأومأت له برأسها وأخذته منه بينما كانت عينيه معلقتين على مؤخرتها الرجراجة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حين وصل كلا من سمر وشريف إلى أحد الشاليهات بمنطقة العجمي، كان أحد الأطباء الجراحين في مستشفى القبطي ينتزع الرصاصة من فخذ جمال سيراميكة وينظف حول مكان الإصابة لتأتي الممرضة من ورائه وتغلق الجرح وتطهره وتضمده.

كان يشاهدهم وهم يفعلون ذلك لأن التخدير كان موضعيًا، علاوة على أنه يستطيع تحمُّل هذا مُتحلّيًا برباطة جأش وصلابة كافية، انتهت الممرضة من العمل على الجرح بعد ربع ساعة وعلّقت بعدها محلول جلوكوز ليضخ في عروق ساعده الجدباء قائلة:

- تستطيع الذهاب بعدما ينتهي المحلول. ثم أخرجت هاتفه من جيبها: - تفضل هاتفك وصل الشحن فيه واحد وستون بالمائة، آسفة كنت أريد أن أضعه أكثر من ذلك لكن هاتفي الآن هو الذي على وشك أن يفصل.

أخذ جمال منها الهاتف وشكرها حين دخل الطبيب مرة أخرى ليسأله ما سبب الإصابة فأدرك جمال أن الموضوع من الممكن أن يدخل في تحقيق واستجواب من الشرطة وعمل محضر لإثبات حالته، فأخبره ببساطة أنه بعد يوم عمل في أحد مواقع البناء بجوار سان ستيفانو، كان يسير مع أصدقائه على الكورنيش فمرّت بجوارهم زفّة مكونة من أكثر من عشرين سيارة، خرجت من إحداها طلقة أصابته هكذا. فأخذه أصدقاؤه إلى هناك. ولا داعي لعمل أي تحقيق لأنه لم يستطع التقاط رقم أي سيارة منها. وبالتالي فالمحضر سيكون هباء... سكت لهنيهة قبل أن يستطرد للطبيب:

- على العموم نحمد الرب على أنني بخير. بمساعدة إخوتي. نظر لهم مبتسمًا في امتنان: - أدعو الله ألا يحرمني منكم ما حييت يا أحبائي... هز الطبيب رأسه متفهمًا وخرج ليتركهم وحدهم. أقبل حسام وإسحق عليه وقبلوه من رأسه فشرع لهم يديه وضمهما إليه قائلًا:

- هل تعلمون أن هذه هي اللحظة الأولى التي نكون فيها خائفين على بعضنا البعض بحق؟ دون أي مصلحة، دون أي كره، دون أي كنز... هذه هي اللحظة الأولى التي يجمعنا فيها الحب والأخوّة.

- رغم كل ما فقدناه... وكل ما عانيناه وعايناه. قالها إسحق مطرقًا في أسى فأردف حسام

- رغم أننا نحن الثلاثة ليس معنا الآن سوى جيوبٍ فارغة. بعد أن كان بين أيدينا كنز بملايين. ضاع...

أضاف إسحق: - للأسف... ضاع

رنَّ هاتف جمال فأجاب: - نعم... أنا في مستشفى القبطي بالأزاريطة، لا لا أنا بخير.. حسنًا حسنًا..

سأله حسام من المتصل فأخبره أنه أحد أصدقائه، في الوقت الذي دخل فيه موظف من المستشفى ممسكًا بملف أزرق اللون، أدركوا جميعًا أنها بالتأكيد فاتورة المستشفى. أخذ حسام الورقة التي بها إجمالي المبلغ المطلوب فوجده ألف ومائتي جنيه. سأل جمال سيراميكة موظف الحسابات إن كانوا يتعاملون بالبطاقات الائتمانية فأخبره الموظف أن نعم. أشار حينها جمال إلى إسحق أن يقترب منه، ففعل. دس يده في جيبه مستخرجًا بطاقته الائتمانية وطلب منه أن يذهب مع الموظف ويسدد قيمة الفاتورة. وأن كلمة سر البطاقة ٢٦٣٦٥. ثم مد يده ممسكًا بمفتاح الإضاءة ليطفئها. طالبًا منهم أن يتركوه يغمض عينيه قليلًا...!

خرج إسحق مع موظف الحسابات فقال له حسام أنه سيأتي معه. بدا على وجه حسام الممتقع خيبة الأمل والرجاء. تمنى لو انتحى بنفسه في أي ركن ليبكي. وإسحق نفس الشيء كان يسير عَرِجًا على قدميه وقد شعر بإحباط لم يشعر به من قبل. دخلا مع موظف الحسابات الذي طلب منهما الجلوس حتى يحضر ماكينة سحب البطاقات الائتمانية. جلسا قبل أن يلمح إسحق مثلج مياه بجواره أكواب. التقط كوبًا وملأه، شعر أنه كان عطشان جدًا وأنه لم يشرب منذ زمنٍ طويل. ملأ الكوب ثلاث مرات شربها حتى ارتوى. جاء موظف الحسابات وأخذ منه البطاقة، وضعها داخل الماكينة وأعادها إلى إسحق ليكتب كلمة السر. سحب الموظف المبلغ المطلوب من الماكينة التي أخرجت نسختين من الفاتورة. أخذ نسخة وأعطاهم الثانية وبطاقة الائتمان فوضعها في جيبه ورحلا...

بعدما خرجا من غرفة الحسابات طلب حسام من إسحق أن يتأكد من المبلغ المسحوب، لئلا يكون قد سحب أكثر دون أن ندري، فأخرج إسحق الفاتورة

مرة أخرى... حجظت عينيه ذهولًا فجأة وتجمّد الدم في عروقه مما رآه، سأله حسام ماذا به فلم يجبه وقد تصلّب تمامًا، أخذ منه الفاتورة وبطاقة الائتمان ونظر فيهما، لم تكد تمر ثانية حتى حدث له مثلما حدث لإسحق تمامًا...

نظرا لبعضهما البعض ثم قالا في نفسٍ واحد...

شهاب محمد نور الدين؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في نفس الوقت...

لم يستطع النوم فجلس على طرف السرير وقد انتهى من مكالمة للتو، حين دخل عليه حسام وإسحق ومعهما بطاقته الائتمانية والفاتورة. أخذا ينظران إليه بعينين شاخصتين. فأدرك حين رأى الفاتورة في أيديهما ومن نظراتهما وملامحهما أنهما قد عرفا حقيقته. أطرق لثوانٍ محاولًا البحث عن شيء ليقوله لهما لكنه لم يجد. فهز رأسه، زامًا شفتيه، باسِطًا كفيه بما يعني أنه بالفعل تلك هي الحقيقة ولا أي شيء آخر سواها.

- هل رد فعلك هذا تأكيدًا على صحة ما اكتشفناه؟! سأله إسحق فهز رأسه مؤكدًا أن نعم. سأله سؤالًا آخر: - وماذا عن جمال.. وسيراميكة.. و... قاطعه مغمضًا عينيه وهو يهز رأسه بالنفي أن لا أحد يدعى بهذا الاسم.

- ومن هو شهاب محمد نور الدين إذن؟! سأله حسام، فأخرج شهاب من بنطاله محفظته وألقاها أمامهما. أمسكا المحفظة وفتحاها في لهفة ليجدا صورة أبيض وأسود لسيدة جميلة في أواخر الثلاثينيات، لم يعرفها إسحق، على عكس حسام الذي عرف أنها أمه؛ حسناء. بجوار صورتها كارنيه هويّة به صورته بالزي الميري وعلى كتفيه نسر، ومكتوبًا بجوارها الرائد شهاب محمد نور الدين...

رئيس مباحث المخدرات قسم ثان العاشر من رمضان

ساد الصمت بينهما لدقيقة تقريبًا قبل أن يرن هاتفه وأجاب:

- ألو... وصلت؟ حسنًا... سنخرج حالًا...

همَّ حسام ليسأله فقاطعه شهاب قائلًا: - لا تتحدثان في أي شيء الآن... فلدينا ما هو أهم من الكلام. هيا بنا نخرج من هنا.

ظل حسام وإسحق ينظران لبعضهما البعض في دهشة فكرر عليهم شهاب نور الدين: هيا بنا نرحل...!

استند على كتفيهما حتى خطا بضع خطوات. حاول أن يمشي بدون مساعدتهما. فشعر أن الجرح يؤلمه في أول خمس خطوات، تحمّل وتحامل على نفسه حتى استطاع التعوّد وخطا بضع خطوات أخرى بمفرده حتى وصل إلى باب المستشفى بمفرده. على يمينه حسام ويساره إسحق. وكانت تقف أمام باب المستشفى مباشرة سيارة BMW سوداء، أمسك شهاب مقبض الباب الأمامي المجاور للسائق وفتحه وأشار لهما أن يركبا... ففعلا دون أن يفهما أي شيء. حتى تفاجآ مرة أخرى حين رأوا أن السائق هو...

شريف الكردي...

- ألف سلامة عليك يا سيادة الرائد شهاب بيه نور الدين... قالها مبتسمًا وبوجهٍ تملؤه ابتسامة عريضة. ثم انطلق بعدما نظر إلى الخلف ليلقي عليهما نظرة وهو يضحك ضحكة قصيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وراء كل حدث تراه... عشرات، بل مئات الأحداث الأخرى غير المرئية

والتي من الأفضل لك ألا تراها إلا في الوقت المناسب...!

بعدما أنجبت حسناء الثلاث توائم وباع شكري شعيب أحدهما لرجل مسيحي مقابل ثمانية آلاف جنيه ظلوا ينفقون منها لفترة كبيرة. حتى جاء اليوم الذي اكتشف فيه أن هؤلاء التوائم، سواء الاثنين اللذين معهما أو الذي باعه ليسوا منه، ليسوا من صلبه. في أحد الأيام التي كان فيها جالسًا في القهوة كعادته، أراد دخول الحمام فصعد إلى البيت ليجد حسناء داخل الحمام تغني بصوتٍ عالٍ وهي تستحم، دخل غرفة النوم فوجد الطفلين نائمين فمدد جسده بجوارهما ينتظرها أن تخرج، لم تشعر حسناء بدخوله، رنَّ جرس الهاتف فخرجت من الحمام مُسرِعة، عارية. ويقطر الماء من جسدها لترد على الهاتف بينما هو ينهض ليدخل الحمام.. أجابت:

- ألو... كيف حالك يا حبيبي؟ - توقف فجأة واتسعت عيناه مشدوهًا مما سمع - وأنا أيضًا أفتقدك كثيرًا يا عاطف... نعم الأولاد بخير... وأنا أيضًا مثلك وأقسم لك أنني أشعر بالموت كل لحظة وأنا بعيدة عنك يا ابن عمي الحبيب. ولكن ما يصبرني أن معي جزءًا منك، من صُلبك. وكلما أنظر إليهم أشعر أنك معي. يكفي أن ملامحهم نفس ملامحك وقد أخذوا منك كل شيء... – علّق شكري نظره على التوأمين يعيد تفحصهما بعينين جديدتين متنصتًا لما تقوله حسناء بتوقد - لا لم أتحدث معه مُطلقًا، كل ما بيننا كلمات مقتضبة فقط... أرجوك يا عاطف لا تمكث في أمريكا كثيرًا فأنا أحتاجك جدًا، ولا أريد أن يكبر الأولاد وهم بعيدون عنك ليربيهم هذا الكلب الذي لا

يملك في قلبه أي رحمة... حسنًا يا حبيبي سأنتظرك لتعود من السفر بشوق مُتّقِد.

وضعت السماعة ودخلت الحمام مرة أخرى مستكملة الأغنية التي كانت تغنيها، شعر حينها وهو واقف أمام التوأمين أن خناجر قد رشقت في صدره، لم يستطع ازدراد لعابه وأحس بالاختناق، خرج من الشقة مرة أخرى وأغلق الباب بهدوء دون أن تشعر بأي شيء. حينها فقط، قرر أن يصارحها بخيانتها ويُطلّقها لأنه لن يستطيع أن يرى هؤلاء الأطفال. غير أنه تذكر أن لديها خريطة بها مكان الكنز.. فآثر الصبر عليها حتى ينال منه مرادها أولًا ويحصل على الخريطة ثم يرميها في الشارع هي وتوأميها كالكلاب.

لم يمر أسبوع حتى هجرها، رفض تطليقها وتزوج من امرأة أخرى، يتيمة، أرملة. تسكن على ناصية الحارة المجاورة. نجح في الالتفاف حولها ليتزوجها طمعًا في شقتها وذهبها، لينجب منها بعد عشرة أشهر طفلة، اسماها سمر، على اسمها. لأنها ماتت مباشرة بعد أن خرجت من رحمها ونظرت لها نظرة واحدة وقبَّلتها وقد شعرت أن النزيف سيتغلب عليها، وبالفعل... ماتت، وورث عنها شقة، أربع غوائش وخاتمين ذهب...

وسمر؛ التي أخذها وهي قطعة لحم حمراء، لا يدري ماذا يفعل...! عاد ليفكر مرة أخرى في الخريطة وكيفية الحصول عليها، فقرر العودة مع رضيعته إلى حسناء، التي ما إن رأت الرضيعة حتى رقَّ قلبها وأخذتها في حضنها. ناسية تمامًا أنه هجرها لمدة عشرة أشهر، وأنها ابنة ضرتها. فأخبرها أن أمها ماتت أثناء ولادتها.

- لا إله إلا الله... أدعو الله أن يسكنها فسيح جناته. لا تقلق يا شكري سأربيها مع أولادي.

- شكرًا يا حبيبتي، لن أنسى لكِ أنكِ سامحتيني على أنني تزوجت عليك، بل ووافقت على تربية ابنتها.

- الذنب ليس ذنبها. بل ذنب رجل مثلك لا يملأ عينيه سوى التراب. لا تنسى أن تدخل عليَّ العام القادم بمولود آخر ومعه أمه..!

وافقت حسناء على العودة إليه حين علمت أنه عاد بخمسة آلاف جنيه ورثها عن زوجتها، لقد سئمت من العمل كمدرسة وإعطاء دروس خصوصية هنا وهناك بثمنٍ بخس، ورغم موافقتها على تربية البنت وعودتهما لبعضهما البعض، لكنه لم ينس أبدًا أنها خانته، وكلما ينظر إلى الولدين يشعر بالإهانة. لكنه واصل الصبر عليها وعاش معها دون أن يخبرها أنه اكتشف خيانتها له.

وكلما يكبر الأولاد يزداد تشابههما بابن عمها عاطف، الذي رآه مرتين من قبل ولم ينس وجهه قط.

كان ذلك في نفس الوقت الذي كان فيه ابن عمها عاطف مازال في أمريكا، استقر هناك وتزوج من فتاة من الجالية المصرية وأنجب طفلًا أسماه شريف، الاسم الذي طالما أرادت حسناء أن تسميه لابنهما. لم ينساها عاطف قط. ولكن الحياة العملية أخذته هناك. وكان يتصل بها بشكل متقطع حتى انقطعت أخباره فجأة... وانخرط في العمل والربح والحياة العملية في بلد لو سرح فيها الشخص للحظة أو استسلم فيها لعواطفه سيخسر كل ما ربحه وجناه على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد سبع سنوات ١٩٩٢

في اليوم الذي حدث فيه ما حدث لسمر، التقط شكري أحد الطفلين متبعًا حدسه ظنًا منه أنه من فعل ذلك، وكان حسن... أو بالأحرى جمال سيراميكة... أو بالأحرى الرائد شهاب محمد نور الدين. هو هذا الطفل...!

بعدما التقطه من الأرض حمله وحمل ابنته هي الأخرى ونزل الشارع فوجد صديقه الأسطى ياسر دياسطي الذي يعمل سائقًا لدى أسرة أحد الضباط، طلب شكري منه أن يوصلّه مشوار صغير، فوافق الأسطى ياسر. غير أنه لاحظ أنه نزل بالولد في أول طريق مصر إسكندرية الصحراوي، متوغلًا به في الصحراء وقد غاب لربع ساعة تاركًا معه ابنته التي غطت في النوم وبدا له أنها متعبة من البكاء. ثم عاد بدون الولد، سأله السائق عنه فأخبره أنه سلّمه لأحد أقاربه الأعرابيين لمدة يومين وسيعود ليأخذه منهم مرة أخرى. وطلب منه أن يوصله إلى مستشفى جليم. ففعل صديقه لكنه شكَّ في الأمر، وبعدما أوصله إلى هناك حمل شكري ابنته ودخل بها المستشفى. بينما عاد ياسر دياسطي إلى نفس المكان الذي تُرِكَ فيه الولد. ركن سيارته وتوغَّل للداخل قليلًا فوجد الولد مُلقى بجوار صخرةٍ كبيرةٍ غائبًا عن الوعي، عاريًا إلا من لباسه الداخلي. انحنى على صدره ملصقًا أذنيه فوق قلبه مُرهِفًا السمع فالتقط صوت نبض لكنه بطيء. تهلّل ياسر وحمله إلى سيارته. أجلسه بجواره ثم ستره بغطاء السيارة. كان ذلك حين بدأ يفتح عينيه ويستفيق. وقد اكتسى وجهه سمار خلفته قيظ الشمس الحارقة اللاهبة.

ذهب به إلى محطة الرمل ليشتري له ملابس جديدة وطعام، فأكل وارتدى الملابس الجديدة قبل أن يسأله دياسطي ماذا حدث ليفعل به والده ذلك؟ فبكى الولد. سأله الأسطى ياسر إن كان يريد العودة إليه مرة أخرى. فصرخ وهو يهز رأسه بالنفي قائلًا وقد تهدج صوته من البكاء: - لاااا لاااا لا تعيدني إليه مرة أخرى...

ربت الأسطى ياسر على كتفه محاولًا تهدئته. كان ذلك حين لمعت فكرة في رأسه؛ لما لا يأخذه إلى اللواء محمد نور الدين الذي يعمل سائقًا عنده ليتبناه، فهو يعرف أنه في هذه الأيام يتردد هو وزوجته إلى ملاجئ الأيتام ليبتنيا طفل. فسأل الولد:

- هل تريد أن تعيش في قصرٍ كبير يا بنيّ؟!

التمعت عيني الولد مجيبًا بحماسٍ مُشتعِل: - نعم... أريد. أهم شيء ألا يكون أبي هناك.

ابتسم الأسطى ياسر دياسطي وأخذه إلى اللواء محمد نور الدين، وعرض عليه الطفل فهرعت إليه الزوجة لتلتقي عينيها بعيني الولد للمرة الأولى، انحنت أمامه وحضنت وجهه بكفيها فشعرت أن شيئًا ما يربطها به. ما جعلها تصرخ لزوجها قائلة:

- أرجوك يا محمد تبنى هذا الطفل، فقد تعلق قلبي به منذ اللحظة الأولى...

فوافق اللواء على الفور، واستخدم سلطاته ونفوذه في تغيير الاسم وما إلى كل ذلك، سأل زوجته:

- ماذا تريدين أن تسميه يا حبيبتي؟!

- شهاب... قالتها مبتسمة وهي تكرر الاسم مضيقة عينيها وتحرك سبابتها كأنها تكتبه في الهواء:

- شهاااب... شهاب محمد نور الدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما ظلت حسناء تبكي طوال اليوم وهي تحتضن حسام ابنها حتى كادت تموت كمدًا، خائفة من أن يكون زوجها قد فعل أي شيء يؤذي فلذة كبدها. كان شكري في المستشفى مع ابنته حتى استطاعت الطبيبة أن توقف نزيفها وعلّقت لها محاليل ثم كتبت لها أدوية وعاد بها إلى البيت، وجدها جالسة على الأريكة تبكي. وبجوارها ابنها نائمًا على فخذها. ما إن رأته حتى أقبلت عليه لهفى فلم يعرها انتباهه وتركها ليدخل غرفة النوم ويضع سمر على السرير، أخذ يمسد شعرها حتى استنامت. قبّلها من جبينها وخرج ليجد حسناء واقفة أمامه واضعة يديها على جنبيها.

- أين حسن...؟

- أين الخريطة؟!

- هل ستضع هذا أمام ذاك؟

- نعم.. هو كذلك بالضبط كما قلتِ

- سأعطيك إياها فور رؤيته... هذا وعد. أرني إياه وسأعطيك الخريطة في لحظتها..

- ولماذا لم تفعلي ذلك من قبل. أكان يجب على أن أفعل ذلك أولًا؟!! يا ليتني كنت فعلت ذلك طوال السبع سنوات الماضية التي تيبس فيها لساني من كثرة إلحاحي عليكي أن تعطيني إياها...!

- أين الولد يا شكري؟ أين حسن؟!

سألته وهي تبكي فأطرق وهو يحك رأسه بإصبعه قائلًا: - هو عند أحد أقاربي، لا أطيق رؤيته هذه الأيام بسبب ما فعله بسمر...

في ذلك الوقت كان حسام يسمع كل ما دار بينهما، وإن كان لا يفهم معظم ما يتحدثون عنه بشأن الخريطة، لكن نغزة في قلبه انتابته حين رأى ما يحدث أمامه وأنه كان يجب أن يكون مكان أخوه، أراد لوهلة أن ينهض ليخبرهم بالحقيقة لكنه خشي أن يفعل به مثل ما فعل بأخيه، سأل نفسه، ترى أين أخي الآن. وماذا فعل به هذا الرجل؟! ظل يبكي بداخله وتذرف عينيه دون أن يصدر صوتًا.

- سأحاول تصديقك، رغم أنني أعرف أنك مقطوع من شجرة. احضر لي الولد سأعطيك الخريطة.

عاد شكري إلى نفس المكان الذي تركه فيه لكنه لم يجده، بحث عنه في الأقسام والمستشفيات لمدة خمسة أيام دون جدوى، كاد يجن ويفقد صوابه، تجرع في هذا اليوم عشرة زجاجات بيرة حتى ثمل وذهب إليها في البيت فوجد حسام وسمر نائمين على السرير وحسناء جالسة بجوارهم تبكي بحرقة على فقدانها فلذة كبدها. اهتز بدنها خوفًا حين رأته واقفًا أمامها متصلبًا وينظر لها بنظرات مخيفة. شعرت بالخطر وابتعدت عنه قاصدة غرفة النوم فلحق بها قبل أن تدخل وأمسكها من شعرها وصفعها عدة صفعات على وجهها فصرخت، كتم فمها بكفه ووضع عليه لاصقة منعتها من الصراخ. ثم أجلسها على كرسي وقيدها به جيدًا وجلس قبالتها:

- حياتك ثمن الخريطة يا فاجرة... هذا كل ما في الأمر ببساطة. يكفي سبع سنوات من الإلحاح أن تعطيها لي.. إن لم تعطنى إياها الآن سآخذ الكلب الثاني وسيلقى نفس المصير... ما رأيك؟! قالها شكري صارخًا في وجهها

حاولت حسناء الصراخ دون جدوى، صفعها عدة صفعاتٍ أخرى وأطفأ سيجارة في صدرها. استيقظ حسام على صوت أنين والدته المقيدة، هرع إليه محاولًا الدفاع عنها وضربه بقبضته الصغيرة، فصفعه شكري بقوة حتى أرداه أرضًا مغشيًا عليه. دخل المطبخ وأحضر سكين، هددها أنه سيقتلها. ولكنه قبل أن يقتلها سيجعلها ترى ابنها يذبح أمامها أولًا. صرخت حسناء صرخاتٍ مكتومة وحاولت فكّ قيودها وهي تبكي لكن بلا جدوى، إلى أن يأست وهدأت قليلًا...

- الخريطة مقابل حياتك وحياة ابنك... اختاري.

قالها وهو يلوح بالسكين بالقرب من رقبته. هزت رأسها موافقة أن تخبره عن مكان الخريطة. نزع الشريط اللاصق من فمها وبالكاد التقطت أنفاسها

اللاهثة:

- الخريطة بداخل كيس تحت هذه البلاطة. أشارت برأسها إلى بلاطة متخلخلة بجوار الحمام. نزعها شكري انتزاعًا مستخدمًا السكين التي في يده. ليجد بالفعل كيس، فتحه فوجد الخريطة. لمعت عينيه حينها وأعادها داخل الكيس مرة أخرى والتقط الشريط اللاصق ووضعه على فمها ثانية قائلًا بعينين جاحظتين مسعورتين ممتلئتين بالانتقام:

- كل شيء انتهى الآن يا عاهرة يا ابنة الكلاب. أتظنين أنني لا أعرف حقيقتك القذرة؟! أتظنين أنني لا أعرف من هو أب هؤلاء التوائم؟ سأقتلك يا زانية يا رخيصة.

اتسعت عينيها المصعوقة من هول المفاجأة ولم تجد ما ترد به عليه. ضربها عدة لكمات على وجهها وصدرها فانكفأت على وجهها الذي اصطدم بالمنضدة وتكوَّمت على الأرض وصرخت، أخذ يركلها بقوة على كامل جسدها حتى صارت لا تقوى على الصراخ وغابت عن الوعي، فك قيودها وأمسك شعرها الناعم الطويل ولفَّه حول كفه ليجذبها منه نحو الحمام، وضعها تحت الصنبور وفتح عليها المياة حتى أفاقت مرة أخرى وواصل ضربها بقوة. فصرخت عدة صرخات تجمع خلالها الجيران وبالكاد استطاعوا تخليصها من بين يديه. كان الدم يملأ الحمام والطرقة التي أمامه. وفقدت حينها الوعي تمامًا فطلب أحدهم الإسعاف. تجمَّع الجيران حولها في نفس الوقت الذي انطلق فيه هاربًا. لم تكد تمر نصف ساعة حتى جاء المسعفون وفحصوها ليقول أحدهم أنها غالبًا تحتضر. متسائلًا من الذي فعل بها ذلك..

دخلت حسناء مستشفى حكومي متواضعة الإمكانيات، ظلت طوال الليل بين الحياة والموت رغم محاولة الممرضات والأطباء إسعافها، بينما كان حسام جالسًا يبكي عند «الست صفاء» جارتهم والتي تعيش في المنزل المقابل لهم مع ابنتها أماني وزوجها محمد الأزهري إمام الجامع في المنطقة. فأخذت تهديء من روعه حتى نام أخيرًا وهو يئن. وفي الغرفة الأخرى تنام ابنتها أماني بجوار سمر...!

في اليوم التالي استفاقت حسناء من غيبوبتها ولازالت تشعر بسوء حالتها التي أكد الأطباء عليها لبعض من أهل الحارة الذين أتوا ليطمئنوا عليها. شعروا تجاهها بحزنٍ شديد وأخذوا يغمغمون في أسى؛ قالت أم زينهم: - منه لله هذا الرجل الظالم. بينما وافقت على كلامها الحاجة روحية: - صدقتي يا أختي وأدعو الله أن يعينها على ما هي فيه. وأردفت سنية سوكا: - ابنة ذوات... لقد سرق منها زهرة شبابها الرجل الناقص المعيوب ابن الـ...

من بين كل هذا الزحام تسلل الأسطى ياسر إلى الغرفة التي بها عشرة أسرّة من بينها السرير المستلقية عليه حسناء، أمسك يدها وهو ينظر مُتحسِرًا إلى جمال وجهها الذي كان نضرًا ضحوكًا منذ سنوات خلت حين دخلت الحارة متأبطة هذا الرجل الفسل الوقح. لم يرها أحد من أهل الحارة إلا وأحبها وأعجب بها وبأدبها وحسن خلقها، النساء قبل الرجال. كانت تسكب البهجة في الأرواح وتشيع في الأفئدة محبة وصفاء.. وضع يده على كتفها ففتحت عينيها بجهد، انحنى عليها هامسًا: - لا تقلقي يا ست حسناء، فابنك حسن بخير، أنا أعرف مكانه، وهو والآن مع أسرة كريمة غنية تخاف الله وسيجعلونه رجلًا صالحًا.. ثقي في كلامي وتأكدي أنه سيصبح رجلًا صالحًا..

أذرفت دمعتين وحاولت أن تتكلم بصعوبة: - أرجوك.. أر.. أرجوك يا أسطى ياسر لو كنت تراه أخبره أن أمه كانت تحبه جدًا. ولو استطعت إحضاره لي لن أنسى لك هذا الجميل أبدًا، لأنني أريد أن أراه قبل أن أموت...

- حسنًا.. حسنًا يا ست الستات سأحضره لكِ لا تقلقين، سأخبر محمد بيه نور الدين، الرجل الذي تبناه. استأذنك الآن وسأحضر حسن لك غدًا أو بعد غد لتريه إن شاء الله...

رحل الأسطى دياسطي وهو يبكي، وجاءت بعده بعشر دقائق الست صفاء ممسكًا بيدها حسام الذي كاد قلبه يتوقف من كثرة البكاء على أمه، استأذنت الطبيب أن تدخل لحسناء لترى ابنها، فربما تكون هذه المرة الأخيرة. وافق الطبيب متفهمًا شريطة ألا تمكث أكثر من دقيقتين، لراحتها ولراحة باقي المرضى المجاورين لها. فأومأت بالموافقة. وبمجرد أن دخلت هرع حسام نحو أمه التي فتحت عينيها قليلًا وأمسكت يده بيدٍ ضعيفة مرتعشة قائلة له بصوتٍ متهدج: - لا تبكي يا حبيبي... وابحث عن أخيك وحاول أن تجده. خذ بالك من نفسك وكن دائمًا بخير.

في صباح اليوم التالي

حضر الأسطى دياسطي برفقة اللواء محمد نور الدين وحسن، والذي صار يدعى شهاب. وقد بدا عليه التغيّرات التي طرأت عليه في هذا الأسبوع. مهندمًا، مرتديًا أغلى الثياب. ما إن رأى أمه هكذا حتى أقبل عليها ممسكًا بيدها وأخذ يبكي، كانت قد بدأت دخول مرحلة الاحتضار، مما جعل اللواء محمد نور الدين يبكي متأثرًا بما رآه قائلًا لها: - يا ست حسناء، نحن لم نفعل أي سوء بابنك، كوني متأكدة من ذلك. فقد أخبرنا الأسطى ياسر بما فعله أبوه به، ولم أرتض له أي سوء فأخذته عندي في قصري ليعيش معي أنا وزوجتي، وكما ترينه، فهو الآن في أحسن حال. وقد تعلقنا به و....

قاطعته بإشارة من سبابتها المرتعشة قائلة له بصوتٍ متقطع: - أنا أعلم ذلك، ما أراه هو خير دليل على كلامك. والآن سأموت وأنا مطمئنة عليه. أرجوك حينما يكبر أخبره أن يسامحني هو وأخوه على أي شيء خطأ فعلته في حياتي، فحياتي مليئة بالأخطاء أعلم ذلك، ولا أدري كيف سأقابل ربي حاملة على كتفي كل هذا...! فقد هربت من بيت أهلي لأتزوج رجلًا حيوانًا، سكيرًا. سرق مني الخريطة التي كنت أخفيها عنه لكي أؤمن مستقبلهما هو وأخيه.. وقل له أن هذا الرجل ليس والده الحقيقي، بل أنجبتهم من ابن عمي، عاطف الكردي. حاولت رفع رأسها لتتمكن من رؤية ابنها فحمله محمد نور الدين كي لا تبذل مشقة رفع رأسها. أطبقت بقبضتها على يديه وشدتها لتقربها من فمها وقبلتها قائلة: - سامحني يا حسن.. سامحني يا حبيبي... سامحني يا..

لم تكمل جملتها وارتخت قبضتها بعد أن خرجت من جسدها روحها الثكلى ولفظت أنفاسها الأخيرة...

وانطفأت شمعتها...!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختبأ شكري في شقة زوجته الثانية التي أنجب منها سمر. بحثت الشرطة عنه حتى استطاعت القبض عليه دون أي عناء. بتهمة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد والحكم عليه خمسة وعشرون عامًا أشغال شاقة...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- سامحني يا حسن.. سامحني يا حبيبي...

لم ينس شهاب قط، تلك المرارة التي انزوت في قلبه من بعد ذلك اليوم، وما زالت هذه الجملة تتردد في مسامعه بلا هوادة، لاسيّما الآن وهو جالس بجوار شريف الكردي في السيارة، في عينيه دموعًا تلح عليه أن تنهمر، لكنه جاهد كثيرًا لئلا يبكي وتسيل دموعه. لطالما سهر الليل مُلتاعًا بحرقة الفقدان، كلما فكّر أكثر في نبرة صوت والدته حينها كانت نفسه تضعف بداخله أكثر وأكثر، فرك عينيه ليستجري دموعه التي انهمرت بلا هوادة كشلالٍ جامح، فاستسلم للبكاء حتى اهتز بدنه الذي راح يعلو ويهبط. يقولون أن البكاء يزيح الحزن ويريح النفس، غير أن بكاءه لا يستطيع إزاحة أثقال الحزن المخبأة بين ضلوعه مُغلّفة فؤاده لسنين طويلة حتى تعتّقت... وما أقسى الحزن حين يتعتّق...!

سأله حسام: - لماذا تبكي الآن يا أخي؟! أنا لا أفهم أي شيء.

عاجله إسحق بسؤال آخر: - من أنت بالتحديد؟ حسن أم جمال سيراميكة أم شهاب نور الدين؟!!

استدار بظهره ناظرًا له بعينيه المغرورقتين قائلًا بصوتٍ رخيم: - أنا ابن حسناء... أطهر وأشرف سيدة في هذا الكون.

منذ ذلك اليوم الذي ماتت فيه وكانت آخر كلماتها له تطلب منه أن يسامحها، لم ينس قط أي حرف قالته، رغم أنه لم يفهم حينها ما هي هذه الخريطة التي كانت تتحدث عنها أمه... وما أهميتها لدرجة أنها تعمّدت ذكرها بينما تلفظ أنفاسها الأخيرة؟! ومن هذا ابن عمها الذي يدعى عاطف الكردي؟!

آلاف من الأسئلة التي كبرت معه، حتى انتهى من المرحلة الابتدائية والإعدادية. لم يمر يومًا عليه دون التفكير في ذلك اليوم. فتخدش أظافر الذكريات جدران عقله وقلبه وكل وجدانه. دخل بعدها الثانوية وقد اشتد عوده وما زال متذكرًا كل ما قالته أمه في ذلك اليوم. مازالت كلماتها تتردد صداها في أنحاء روحه. لم يلق من أبويه الجدد، اللواء محمد نور الدين وزوجته. إلا كل معاملة حسنة بعدما انتشلاه من موتٍ محقق، لم يبخلا عليه بأي مالٍ قط. اجتاز المرحلة الثانوية في نفس الوقت الذي بلغ والده بالتبني سن التقاعد وخرج من الخدمة برتبة عميد، أدخله حينها كلية الشرطة التي كانت حياة جديدة بالنسبة إليه، داخل أسوارها عالمًا منفصلًا تمامًا عن هذا العالم خارجه. انشغل فيها عن كل شيء، وانتزعته من التفكير والتدبير في أي شيء. توفيا بعدها بعامين تاركين له فيللا بالإسكندرية، شقة في المنيل بالقاهرة، مبلغ كبير في البنك. والأهم من ذلك تربية حسنة صالحة، شخصية سويّة ومستقبل مشرق.

بعدما تخرَّج وأصبح ضابطًا بدأ حينئذٍ يبحث عن أخيه في كل مكان. حاول كثيرًا أن يتذكر مكان شقتهما القديمة لكن فشلت مساعيه لذلك، حتى تذكر أن مكانها هو نفس المكان الذي يعيش فيه الأسطى ياسر الذي ترك خدمة والديه بالتبني بعد أن أصبح عاجزًا بسبب إصابته بالسكر وتضاعف الأمر لتصيبه غرغرينة في قدمه وتم بترها. بحث عن عنوانه بين أوراق أبيه حتى وجده وذهب إليه ليسأل عنه ويعطيه مبلغًا من المال ليعينه على العيش. ثم سأله عن أخوه فأخبره أن أخوه حسام وأخته سمر عاشا لمدة عامين مع الست صفاء جارتهم حتى انتقل زوجها إلى القاهرة بمنطقة المطرية ليعمل هناك في وزارة الأوقاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يزل حسام حائرًا، لديه مئات الأسئلة. لكنه آثر التحلي بالصبر إلى أن يعرف الحقيقة كاملة. هز رأسه متعجبًا مما رآه في الفترة الأخيرة، بل من

حياته ككل. شعر أنه يريد إشعال سيجارة.

- أعطني سيجارة يا سيراميكة.. آآآأقصد جمال... آآآآأقصد حسن أو شهاب أو الجن الأزرق فأنا متوقع أنك بعد ساعتين ستفاجأني بأن لك اسمًا آخر وصفة أخرى...!

التفت له شهاب مبتسمًا وأعطاه سيجارة، سأل إسحق إن كان يريد سجائر هو الآخر فهز رأسه بالسلب.

- لا أريد سجائر... أريد فقط أن أعرف ماذا يحدث... ماذا يحدث وإلى أين نحن ذاهبون؟!

لم يجبه أحد بينما أخذ حسام الولاعة من شهاب وأشعل السيجارة، نفث أول أنفاسه منها حين فتح النافذة التي بجواره، ونظر هو الآخر إلى البحر متذكرًا ذلك المشهد الذي كان فيه بجوار سمر داخل سيارة نقل مليئة بالأثاث متجهة إلى ميدان المطرية بالقاهرة.

بعدما انتقل محمد الأزهري وزوجته إلى هناك للعمل بوزارة الأوقاف، كان قد مرَّ عامين على تبنيه سمر وحسام، ليربيهما مع ابنتهما الوحيدة، أماني. فكر الرجل عدة مرات أن يودعهما في أي ملجأ لكن زوجته الست صفية أبت تمامًا:

- لن نودعهما في ملجأ يا محمد. سنربيهما مع أماني، فأنا أحببتهم كثيرًا، بالإضافة إلى أن قدمهم كان خيرًا علينا، ومنذ أن دخلوا بيتنا زاد رزقنا يوم بعد يوم حتى ترقيت في عملك وأصبحت موظفًا على الدرجة السادسة في وزارة الأوقاف. وأنت أعلم الناس أن من يقدم يد العون للناس قدم الله له خيرًا ما بعده خير. هل ستأتي بعد كل ذلك وتريد أن تودعهما في ملجأ يا أبو أماني؟!

- أنتِ على حق يا صفية... سنربيهما مع ابنتنا. ولعل هذا اختبار من الله ليرى ماذا سأفعل تجاههم. على خيرة الله. سأنبت فيهم حب الله وأجعلهم ذرية صالحة. لكنني لست قلقًا بشأن الولد، فأنا أراه قابلًا لتربيتنا.

- نعم أنا أفهمك، أنت تقصد سمر. فهي لا تسمع كلامنا قط، بالإضافة إلى أنها دائمة الوقوف في الشرفة وتتحدث مع ابن الجيران، علاوة على أنني ضبطتها عدة مرات تمسك سماعة الهاتف وتتصل بأرقام عشوائية لتعاكسهم. ومع ذلك فسنفعل معها ما أمرنا الله به. وسنحاول أن نقيّم أخلاقها.

- أتمنى من الله أن يهديها، لا تنسي أيضًا أنني أخشى على ابنتنا منها... أتمنى أن يهديها الله.

ولكن الله لم يستجب لدعائه، وهربت منهم في سن الخامسة عشر لتعيش مع خالتها التي تمتلك كوافير في منطقة شبرا. بينما تربى حسام تربية أزهرية بحتة، وقد استعان محمد الأزهري بأحد أصدقائه الموظفين ليغير بيانات شهادة ميلاد حسام ليجعل اسمه حسام محمد الأزهري كي يسهل عليه التقديم في المدارس وما إلى ذلك دون أي عقبات. كان حسام مطيعًا، يستذكر دروسه مع أماني التي تصغره بعامين. أحبها منذ نعومة أظافره، هي أيضًا وعيت على الدنيا فوجدته أمامها، أحبته منذ ذلك الحين وظل حبها له يعتمل في قلبها، وإعجابها به ينمو. لم يترك فرض إلا ويصليه بالمسجد في موعده، يصوم رمضان منذ أن بلغ العاشرة من عمره، وحين بلغ الحادية عشرة كان قد استطاع حفظ القرآن كله. حتى تخرج من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، كانت أماني أول من يعرف خبر نجاحه حين كانت معه في الكلية طوال هذا اليوم. وكان نفس اليوم الذي صرح له بحبه لها الذي نضج في قلبه وتعتّق. فصرحت له أنها تحبه مثلما يحبها وأكثر. كان والدهما يشعران بخطبٍ ما، وأن ثمة مشاعر بينهما. حتى تقدم حسام لها رسميًا، فوافق والدها الذي ساعده على العمل بوزارة الأوقاف. وباركت زيجتهما الست صفية التي ماتت بعد زواجهما بخمسة أشهر، وتوفي بعدها زوجها... بعدما اطمئنا عليهما، تاركين لهما المنزل الذي يعيشان فيه الآن... بميدان المطرية...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أعطني سيجارة لو سمحت...!

قالها إسحق على استحياء فأعطاه شريف العلبة كلها، التقط منها سيجارة وأخذ سيجارة حسام المشتعلة ليشعل سيجارته منها... ثم ألقى عليهم سؤالًا علّه يجد من يجيبه: - فليجبني أحدكم إلى أين نحن ذاهبون؟ وما هي المفاجآت الأخرى التي في انتظارنا؟!

بالفعل لم يجبه أحد لكن شهاب التفت له مُبتسمًا وانتقل بنظره مرة أخرى إلى البحر. لم يلح عليه إسحق وشرد بذهنه مفكرًا في حياته هو الآخر... اكتشف بعد كل هذه السنوات أن كل ما عاشه ليس إلا فصل في كتاب كبير لم يقرأه قط، متذكرًا ذلك البيت الذي نشأ فيه لم ير سوى زوجين يعتادان الذهاب إلى الكنيسة باستمرار، عاد بذاكرته إلى اليوم الذي أخذاه فيه إلى القس في الكنيسة طالبين منه أن يجعله في خدمة الرب والكنيسة، كان ذلك قبل أن يتوفيا في حادث إرهابي استهدف الكنيسة حين كان عمره سبع سنوات. مر أمام ناظريه كل ما رآه معهم. فلم يجد سوى معاملة حسنة. لكنه الآن لا يدري هل المفترض أن يذهب إلى قبرهما ويشكرهما على تربيتهما الصالحة له واعتناءهما به، أم يلومهما لأنهما لم يخبراه بالحقيقة

كاملة، وأنهما اشتراه حين كان عمره ساعات كعبد من سوق الرقيق. ترى ماهو مصيري الذي كان سينتظرني لو لم يشترياني؟! وإلى أي مدى تتحكم البيئة المحيطة في صنع شخصية الإنسان وصفاته بل وكل مصائره؟!

ثلاثة تواءم؛ أطول فترة عاشوها مع بعضهما البعض كانت تسعة أشهر، لم يملكا شيئًا بداخلهما سوى الفطرة، وهي التي جعلتهم يعيشون مع بعضهما البعض في سلام. حتى خرجوا إلى الدنيا المليئة بالطمع والقسوة والظلم، فكان هذا الشتات...!

- فيما تفكر يا إسحق؟! سأله شهاب مبتسمًا. فنفث إسحق آخر نفس في السيجارة وهو يجيبه:

- لا أفكر في شيء يا أخي، لا أفكر في شيء.. ولا أريد أن أفكر في أي شيء سوى لم شملنا من جديد، حتى لو كانت أسماؤنا مختلفة. أو طباعنا... أو حتى ديانتنا.

قالها حين وقف شريف الكردي بالسيارة عند أحد شاليهات منطقة العجمي، ومن مكانهما كانوا يستطيعون رؤية البحر الذي يبعدهما حوالي مائتين متر.. سألا حسام وإسحق في وقتٍ واحد بعد أن نزلا من السيارة:

- ماذا بعد يا شريف ذلك؟ مرت ساعة دون أن تتفوه كلمة. نزل شريف من السيارة وأقبل عليهما مبتسمًا ثم عانقهما، عاد بذاكرته إلى الوراء عامين، متذكرًا حين حصل على الدكتوراة بكلية النظم والمعلومات بجامعة مانهاتن في اليوم الذي دخل فيه والده؛ عاطف الكردي مستشفى كارديولوجوس الدولي إثر أزمة قلبية وطلب استدعاءه. ذهب إليه وهو يشعر أن والده يعيش أيامه الأخيرة.

- أبي، كيف حالك. أعرف أنني منذ أن تركتكما وأخذت سكنًا بمفردي ولم أزوركما وأطمئن عليكما سوى مرتين أو ثلاث مرات. سامحني يا أبي فقد كنت مشغولًا بدراستي.

رفع عاطف الكردي قناع الأكسجين من وجهه: - لا عليك يا حبيب أبيك، المهم أنني استدعيتك اليوم لأنني أشعر أن هذه المرة لن تمر مثل كل مرة. وكان يجب أن أخبرك بسرٍ خطير.

- ما هو يا أبي؟

- حينما كنت شابًا، تقريبًا في مثل سنك. كنت أحب فتاة تدعى حسناء، كانت ابنة عمي، لكنها للأسف سارت وراء رجل سلبها كل شيء بعدما تزوجها، لا أنكر أنني كنت مخطئًا حين أهملتها وتركتها تعيش معه. لكن الظروف كلها كانت ضدي حينها. المهم هو أنني أقمت معها علاقة وهي متزوجة من هذا

الرجل الذي لم يكن يقربها بالأربعة أشهر، قابلتها في أحد الأيام وجلسنا معًا نتفق على طريقة أخلصها به من هذا الرجل. وفي هذه الليلة حدث بيننا ما حدث، بعدها بأسبوعين أخبرتني أن الدورة الشهرية لم تأتها، ذهبت لتجري بعض التحاليل لتكتشف أنها حامل... وأنجبت ثلاثة توائم مات أحدهم في نفس اليوم. وتبقى توأمين..

في هذه الأثناء كانت أعمال أبي تنهار هنا في أمريكا، تركتها على أمل أنني سأعود قريبًا كما وعدتها ولكن للأسف لم أستطع أن أفي بوعدي، وانهمكت في العمل هنا وتكوين ثروة وتزوجت من ابنة صاحب الشركة التي وقع معها أبي عقد شراكة. لا أنكر أنني أحببتها وكنت أنت نتاج حبنا هذا..

لم يتفوه شريف بكلمة واحدة، بدا متفهمًا إلى أبعد الحدود. بل وسأله عن مكانهما. فكرة أن يكون لديه أخين توأمين في قارة أخرى، يعيشان في مكان ما من هذا العالم، لهي فكرة مخيفة. كان عشقه للأدرينالين الناتج عن مغامرة شيئًا تاقت إليه نفسه، بدأ الفضول يلحّ عليه ويدفعه لأن يعرف من أبيه المزيد. فأخبره متأسيًا أنه للأسف لا يعرف عنهما أي شيء. لأنه ببساطة أخبارها انقطعت عنه منذ زمن بعيد. وكان آخر خبر كان خبر موتها... أو قتلها بمعنى أدق.

- لقد اتصلت بي قبلها بيومين لتخبرني أن هذا الكلب ينوي إيذاءها لو لم تعطه خريطة تشرح مكان صندوق مدفون تحت إحدى بنايات عائلتنا التي صودرت من قبل. هذا الصندوق يحتوي على كنوزٍ ثمينة. وأخبرتني أيضًا أنه تخلّص من أحد توأميها وألقى به في العراء.

- وكيف أستطيع إيجاد إخوتي إذن؟!

- لا أعلم المزيد يا بني، لو كنت تريد رؤيتهم فعلًا. فحاول إيجادهم. في مصر. وهناك مقولة تقول إن من تبحث عنه هو الآخر يبحث عنك... من يعلم؟! ربما يكونان يبحثان عنك ونحن لا نعرف.

شعر أبوه حينها أن نفسه يضيق ووضع قناع الأكسجين على وجهه مرة أخرى. شرد شريف قليلًا، لطالما حلم أن يذهب إلى مصر، لكنه كلما طلب ذلك من أبيه كان يقول له ألا أحد لهم فيها، فلماذا نذهب؟!... والآن فاجأه بأنه له فيها، ليس مجرد أقارب ولكن إخوة بالدم... ألقى نظرة على أبيه وقبّله من جبينه، لم يكن يعلم حينها أن هذه النظرة ستكون الأخيرة..

بعد مرور شهرٍ تقريبًا، لم يكف عن التفكير في الذهاب إلى مصر. لكنه لم يحصل من أبيه على معلومات كافية لتكون طرف خيط يبدأ به بحثه..

كان ذلك في نفس الوقت الذي ترقّى فيه شهاب وانتقل إلى جهاز المباحث، وقد كُلِف بمهمة هي الأخطر من نوعها. لكنه قبلها حين عرضت عليه...

مهمة الوصول إلى مكان أبو شهد السمنودي، صاحب أكبر وكر لتجارة المخدرات في مصر. وكانت الخطة أنه سيتم زرعه بينهم بواسطة «ورنيشة» أحد المقبوض عليهم وأصبح بعد ذلك مُرشِدًا... أتى به إلى هناك وعرفهم عليه على أنه جمال سيراميكة؛ شقيّ وتاجر مخدرات ومسجل خطر. وقد أصدر له بطاقة بهذا الاسم. وبالفعل عمل معهم وقد أصبح في غضون ستة أشهر واحدًا منهم لكنه ما زال غير قادر على الوصول لأبي شهد السمنودي، لم ييأس بعد، لأنه يعرف أن الوصول إليه قد يحتاج إلى أكثر من ثلاثة أعوام. وذلك يتطلب منه أن ينخرط أكثر بينهم ويترقى داخل وكرهم «السحر والجمال»... ليكسب ثقة الكوادر الكبيرة هناك ويترقى تدريجيًا إلى أن يصل هدفه الأكبر..

حين يحل الليل ينفرد بنفسه في غرفته هناك متذكرًا فتات مشهد لطفلٍ تم إلقاؤه عاريًا في الصحراء، وطفلين توأمين أحدهما بريء والآخر مذنب، يختبئان تحت السرير من أبٍ سكير، ينظران إلى بعضهما البعض. ومازالت كلمات أمه الأخيرة تتردد في مسامعه، ونفس الأسئلة تجول في رأسه بلا هوادة. أسئلة يريد أن يبحث عن إجابة لها. يعلم جيدًا بواسطة معارفه في إدارة السجون أن شكري شعيب في السجن، ولكن هل لو ذهب إليه وطلب منه أن يجيب على هذه الأسئلة سيفعل؟! ماذا سيقول له لو ذهب إليه؟ وماذا سيجيبه هو؟ «نعم يا بُنيّ أمك خانتني مع ابن عمها عاطف الكردي وقد قتلتها بسبب الحصول على خريطة كنز تركه لها والدها... وها هي الخريطة... تفضل...!!»

بالتأكيد لن يفعل ذلك. وبالتأكيد الخريطة ليست معه داخل السجن، وإنما مخبأة في مكانٍ ما. أو مع شخص ما..

التمعت في ذهنه فكرة، طرفي خيط يمكنه بدء بحثه منهما...

الطرف الأول: سمر شكري شعيب... ابنته، التي كانت تأتي لزيارته بعد أن تم نقله إلى ليمان طرة، كل ثلاثة أو أربعة أشهر، فتربص لزيارتها القادمة له، وأوصى أحد العساكر أن يزرع جهاز تصنت صغير جدًا بجوارهما، كي يستطيع سماع حديثهما. والذي عرف من خلاله أنه كلما تزوره يلح عليها محاولًا إقناعها أنه يملك ثروة كبيرة، وخريطة توضح مكان كنز مخبأ تحت إحدى بنايات محطة الرمل. فتنهره سمر قائلة:

- أنا لا أصدق أي من هذه الترهات التي صدقتها أنت يا أبي وأودت بك إلى السجن بتهمة قتل.

- سأثبت لك يا ابنتي أنني على حق. سأخبرك بمكان الخريطة وتذهبين للحصول عليها و...

- لا... لا أريدها ولن أبحث عن شيء...

- إذن سأثبت لكِ صحة كلامي حين أخرج من هذا السجن قريبًا جدًا... وسأثبت لكِ أنك كنتي جاهلة بكنز ثمين.

- لا تفكر في أي شيء الآن يا أبي... واهتم بصحتك التي بدأت تتدهور... وحين تخرج سنتحدث في كنوزك وخرائطك وكل شيء. لكن الآن أرجوك اهتم بصحتك فقط... أرجوك...

الطرف الثاني الذي كان يجب البحث عنه هو:

عاطف الكردي

تعجب من استخدامه للقب الكردي هذا... فأمه لا تحمل هذا اللقب. لكنه على أية حال استخدم محرك البحث جوجل في العثور على عائلة الكردي هذه، فوجد آلاف الأسماء التي تحمل اسم هذه العائلة. ضيّق دائرة بحثه مستخدمًا (عاطف + الكردي) حتى وجد خبرًا واحدًا عنه أنه كان أحد أعضاء جمعية المهندسين العرب بالخارج، كان خيطًا ضعيفًا واهيًا لا يصلح لأن يمشي وراءه. فكر في حيلة أخرى مستخدمًا معارفه وصلاحياته كضابط شرطة. تواصل مع أحد معارفه الذين يعملون بالمطار، ليبحث له عن أسماء الذين غادروا البلاد في الثمانينيات وأعطاه اسم عاطف الكردي، فأخبره أن آخر مرة سافر فيها إلى أمريكا كان منذ عشرون عامًا. ولم يعد حتى الآن. تواصل بعدها مع أحد أصدقائه الذين لديهم سلطات داخل سفارة أمريكا وقد أستطاع إمداده بعنوانه في الخارج وكل البيانات التي يستطيع الوصول له من خلالها. في نفس اللحظة أمسك هاتفه واتصل بالرقم، ليرد عليه شريف الكردي الذي اندهش من تلك المكالمة الواردة من مصر.

بعد عام ونصف العام

- هل تعلم يا شهاب... كنت أتمنى أن أسافر إلى مصر منذ أن كان عمري عشر سنوات. كان والدنا يرفض ذلك بشدة، رغم أنه كان حريصًا على أن أتحدث العربية بطلاقة.

- لديه حق، من هذا المجنون الذي يتمنى العودة إلى مصر؟!

- وهل لذلك أنت تلتمس له العذر أنه ترك والدتك لكل ما عانته بعيدًا عنها؟ هل تسامحه على ذلك حقًا؟!

- اسمع يا شريف، نحن الآن نتحدث عن أموات، قد عاشوا ما عاشوا وفعلوا ما فعلوا. من المخطيء؟! لا يهمني. هل أحبهم؟! نعم، ولم لا؟!

- وما الذي يهمك الآن إذن؟!

- ما يهمني أن نبحث عن أخي حسام، حسام.

- توأمك.. قالها مبتسمًا. ماهو شعورك وأنت لديك أخ توأم ولم تعرف عنه شيء؟!

- أشعر أنه يوجد جزء مني، بعيدًا عني. لديَّ فضول قاتل أن أراه... وأن أرى سمر. التي يحيطها مئات علامات الاستفهام.

- هيا نبدأ إذن... كيف سنصل إليهما؟!

استعان شهاب نور الدين بصديق قديم له يعمل في سجن طرة، وقد أخبره أن السجين شكري شعيب قد أوشك على الخروج بعفو صحي، وقد أخبروا ابنته سمر بذلك... وقد أحضر صورة من بطاقتها. والتي حين رأى صورتها ابتسم مُتذكرًا ذلك اليوم الذي كان آخر مرة يراها فيه، طفلة. وقد أصبحت الآن شابة، جميلة. شعر ناحيتها رغم كل شيء بالحنين. رغم أن جزءًا منه كان يخشى أن تكون قد أخذت من أبيها صفاته القبيحة. وفي كل الحالات فإن أهم شيء الآن هو معرفة مكان هذه الخريطة، وما السر وراءها؟!

ترك مهمة البحث عن سمر لشريف الكردي، وعن طريق سمر سيحاول الوصول إلى حسام أخيه، والذي فشل في الوصول إليه حين بحث عنه في مصلحة الأحوال الجنائية باسم «حسام شكري شعيب» فلم يظهر له أية نتائج لأنه الآن أصبح «حسام محمد الأزهري»، متزوجًا ويعيش في منزل متواضع بالمطرية، ويعمل في وزارة الأوقاف هو الآخر، بالإضافة أنه كاتبًا مغمورًا.

اتفق مع شريف على أن يجذب إليه سمر مُحاولًا أن يعرف منها أي شيء بخصوص الخريطة، وفي نفس الوقت يكسب ثقتها ويوقعها في شراكه. جمعوا أكبر معلومات عنها وعلموا أنها تعيش حياتها طولًا وعرضًا مع هذا ومع ذاك دون اكتراثها بأيًا كان. أهم شيء هو أن تحصل على المال. وكان هذا هو مدخل شريف لها. معتمدًا على وسامته وماله.

بعد عدة أيام...

في اليوم الذي ذهب فيه مع سمر إلى بيتها... اتصل شريف الكردي بشهاب...:

- ألو.. أرأيت ما فعلته بي ابنة الكلب سمر؟ استدرجتني مع شاب أخرق لمنزل قديم بشبرا، وحاولوا سرقتي وسرقة سيارتي... تخيل إلى أي مدى وصل فجورها؟!

دخل شهاب في نوبة ضحك ثم قال له: - وماذا حدث بعد ذلك؟

- لا شيء... استطعت تحديد مكان السيارة وهي الآن وصلت إلى منطقة الحرفيين وذاهب الآن إلى قسم شرطة النزهة لأبلغهما.

- حسنًا وأنا سأتصل بأحد معارفي هناك للاهتمام بالموضوع... وسيقبضون عليها مع هذا الشاب. وستبيت الليلة في القسم. كل ما عليك فعله هو أن تذهب غدًا لتخرجها بمحضر صلح وتنازل... قبل أن تُعرَض على النيابة. حينئذٍ ستبدأ في التقرُّب إليك ولن تنسى هذا الموقف لك أبدًا..

فعل شريف الكردي ما أملاه عليه شهاب بالحرف. وبالفعل بدأت تنجذب له. وكان يتعمد أن يغدقها بالأموال لأنها نقطة ضعفها، وأن يجعلها آخر كل ليلة تسرف في الشراب لتحكي له عن أي شيء يخص حياتها وأي شيء تنتوي فعله... لم يكن يريد أن يسألها عن شيء بعينه كي لا تشك فيه. كانت الثقة هي العملة الرابحة والأثمن في هذه الخطة. يتركها تحكي أشياء كثيرة لا تعنيه في شيء، حتى باحت له في إحدى الليالي عن أسرتها التي تفككت منذ أن كانت صغيرة. وأخويها التوأمين الذي فضّ أحدهما غشاء بكارتها. وعن والدها المريض داخل السجن وسيخرج منه بعفو صحي بعد أيام، وعن الخريطة الخرقاء التي يخبرها عنها...!

- ألو... كيف حالك مع سمر يا شريف؟

- في أحسن حال يا شهاب... بدأت تشعر نحوي بطمأنينة، ولا أخفي عليك، أنا أيضًا أحاول جاهدًا ألا أحبها.. البنت فائقة الجمال ولا أستطيع منع نفسي منها. وكل ليلة أنام معها أشعر بـ...

- يا دون جوان... لا أريد أن أعرف تفاصيل علاقتكما والأوضاع التي تتخذونها أثناء العلاقة... هذ ليس شأني... المهم اسمع جيدًا، ستذهب معها لتخرج والدها من السجن، وتودعه في مستشفى خاص تهتم بصحته وتحسنها... وسأدفع أنا كل التكاليف.. لا أريده أن يموت الآن. وسأعطيك جهاز تنصت تزرعه في أي مكان مخفيّ بغرفته.

- حسنًا يا شهاب سأفعل كل ما قلته لا تقلق، دعك من سمر ووالدها الآن وأخبرني كيف حالك وماذا فعلت في مأموريتك في هذا الوكر الخطير؟ هل قبضت على أبو شهد السمنودي هذا؟

- الأمر ليس بهذه السهولة... أنت تتحدث عن أكبر تاجر مخدرات في تاريخ مصر. ولكنني أنفذ الخطة التي وضعها رؤسائي في الداخلية على أكمل وجه. أرأيت؟! أنت تضاجع كل يوم تلك العاهرة وأنا هنا مع أشكالٍ ضالة للشهر الرابع عشر على التوالي.

- هاهاها أنت الذي اقترحت على رؤسائك أن تندس بينهم.

- ادع لي يا شريف... المهم نفذ ما قلته لك بشأن سمر وأبيها..

فعل شريف كل ما قاله شهاب. فأحبته سمر أكثر، ليس لاهتمامه بها فقط، ولكن أيضًا بوالدها. كل كلمة قالتها له وكل معلومة سواء كانت مفيدة أم لا، كان شريف ينقلها لشهاب بالحرف. في نفس الوقت الذي فسدت فيه تعطّلت خطتهما التي رسماها وكانت تسير بشكلٍ جيد. حين أخبر شريف أخوه شهاب بخبر القبض على حسام بتهمة قتل الكاتب المشهور سراج عبد الملك. لم يقتنع شريف وكان بداخله شيء قوي جعله مُتأكدًا من أنه لم يفعل ذلك. وقد تم تغيير الخطة في نفس اليوم.

اتصل شهاب بشريف الكردي الذي كان ينتظر سمر والمحامي أمام القسم بالخارج: - اسمع يا شريف، قد حان الوقت لأقابل سمر، وحسام.

مُستغلّين حب سمر للمال والكسب السريع، استطاع شريف إغراءها للذهاب إلى منطقة السحر والجمال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تم تنفيذ الخطة كما رسمها شهاب بالضبط، ذهبت سمر في مساء نفس اليوم إلى والدها لتحكي له عما حدث. دون أن تعلم أن شريف قد زرع مسبقًا جهاز تصنت خلف سريره كي يستطيع معرفة أي حوار سيدور بينهما، ويعرف بماذا يفكر وماذا ستفعل سمر بعد ذلك. ومكان الخريطة. وكل شيء..

في نفس اللحظة التي كان فيها شهاب مع شريف في شقته يسمعون كل حرف يدور بينهما. فتجمد الدم في عروقهم حين اكتشفوا المفاجأة، وهي أن التوأم الثالث لم يمت يوم مولده... بل تم بيعه لأحد أكبر العائلات القبطية بأسيوط.

بينما أطرق شهاب وهز رأسه مندهشًا، قفز شريف من مكانه وأخذ يضحك بهيستيريا: - يا لها من مفاجأة... أخوك حسام سُجِنَ اليوم في جريمة قتل، ولك أخ ثالث مسيحي في أسيوط، لو انتظرنا أسبوع آخر سنكتشف أن دونالد ترامب توأمكما الرابع. سنضطر إلى تغيير الخطة التي أصبحت على صفيحٍ ساخن.

- لا... لن نغير الخطة، سنضيف فيها تعديل بسيط... كان ذلك حينما اتصلت سمر بشريف وأخبرته أنها خرجت من المستشفى وفي الطريق إليه، فأطفأ شهاب سيجارته وهمَّ ليغادر بسرعة بعدما أخذ أعقاب السجائر التي دخنها كي لا تلاحظ سمر أن هناك نوعي سجائر وتشك في شيء، ورحل بعدما قال لشريف.

- حاول أن تجذبها إلى السحر والجمال بسرعة وهناك المرشد ورنيشة أحد رجالي، يعلم جيدًا ما سنفعله.. وأنا سأخرج حسام من السجن.

- ستخرجه؟!! كيف.. هل ستجعله يهرب؟!

- لا... ستعرف كل شيء في الوقت المناسب... قل لي... متى سيكون المحامي عبد الحي بسيوني في مكتبه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحقيقة الكبرى؛ ليست إلا لوحة فسيفساء، مكونة من تفاصيل متداخلة متفاوتة الأحجام، وإن كنت تريد رؤيتها بوضوح، يجب عليك الوقوف بعيدًا عنها بمسافةٍ مناسبة. ورؤية جميع تفاصيلها بعينين جديدتين، غير تلك العينين التي كنت تراها بهما عن قرب.

بعدما تم تنفيذ خطة السحر والجمال على أكمل وجه، واستطاع شهاب مقابلة سمر وإقناعها أنه جمال سيراميكة تاجر المخدرات. تفرغ لحل قضية حسام مستخدمًا خبرته ودهائه. حصل المحامي عبد الحي بسيوني على نسخة من المحضر وأعطاها لشريف الكردي، والذي أعطاه بدوره لشهاب. حاول شهاب تذكر الأماكن التي تردد فيها يوم مقتل سراج عبد الملك، كي يخرج أخيه منها مستغلًا كونه توأمه. وبالفعل قد حصل على نسخة من فيديو بكاميرا مثبتة بأحد المطاعم بالإسماعيلية، والتي كان يومها هناك يتناول الغداء مع صديقة قديمة له. واتفق معها أن تدلي بشهادتها تلك لإخراج أخيه من هذه القضية...!

ورغم خروج أخيه من هذه القضية، لكن القضية لم تقيد ضد مجهول بعد. في قرارة نفسه شعر بذكائه أن قضية مقتل هذا الكاتب المشهور بها ثغرة وأن فريق التحقيق لم يبذل مجهود كافي في حل القضية طالما أمامهم قاتل بدافع العاطفة، شكَّ في البداية أن يكون هذا الكاتب قد قُتِل على يد البنت التي تدعى إيمان، والتي سجلت لحسام المكالمة. في نفس اليوم الذي خرج فيه حسام، اتصل شهاب بشريف:

- شريف، هل تستطيع اختراق حساب فيس بوك؟

- بنسبة ثمانين بالمئة نعم.. ولكن لماذا يا شهاب؟

- أريدك أن تخترق حساب هذا الكاتب الذي يدعى سراج عبد الملك والبنت التي تدعى إيمان...

- حسنًا سأحاول في أسرع وقت... دعني الآن لأن سمر في الناحية الأخرى أراها مع حسام توأمك الذي خرج للتو من النيابة... واستعد لأنها ستتصل بك بعد قليل لتطلب منك أن تذهب معها لتقابلكما ببعض.

أحس شهاب بقلبه يخفق فسأله متوترًا: - هل حسام مازال يشبهني يا شريف؟

أجابه ضاحكًا: جدًا.. نسخة طبق الأصل.. لكن بنيتك الجسمانية أقوى وأعرض. هيا.. اتركني الآن لأن سمر تلوح لي بيدها...

- حسنًا حسنًا... لا تنس موضوع اختراق الحسابات.

- سأبدأ في فعل ذلك بعدما أترك سمر... إلى اللقاء.

استعان شريف بخبرته ودراسته في النظم والمعلومات محاولًا اختراق حسابهما، وكانت المفاجأة...! الفتاة التي تدعى إيمان بريئة.

وآخر رسالة في حساب سراج كانت لأماني، زوجة حسام. كانت الرسائل بينهما توضح تهديده لها، أنها إن لم تذهب إليه لتقضي معه ليلة كما كانت تفعل قديمًا، سيفضحها بفيديو قد صوّره لها حين كانت في شقته بإحدى المرات.

كان ذلك في نفس الوقت الذي كان فيه شهاب في منزل حسام، فأرسل شريف الكردي على الفور رسالة لشهاب يخبره فيها باكتشافه. كان هذا حين استأذن شهاب أن يدخل الحمام بعدما أكلوا بحجة أنه يريد غسل يديه، أخذ حينها عدة شعيرات من المشط الخاص بها الموضوع بجوار المرآة، وحين بعث بتلك الشعيرات إلى المعمل الجنائي وجدوا عن طريق الـ DNA أنها مطابقة تمامًا للشعرة التي وُجدت على الوسادة بجوار جثة سراج.

وأخيرًا؛ تم القبض عليها منذ ثلاثة أيام فقط، أي بعد سفرهم إلى الإسكندرية بيوم... وبعد سلسلة من التحقيقات ومواجهتها بالأدلة الجديدة انهارت واعترفت بكل شيء... لكن شهاب لم يُخبر حسام حينها ولن يخبره الآن على الأقل. مُكتفيًا بأنه قد أخذ هاتفه منه في اليوم الذي ذهبوا فيه إلى محل كبدة الفلاح. حتى لا يتواصل معه أي شخص من أقاربها أو معارفها ليخبره بموضوع القبض عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ـَ

بعد عناق شريف لحسام وإسحق طويلًا، عناق لمدة نصف دقيقة تقريبًا. ضربه شهاب على كتفه ضربة خفيفة مُمازحًا...:

- لقد أخبرتني بالأمس أن المسدس الذي أعطيته للعاهرة سمر كان خاليًا من الرصاص...

- أقسم لك يا شهاب كان كذلك فعلًا، لم أكن أعلم أن بنت الكلب ستتأكد من كلامي وستجده فارغًا. من المؤكد أنها تصرّفت وأشترت رصاص لتلقّمه. ولكنك مخطيء أولًا وأخيرًا وأقولها لك أمام إخوتك... لقد قلت لك من البداية أنه طالما حصلت على الخريطة فلا داعي من وجودها معكم أصلًا...! أليس كذلك؟ أجبني أمام إخوتك... لقد قلت لك ذلك أم لا؟

تبادلا حسام وإسحق النظر لبعضهما البعض مترقبين ما سيقوله شهاب الذي أجابه مُتلعثِمًا:

- نـ... نعم.. لقد قلت لي ذلك لن أنكر. ولكن كما أخبرتك حينها.. كنت فعلًا لديَّ النية أن تقتسم معنا ما بداخل الصندوق. رغم أنني أعلم جيدًا أنها لا تمت لنا بأي صلة، ولا تملك أي حق في ذلك. ولكنني أشفقت عليها، فقد كانت حياتها لا تقل بؤسًا عن حسام وإسحق.. أو حتى عني رغم كل الثراء الذي عشت فيه. لكنها أولًا وأخيرًا فتاة فقدت عذريتها وهي طفلة وفجأة وجدت نفسها في الشارع. كنت أتمنى أن تكون عند حسن ظني حين أعطيها هذه الفرصة الذهبية... كنت أتمنى ألا تفعل ما فعلته وكنت سأعطيها أكثر ما تتمنى أقسم بالله. ولكن شيطانها هو سبب كل ما حدث لها... مثل أبيها تمامًا.

- أكثر شيء يعجبني فيك أن قلبك لم يمت رغم أنك ضابط. ومن المعروف أن الضباط خالون من المشاعر.

- هاهاها لا أعرف إن كنت تمزح أم لا.. ولكن بالعكس... فأكثر الضباط الشرفاء ستجد مشاعرهم مستيقظة... من أقل شيء يمكنك استدرار دموعهم.

- نعم.. أقدر كلامك هذا.. وأنا أيضًا لا أخفي عليك يا شهاب، فقد كنت أتمنى أن تكون عند حسن ظنك وتتغير إلى الأفضل. وتترك طمعها هذا. لا أخفي عليك يا أخي أنني كنت قد أوشكت على أن أحبها فعلًا. ولكنك كما قلت. شيطانها هو سبب كل ما حدث لها..... وما سيحدث. وقد أثبتت أنها غدارة ولا يمكن أن تؤتمن إطلاقًا.

سألهما حسام وإسحق في نفسٍ واحد: - ماذا تقصدون من كلامكما هذا؟

أجابهما شهاب وهو يضع سيجارة بين شفتيه: - أمازلتما مندهشين؟! عمومًا الموضوع طويل، كل ما أستطيع إخباركما به الآن، هو أن سمر لا تربطنا بها أي علاقة. لا من أم أو من أب... وأن والدنا الحقيقي هو عاطف الكردي.. أبو شريف..

نظرا إلى بعضهما البعض ثم إلى شريف الذي أطلق ضحكة وشرع ذراعيه على امتدادهما قائلًا:

- والآن، ألم يحن الوقت لنصعدَ إذن ؟

- إلى أين؟! سأله إسحق

- إلى الأعلى، الشاليه الذي استأجرته في نفس اليوم الذي جئتم فيه إلى هنا. لديَّ مفاجأة لكما... تعالا معي.

صعد شريف مع شهاب... وخلفهما إسحق وحسام... فتح شريف الباب قائلًا: تفضلا..

صُعِقَ كلا من إسحق وحسام حين رأوا سمر، مُقيّدة بقوة في كرسي مقيد في الحائط، ولاصق عريض رماديّ اللون على فمها. وأمامها الصندوق الذهبي. ما إن دخلوا عليها حتى اتسعت عينيها خوفًا، فزعت مما رأته أمامها، حاولت الصراخ لكن حال دون ذلك اللاصقة التي على فمها. حاولت مُنفعِلة التخلّص من قيدها لكن شريف الذي أحكم تقييدها جيدًا قال لها:

- لقد تعمّدت حين قيدتك وتركتك لأذهب وأحضرهم إلى هنا. أن أترك الصندوق أمامك هكذا... حتى تشاهدينه وتتحسّرين على الفرصة الذهبية التي ضيعتيها من بين يديكي بطمعك هذا يا ابنة الشياطين. لقد أعطيتك فرصة من قبل، حين أخرجتك من السجن، لكنك لا تتعلّمين، ومشيتي وراء شيطانك أيتها العاهرة. وهذه المرة أيضًا ضيعت فرصة الرائد شهاب محمد نور الدين لك...

قالها وهو يشير إليه. فذهلت حينها وصعقت مما تسمعه، توقفت عن الحركة محاولة فهم واستيعاب ما يحدث.

اقترب شريف منها واضعًا يده على شعرها وأخذ يمسده قائلًا: - كنت أتمنى فعلا أن تكوني قد تغيّرتي، لكنك أثبتي أنك لست أهل لأي أمان. ولن نستطيع إعطاءك الأمان مرة أخرى. فالفرصة حين تضيعيها مرة تكون غلطتك. لكنها في المرة التالية تكون غلطتي أنا.

وضع يده في جيب شهاب الخلفي ليأخذ محفظته وفتحها أمام عينيها المذهولة: - انظري... انظري إلى الشخص الذي كنتي تريدين الغدر به...

فجمال سيراميكة هو نفسه الرائد شهاب نور الدين.. وأنا.. شريف عاطف الكردي، أخوه. ووالدي هو الأب الحقيقي لنا جميعًا.. وكنتي تعرفين ذلك حين أخبرك والدك الحمار بذلك في المستشفى. وبرغم أنك عرفتي أنهم ليسوا إخوتك لا من ناحية الأب أو الأم. أردتي الاشتراك معهم ليقتسموا معكِ ما بداخل الصندوق. لم تكتفِ بهذا وحسب... بل حاولت الغدر بهم وأطلقت رصاص على رائد مباحث...

اقترب شهاب منها وصفعها على وجهها وسألها: - من أين جئتِ بالرصاص يا قذرة؟ ومتى؟!!

بصق في وجهها، دارت برأسها الجدران حتى أغمضت عينيها في بطء، رجعت رأسها إلى الوراء وغابت عن الوعي...

- هيا بنا نتركها الآن يا شريف... قالها شهاب.. فلدينا من هو أهم منها الآن، والوقت يداهمنا... هيا بنا وسنعود لها لاحقًا.. أو لا نعود...

لا فارق.

زمَّ شريف شفتيه وهو ينظر لها، أعطاه مفتاح السيارة قائلًا له: - انزلوا أنتم انتظروني في السيارة وسأتبعكم بعد دقيقة...

نزلوا جميعًا تاركين شريف الذي فتح الثلاجة واستخرج منها علبة عصير ووضع بداخلها شفاطة، ظل يضربها ضربًا خفيفًا على وجهها. فلم تستفق، دخل الحمام ليحضر زجاجة عطر وقرّب فوهتها من أنفها فاستفاقت من إغماءتها تدريجيًا، تلفتت حولها مذعورة فوجدته أمامها وقد أدركت أن كل ما حدث حقيقة بالفعل وليس حلمًا.. لوّح شريف بيديه أمام وجهها:

- انصتي إليَّ جيدًا، سأنزع اللاصقة من فمك لتشربين هذا العصير دفعة واحدة. وسأعيد اللاصقة مرة أخرى. لا تصرخين... إن أصدرت أي صوت سأفرغ هذا المسدس في رأسك.

هزت رأسها موافقة، انتزع اللاصقة ووضع الشفاطة بين شفتيها، شربت العصير بأنفاسٍ لاهثة وقد أطلقت على عينيه سهام نظراتها بعينيها الرماديتين. ارتبكَ بعض الشيء واضطر لأن يشيح بعينيه عنها كي لا يضعف.. طفرت من عينيه دمعة حينها. حزنًا عليها؟! ربما.. وربما تحسرًا! انتهت من العصير فأعاد اللاصقة على فمها فالتقت عيناهما مرة أخرى، لم يستطع حينها انتزاع عينيه من عينيها، هز رأسه مُتأسيًا:

- حقًا.. حقًا يا سمر كنت أتمنى ألا تفعلي كل هذا... كنت أتمنى أن أكون قد استطعت تغييرك... كنت على استعداد أن أتقبل أي شيء أحمق قد تفعليه معي... لكن تصرف كهذا الذي فعلتيه.. أثبت أنك بنتِ كلب عاهرة رخيصة

غدارة ليس لكٍ أمان... إلى اللقاء.. إلى اللقاء يا أكثر فتاة أحببتها في حياتي... وكنت على استعداد أن أبيع أي شيء لأجلها...

إلا إخوتي.. من لحمي ودمي..

وخرج حاملًا معه الصندوق

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ساعتين وأربعين دقيقة...

وصلت السيارة الـ BMW السوداء إلى مستشفى السلام الدولي بالمهندسين. نزل منها شريف فقط تاركًا إخوته داخلها. وصعد إلى الطابق الرابع الذي فيه شكري شعيب. سأل عنه الطبيب المتابع لحالته فأخبره أنه تحسن كثيرًا...

- هل نستطيع أن نأخذه ليكمل علاجه في البيت إذن يا دكتور؟

- نعم بالطبع. سأكتب لك إذن خروج. مع بعض الأدوية التي سيتناولها في الفترة القادمة ونظام غذائي معيّن. تستطيع الذهاب لدفع كل التكاليف في قسم الحسابات إلى أن انتهي من كتابة إذن الخروج.

شكره شريف وذهب إلى قسم الحسابات ودفع ثمانية عشر ألف جنيه بالإضافة إلى استئجار سيارة إسعاف لتنقله إلى شقته بشارع جامعة الدول العربية. ثم صعد مرة أخرى إلى الطبيب الذي أعطاه روشتة الأدوية.

- شكرًا يا دكتور... أخذ شريف الروشتة وخرج، نظر لها مبتسمًا ابتسامة ساخرة وهو يقطعها ثم ألقى بها في سلة المهملات بالطرقة قبل أن يدخل لشكري غرفته قائلًا له وابتسامة عريضة مرسومة على شفتيه:

- كيف حالك يا عمي، حان الآن موعد خروجك من المستشفى... طالما انتظرنا أنا وسمر هذه اللحظة.. وكنا قد أقسمنا بالله وبكافة الأيمانات أننا لن نتزوج إلا بعد أن يتم الله شفاؤك على خير..

- مبروك يا حبيبي، هذا هو اليوم الذي عشت من أجله وتحمّلت كل المتاعب وقاومت الموت.

- بعيد الشر عنك يا عمي... نصف ساعة وتستريح في بيتك الجديد... راحة لم تشعر بها من قبل.

قالها شريف ولازالت الابتسامة تكتسي وجهه حين جاء المسعفون بالسرير المتنقل، حملوا شكري ووضعوه فوقه، في الوقت الذي انتزع فيه المسجل الصغير الذي زرعه مسبقًا وراء السرير، والذي عن طريقه كان يسمع ما

يجري بينه وبين سمر. خرج المسعفون به إلى سيارة الإسعاف. والتي وصلت بعد عشرون دقيقة إلى العنوان الذي أعطاه لهم شريف وقد كان يقود سيارته أمامهم.

أدخله المسعفون غرفة النوم ووضعوه على السرير، فوضع شريف في جيب كل منهم ورقة فئة مئة جنيه. وغادروا...

في نفس اللحظة التي دخل فيها شريف إلى غرفة النوم، وجد شكري يلتفت حوله ويجول بعينيه في كل أرجاء الغرفة، مُنبهرًا بجمالها وبالراحة التي شعر بها على السرير الوثير.

- هل أعجبتك الغرفة يا عمي؟ ألم أخبرك منذ قليل أنك ستشعر براحة لم تشعر بها من قبل؟

- نعم يا حبيب عمك... وخصوصًا هذا السرير المريح... لم أشعر براحة كتلك منذ أكثر من عشرين عامًا..

قال له ضاحكًا: - نعم يا عمي فهذا نفس كلامك سمر ابنتك، هذا السرير كانت تتأوه فوقه من أسبوع وهي تحتي يا عمي...

اعتدل في جلسته قائلًا بانفعال: - نعم؟! ماذا تقول يا ولد؟

- لالالالا... وقّر صحتك هذه في الكلام المهم يا عمي... لا تأبه لكلامي هذا الآن. فالمهم لم يأتِ بعد..

- ماذا تقصد؟! سأله شكري شعيب مُتعجبًا

كان ذلك حين دخل عليه الغرفة الثلاثة تواءم. وما إن رآهم شكري بعينين نصف مغمضتين حتى ترجم كل شيء بسرعة. ومرّ أمام ناظريه مشهد يوم مولدهم. وخروج الممرضة كل عشر دقائق بواحدٍ منهم... تلاه مشهد أخذه ثمانية آلاف جنيه من الرجل الذي اشترى إسحق... تلاه مشهد إلقاء شهاب في العراء عاريًا بعد أن ضربه ضربًا مُبرِحًا... تلاه مشهد ضرب أمهم حتى الموت... تلاه مشهد....

أطلق شهاب ضحكة تردد صداها في أرجاء الغرفة: - آسف يا شكري لأنني مُضطر أن أقطع عليك هذا الشريط السينمائي الذي يعرض أمام عينيك الآن...! ضحك مرة أخرى لثوانٍ وهو يجول ببصره بين حسام، إسحق وشريف قبل أن يردف:

- كيف حالك يا شكري؟! هل تعرف من أنا أم لا؟!

لم يستطع شكري الرد عليه وانعقد لسانه، شعر حينها أن جسده أصبح باردًا فارتجف... أردف شهاب: - أنا.... لالالا لن أخبرك من أنا في الثلاث تواءم الآن.. تستطيع مناداتي القس إسحق جرجس سرجيوس.. أو الرائد شهاب نور الدين... أو الكاتب حسام، الذي رأى أمه تُضرَب أمامه حتى الموت...

بدا شكري كالفأر المذعور الذي تم القبض عليه داخل مصيدة... كاد يتكلم لكن بُح صوته وسعل مُتلفتًا حوله كالمجنون مُحاوِلًا – عبثًا - النهوض والهروب منهما حتى لو يلقي بنفسه من الشرفة لكنه لم يستطع التحرك، علاوة على وقوف شهاب أمامه الذي وضع يده على رأسه مُهدئًا من روعه حتى أراح شكري ظهره بقلقٍ وتوجس ومدد جسده، سكن حابسًا أنفاسه مُترقبًا لما سيحدث. صعد شهاب فوق السرير ثم اعتلاه واقفًا على ركبتيه وحضن وجهه بكفيه. تلاقت عيناهما لثوانٍ، كان ذلك حين بكى كلا من حسام وإسحق الواقفين على مقربة منهما يشاهدون أخوهما وهو واقف على ركبتيه المثبتتين على السرير وبين فخذيه يرقد جسد العجوز النحيل. أجهشا بالبكاء؛ ليس عليه، وإنما على الدائرة حين على الباغي تدور.

استخرج شهاب من جيبه الخلفيّ محفظته التي بداخلها صورة أمه الأبيض وأسود.. والتي طالما نظر إليها مليًا في ظلمة لياليه، متذكرًا آخر كلمات قالتها له... وفي كل مرة كان ينظر إلى الصورة يبكي بحرقة حتى تحمرّ عينيه. ويقسم بالله أن يأخذ بثأرها. وها قد أتى اليوم الذي طالما خطط له. أمسك الصورة ووضعها أمام عينيه..

- انظر..

هرب شكري بعينيه بعيدًا فأمسك شهاب ذقنه بقوة وأعاد وجهه أمام الصورة مجبرًا إياه أن ينظر إليها:

- انظر جيدًا إلى هذه الصورة... لأنها ستكون آخر شيء تراه...

أجهش شكري بالبكاء فجأة؛ ربما بسبب رؤيته لصورة حسناء... وربما بسبب تأكده أن ساعته قد حانت... وربما بسبب توقعه أنهم سيقتلون سمر بعد ذلك... المهم أنه يبكي الآن، فسأله شهاب وهو شارع ذراعيه:

- هل تعلم أن الموت هنا الآن معنا في هذه الغرفة يا شكري؟!

.....-

- مممممم طيب، دعني أسألك سؤالًا آخر، هل ذقت يومًا ما صفعات المباحث؟... أجبني... أجبني.. قال الأخيرة صارخًا في وجهه فأجابه شكري مُنهارًا أن لا... لم يذقها.. فابتسم له شهاب قائلًا: حسنًا.. ها هي..

قالها وقد صفعه بيديه على وجهه يمينًا ويسارًا في نفس الوقت، صفعة قوية جعلته يبكي أكثر وأكثر.

- لالالا يا شكري.. فأنا دفعت ثمانية عشر ألفًا كي أنقذك من الموت داخل السجن وأودعتك في مستشفى خاص... من أجل هذه اللحظة... فحاول أرجوك أن تتحلّى بالقوة قليلًا... لا تمت الآن. لقد فكرت، وفكرت، وخططت، وأنفقت كل هذا الوقت والمال لأستئذن الموت ألا يأتيك هناك... ودعوته هنا... أريدك أن تجول ببصرك في كل أرجاء هذه الغرفة لتراه... حاول أن تستمتع بالبحث عنه ورؤيته مُقبِلًا عليك.

أنهار شكري أكثر في البكاء مُحاوِلًا إمساك يد شهاب لتقبيلها قائلًا: - أرجوك يا ولدي... اصفح عني.. اتركني.. ارحمني.. لا تقتلني أرجوووك.

نهض من فوقه ووقف على الأرض بجوار إخوته قائلًا بصوتٍ خافت لكنه حاد:

- نعم؟! نعم؟!! أصفح عنك؟ أصفح عمن؟ ولماذا لم تصفح أنت عن حسناء حين توسلّت إليك... ولماذا لم ترحمها حين كانت تموت أمامك كل يوم وعاشت معك أيامًا سوداء وفاقت بعذابها كل عذاب.. لماذا لم تتركها وشأنها؟! أنت لم تقتلها مرة واحدة يا شكري.. أنت قتلتها عشرات بل مئات المرات...! كيف يمكنك أن تطلب مني الصفح هكذا بمنتهى البساطة بعد أن سلبت بظلمك وطمعك أجمل سني حياة امرأة قبل أن تنتزع روحها، امرأة ليس لها أي ذنب سوى أنها صدقتك... أنت سُجِنت بسبب قتلها مرة واحدة... هذا عذاب الدنيا.. وحكم القاضي. يتبقى الآن حكمي أنا... قالها رافعًا سبابته المتصلبة عاليًا.

- يتبقى الآن حكمي أنا... على مئات المرات التي قتلتها فيها.. وعلى ما فعلته فينا..

ظل شكري يبكي حتى كاد يغيب عن الوعي، سأل شهاب أخيه شريف: - أين الصور الكبيرة يا شريف؟

خرج شريف ليحضر عشرة إطارات ذهبية اللون بداخلهما نفس الصورة التي في محفظة شهاب، بعد أن تم تكبيرها مُسبقًا، وقد ثبّتوا من قبل عشرة مسامير في الحوائط يمينًا ويسارًا وأمامه، لتعليق الإطارات عليهم. أخذ شريف الإطار تلو الآخر يعلقهم..

قاله له شهاب شارعًا ذراعيه مُتصنعًا الندب كالثكلى: - علّق يا شريف، علّق يا حبيبي... أريد أن يرى صورتها إن تلفَّت بعينيه في أي اتجاه.

كل ذلك وما زال إسحق وحسام يشاهدان ما يحدث أمامهما بعينين مغرورقتين، بعدما انتهى شريف من تعليق آخر إطار انحني ليجلب حبل من

تحت السرير ليقيّدوه جيدًا ويحكموا تقييده كي لا يستطيع التحرُّك مُطلقًا.

- لن أقتلك قتلًا رحيمًا يا شكري... سأجعلك تموت مئات المرات.. بالبطيء.. مرة بسبب عدم الأكل والشرب والدواء... ومراااات بسبب مشاهدتك لصورة تلك المرأة التي سلبت منها كل شيء...

تراجع خطوتين مكررًا بصوتٍ أعلى: - كل شيء.

أقبل عليه مرة أخرى وقد اقترب بوجهه منه حتى كاد أنفه يلمس أنف شكري الذي كان ينظر له بعينين جاحظتين نظرة فجائعية، كرر شهاب صارخًا بقوة حتى كادت حنجرته تنخلع والرذاذ يتطاير من فمه في وجهه: - كل شيء...!

همَّ ليخرج بعد ذلك وأشار لهما أن يخرجا معه. لكنه سرعان ما تراجع ووقف أمامه مرة أخرى فتوقفا مثله...:

- آه نسيت أن أخبرك أنني ذلك الصبي الذي ألقيت به في العراء.. حسن.. أو الرائد شهاب محمد نور الدين... وهذا حسام الذي ضربته يوم قتلك لحسناء... وهذا إسحق جرجس سرجيوس، الذي بعته بثمنٍ بخس يوم مولده وحلت بينه وبين حضن أمه...

حسناء.

والآن... أتركك مع الموت وحدكما في هذه الغرفة

قالها وخرج بعد أن بصق في وجهه مُتقززًا، فبصق حسام في وجهه أيضًا قبل أن يخرج. تلاه إسحق الذي بصق في وجهه قبل أن يخرج هو الآخر... لم يتبق في الغرفة سوى شريف الذي لم يستطع أن ينظر إليه. مُكتفيًا بوضع شارة سوداء على أقصى يسار إحدى الصور المُعلّقة... والتي بداخلها صورة أبيض وأسود لسيدة، كانت اسمًا على مسمى..

حسناء...

خرجوا من الشقة ونزلوا الشارع وقد شعروا جميعًا أن حِملًا ثقيلًا قد انزاح من فوق كتفيهم بعدما أخذوا بثأر والدتهم.

ركبوا بعدها السيارة ومعهم الصندوق الذي فتحوه في الطريق...!

(تمـــت بحمد الله وتوفيقه)

أمير عاطف

٢٠ سبتمبر ٢٠١٧ الساعة الرابعة فجرًا

فندق شتايجنبيرج

محطة الرمل الإسكندرية مصر

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة